



مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

مجلة لغوية علمية تصدر عن المجمع الجزائري للغة العربية

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مجلة المجمع الجزائري للغة العربية

مجلة لغوية علمية يصدرها المجمع الجزائري للغة العربية

المدير المسؤول

د. عبد الرحمن الحاج صالح

رئيس التحرير

عثمان شبوب

اللجنة العلمية

د. محمد صاري

د. صالح بلعيد

د. التواتي بن التواتي

د. أحمد حساني

د. عبد الجليل مرتاض

د. بشير إبرير

عنوان المراسلة : 06 شارع العقيد بوقرة - الأبيار - الجزائر

البريد الإلكتروني : aala@wissal.dz

هاتف : 213 21.23.07.90 - الفاكس : 213 21.23.90

* المقالات التي ترد إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها تنشر أو لم تنشر
* كل باحث مسؤول عن آرائه

محتويات العدد

- 1 - اللغة العربية والبحث العلمي المعاصر أمام تحديات العصر،
أ.د عبد الرحمن الحاج صالح 9
- 2 - الثقافة العربية في الجزائر ودورها في الثقافة العربية الإسلامية
أ.د الربيع ميمون 29
- 3 - هل - بلى مسألتان في الاستفهام تحتاجان إلى فتوى لغوية معاصرة !
أ.د صالح بلعيد 71
- 4 - هل إتقان اللغة مرتبط بالإبداع العلمي ؟
د. أبو بكر خالد سعد الله 115
- 5 - الوقف في اللغة العربية: في القرآن الكريم والشعر العربي
أ.د مرتاض . ز . سرير إلهام 135
- 6 - الخليل بن أحمد الفراهيدي منظرا نحويا وعنايته بالقراءات وتوجيهها النحوي
أ.د التواتي بن التواتي 149
- 7 - تيسير النحو في ضوء علم تدريس اللغات
أ.د محمد صاري 189
- 8 - مصطلحات المماثلة ودلالاتها في الفكر الصوتي عند «سيويه»
أ.د جيلالي بن يشو 205

9- من تراثنا العربي : شاعرات من الأندلس،

د. محمد الشريف قاهر 225

10 - أنباء وآراء 259

من أخبار مشروع الذخيرة العربية 261

مستقبل اللغة العربية 301

اللغة العربية والبحث العلمي المعاصر أمام تحديات العصر⁽¹⁾

الأستاذ الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح
رئيس المجمع الجزائري للغة العربية

إن البحث العلمي في اللغات يمثل في عصرنا هذا ميدانا واسعا وهاما بسبب الأهمية القصوى التي يتصف بها دوره في رصد الاستعمال للغات وتسهيل تعلمها والحفاظ عليها وتطويرها بجعلها قادرة على الاستجابة لما يتطلبه العصر الحديث والتعايش الندي للند مع اللغات الأخرى. وكل هذا جد مفيد لمغالبة العولمة الاقتصادية والثقافية⁽²⁾. ونجح هذا البحث في البلدان الغربية إلى حد بعيد ولا سيما في الأونة الأخيرة بلجوء العلماء وأهل الاختصاص إلى التكنولوجيا الحديثة وخاصة في ميدان الحاسوب فالحاسوب هو

(1) تعرضنا للكثير من هذه الأفكار والأعمال في شتى اللقاءات والندوات الدولية.
(2) ينسى الكثير من الناس أن العولمة بالنسبة للعالم الثالث قد بدأت في القرن السادس عشر الميلادي بالغزو الأوروبي الاستعماري.

آلة عجيبة جداً لأن لها قدرة عظيمة على العمل الترتيبي والإحصائي والتجميعي والتمثيل للملايين من المعطيات في ثوانٍ أو دقائق أو ساعات قلائل . فهو يقوم مقام الجماعات من الباحثين التي قد تعد بالمئات والآلاف .

فكل هذا يكاد يكون غير حاصل في وطننا العربي بالنسبة للاستغلال الكامل للحاسوب في ميدان البحث اللغوي من جميع الوجوه . نعم قد بدأ بعض المهندسين في الحاسوبيات في الوطن العربي يهتمون بما جدَّ من جديد في ميدان ما يسمى الآن «بهندسة اللغة» وعقدت بعض اللقاءات الدولية في هذا الميدان إلا أن هذا قليل وهامشي إذ ما يزال أكثر اللغويين العرب يجهلون الكثير مما يجرى من بحوث تقنية في ميدان اللغات . ويتخوف بعضهم من الجانب التقني لهذا البحث مع أن المطلوب من اللغوي هنا ليس هو ما هو مطلوب من المهندس بل الذي هو مطالب به هو التعرف على هذا الميدان والاطلاع على ما يجرى فيه من بحوث وما يطرحه من مشاكل لغوية محضه غير تقنية فالمهندس وحده لا يستطيع أن يقوم مقام اللغوي إلا إذا كان عالماً باللسانيات وباللغة العربية خاصة وهذا نادر جداً . إنما الذي نطالب به المهندسين واللغويين هو أن يكون لهذا وذاك اطلاع كافٍ على الاهتمامات العلمية كل واحد منهما .

إن المجامع العربية قد قامت بأعمال عظيمة منذ نشأتها . فكل هذا

الذي سنقوله فيما يلي لا يمكن أن يحط من قيمة هذه الأعمال فقد بذل كل مجمع وكل عالم في الجهود التي تستحق منا التقدير والاحترام. ولولا هذه الجهود لما توصلنا إلى هذه المعاجم المفيدة العظيمة وهذا العدد الكبير من المصطلحات العلمية وهذه الدراسات القيمة في اللغة العربية (منذ أكثر من قرن).

فالذي نريد أن نلفت أنظار إخواننا إليه هو الطابع التقليدي الذي تتصف به البحوث اللغوية في جميع البلدان العربية وجميع المؤسسات وعدم تطور هذه البحوث وقلة اهتمام الباحثين في اللغة العربية بما يطرأ من جديد في ميدان تكنولوجيا اللغة العالمي. وبذلك نتعذر الاستجابة لمتطلبات العصر.

وتنحصر النقائص، في نظرنا، في وضع المصطلحات وغيرها من الأعمال الخاصة بتكييف اللغة وإثرائها في أمور ثلاثة :

- **اعتباطية العمل** عند الكثير من اللغويين أي عدم خضوعه لضوابط علمية وذلك بعدم مراعاته لمعطيات العلوم اللسانية الحديثة بصفة خاصة ومنهجية العلوم الاجتماعية بصفة عامة.

- **حرفيته** أي اقتصره على البحوث الفردية التي هي أشبه شيء بالصناعات التقليدية يعتمد فيه على المعالجة اليدوية كالنظر الجزئي في القواميس والاقتصار على جرد العديد من المعلومات بالأيدي العزلاء.

- **عدم شموليته** بعدم الرجوع إلى كل المصادر العربية التي يمكن الاستقاء منها- وخاصة المخطوط منها- وجميع المراجع الأجنبية التي يمكن استغلالها لتحديد المفاهيم الحديثة. وستناول فيما يلي كل واحد من هذه الأمور الثلاثة على التوالي:

1. العمل الاعتباري : نقصد بذلك العمل الذي لا يعتمد على مجموعة من المبادئ النظرية العلمية وعلى منهجية دقيقة تنبني هي بدورها على تلك المبادئ ومبادئ عامة غيرها. فالعمل الاعتباري يتصف قبل كل شيء بخضوعه للتحسس الذاتي المبعثر وتسيير الأمور **على الهاجس**. فعدم وجود مجموعة من المقاييس العلمية الدقيقة - وأهمها مقاييس المشاهدة والتحليل - قد يؤدّي الباحث إلى هذا النوع من السلوك الناقص **والحكم على الشيء بدون الرجوع إلى الواقع**.

أما بالنسبة للبحث الخاص بالمصطلحات فإننا لا نعنى بالمقاييس العلمية تلك التي يعتمد عليها واضعو المصطلحات في توليد اللفظ الدال كقواعد الاشتقاق وتفرع الألفاظ من الأصول والنحت وطرق الاتساع في اللغة والمجاز وغير ذلك مما هو معروف عند اللغويين منذ أمد بعيد. فهذا وإن كان مهماً وضرورياً إلا أنه لا يفي أبداً بالغرض إذ إن اللغة **وضع واستعمال** وليست فقط وضعاً. بل

لظواهر الاستعمال، أسرار وكيفيات خاصة. واللغوي الذي لا يهتم بذلك فمثله كمثل الصانع الذي يضع للناس أدوات دون أن يراعى اهتماماتهم وحاجياتهم الحقيقية ودون أن يلتفت إلى ما يناسبهم من تلك الأدوات وما تميل إليه طباعهم ويستخفونه ويستحسنونه. فما دام اللغوي يضع لغيره المصطلحات وهو يجهل كل هذه الأسرار بل القوانين التي تجعل من هذا اللفظ يسير بين الناس ويشيع شيوعاً واسعاً ويقضى في الوقت نفسه على ذلك اللفظ الآخر لأسباب معينة ولأحوال يتصف بها لا تلائم هذه القوانين الخفية (وما هي خفية في الواقع إلا لعدم التفات اللغوي إليها).

وقد يتساءل المتسائل عن كيفية الكشف عنها وهذا أمر غريب في عصرنا الحاضر حيث يحاول الأخصائيون الكشف عن أسرار الظواهر الاجتماعية وهل من منكر أن اللغة ظاهرة اجتماعية بالدرجة الأولى؟ ويكفى أن نمثل لهذا البحث بمثال واحد: ألا يمكن أن ننظر في جميع ما وضعه اللغويون وغيرهم منذ أكثر من نصف قرن من ألفاظ جديدة (ولابد من حصرها وإحصائها) ونجرب بعد ذلك التحريات الميدانية الواسعة لنحصى ما دخل من ذلك في الاستعمال الفعلي وما لم يدخل ثم ننظر في تلك القوائم لنبحث عن أسباب نجاح اللفظ أو فشله من جميع الجوانب :

الاجتماعية المحضة والنفسانية والفيزيولوجية وغير ذلك ويتم ذلك بوضع مجموعة من الافتراضات ثم اختبارها بشتى أنواع الاختبارات: كالاستفتاء الذي يوجه إلى المستعملين أنفسهم. والنظر الدقيق في نتائج هذه الاستفتاءات وكالاختبار المنتظم لمجموعات معينة من المصطلحات يجرب مدى نجوعها في ميدان العمل في مدة معينة ثم ينظر فيما تؤول إليه والسؤال عنها بكيفية أيضا منتظمة حسب ما تفرضه علينا المقاييس العلمية الخاصة بهذا النوع من البحوث. وقد يقول اللغوي التقليدي إن هذا ليس من اختصاصه! والإجابة عن هذا بسيطة: وهو أنه لا يزال ينظر إلى البحث اللغوي على أنه مجرد بحث عن الألفاظ في القواميس والنظر في كيفية ملاءمتها للمسمى والاشتقاق منها. نعم قد تعود الناس في البلدان العربية أن ينظروا إلى اللغوي بهذه النظرة فإذا حدثوا عن مثل هذا البحث الذي ذكرنا قالوا هذا راجع إلى العلوم الاجتماعية الحديثة. وهكذا يجمدون البحث اللغوي بعزله عن كل ما يمكن أن يفيد⁽³⁾. ثم إنهم يتجاهلون أن التأثير على الواقع وتحويله لصالح الإنسان إنما يتم بالإطلاع على أسرارهِ والخضوع

(3) ولم يكن اللغويون العرب قديما يرون هذا الرأي فإن الاستعمال عند الخليل وسيبويه وأصحابهما كان يكون عنصرا هاما في استقراهم لقوانين العربية وعاملا أساسيا في تحليل الظواهر الشاذة عنها.

لقوانينه الطبيعية وهل اللغة -وضعا واستعمالا- إلا جزء لا يتجزأ من هذا الواقع. ثم إن هذا البحث القاموسي هو نفسه غير خاضع عند أكثر اللغويين في زماننا لمقاييس منهجية دقيقة بل هو أيضا اعتباطي فهل اعتمد اللغويون قبل اليوم على منهجية علمية واضحة دقيقة في استخراجهم للألفاظ من القواميس؟ أم هل كان عملهم هذا منظما منسقا مخططا بحيث لا يترك مما هو موجود في طي القاموس أي شيء يستحق أن يذكر ويقترح كمصطلح يناسب المسمى الفلاني؟ والمؤسف أن هذا البحث ينحصر في تصفح هذا اللغوي أو ذاك المرة بعد المرة لقاموس معين بكيفية جزئية متقطعة مبعثرة غير شاملة. ثم هل أقيمت ورتبت كل المفاهيم الأساسية التي لا يوجد لها مقابل في اللغة العربية فإن حصل هذا لبعض المفاهيم فعلى أي أساس يتم اختيارها ولماذا كان دائما المنطلق اللغة الفرنسية وحدها أو اللغة الإنكليزية وحدها أو لم يعلم أن الألفاظ الدالة قد يختلف مدلولها من لغة إلى أخرى مع اتحاد المسمى أي قد يتفق اللفظان من لغتين مختلفتين في إطلاقهما على المسمى الواحد ويختلفان في نظرة أصحابهما إلى ذلك المسمى فكل واحدة من اللغتين المذكورتين قد تسمى الشيء الواحد ويكون تصور أصحابها له غير مطابق تماما لتصور الآخرين. ولهذا ينبغي أن ينطلق من أكثر من لغة واحدة لضبط

المفاهيم المشتركة بين الأمم ونتحفظ أشد التحفظ في نقل المفاهيم الخاصة بأمة واحدة وذلك لتفادي التبعية الثقافية التي قد تشوه شخصيتنا العربية . فالمفاهيم العالمية المجمع على أهميتها في الميدان العلمي والتقني هي التي ينبغي أن تعرب ولا سبيل إلى العثور عليها إلا بالمقارنة الدقيقة بين مدلولات الألفاظ في أكثر من لغة .

ثم إن اختيار اللغوي لهذا اللفظ الذي عثر عليه بالصدفة في نص من النصوص للدلالة على مسمى من المسميات الحديثة هو أيضا عمل اعتباطي محض لعدم اعتماده في استقائه للألفاظ على الاستقراء الواسع الشامل أي المسح الكامل لجميع معطيات اللغة بل لجميع ما ورد في النصوص التي وصلتنا . وقد يعثر اللغوي على لفظ غريب وتكون غرابته لا بالنسبة لنا فقط بل حتى بالنسبة للعرب القدامى أنفسهم ولا يلتفت إلى ذلك⁽⁴⁾ . فيطلقه على مفهوم مأنوس غير غريب مما هو مبتذل في زماننا⁽⁵⁾ ثم يتعجب من عدم إقبال الناس عليه . هذا بقطع النظر عن عدم معرفته لجميع إمكانيات اللغة الموجودة بالقوة في أقيستها فهو وإن كان يعرف أن لصيغ الكلام مدلولات متنوعة تختص بها كل صيغة

(4) بل لا يستطيع أن يميز بين الغريب وغيره لعدم معرفته لدى تردد هذا الاستعمال القديم .

(5) وذلك مثل «الاريزو» الذي اقترحه بعض المجمعين للدلالة على الهاتف و «المطنة» للدلالة على مضرب الكرة .

فإنه لا يلتفت إلى هذه المدلولات إلا من خلال ما تركته لنا الكتب النحوية⁽⁶⁾. وهذا وإن كان ضروريا فإنه لا يكفي إذ يحتاج اللغوي إلى أن يعرف مدى شيوع الصيغة في القديم والحديث، وبأي معنى وفي أي سياق. فهذا النوع من الدراسة يكاد يكون مفقودا تماما في زماننا هذا. ثم قد يكون سبب الغرابة وعدم شيوع اللفظ في القديم -وبالأحرى في عصرنا- ما يتصف به من تنافر شديد لحروفه فلا يلتفت هنا أيضا إلى ذلك وإن قيل له في ذلك فإنه لا يبالي بل يعتذر بهذا القول: «هذا راجع إلى أذواق الأفراد واختلاف الطبائع والأمزجة وهي من الأمور التي لا يمكن أن يحصل فيها التوحيد». فهذا القول هو في الواقع مجرد سفسطة أو هو صادر عن جهل عميق بقوانين الاقتصاد اللغوي ونعني بذلك التوازن الذي ينتج من قوتين متدافعتين: ميل المتكلم بطبعه إلى الاقتصاد في تأديته (العفوية) لكلامه واحتياج المخاطب إلى البيان أي أن يكون الخطاب الموجه إليه واضحا غير ملتبس. ويحصل التوازن حين يكون مردود الكلام⁽⁷⁾ مساويا للمجهود الفيزيولوجي المبذول لتحقيقه. فلكي تعرف بالضبط كيف ينطبق هذا المبدأ على اللغة

(6) وأكثر اللغويين يلتفتون إلى كتب المتأرخين - والمطبوعة منها فقط - ويتركون كتب أولئك الذي شافوها السليقين من الناطقين بالضاد.

(7) أي بلوغ معانيه إلى ذهن السامع كما يقصده المتكلم.

العربية فلا بد من الرجوع إلى ما قاله علماؤنا في شأن الأصوات والحروف وتنافرها ثم الاعتماد على التجارب العلمية في المخابر الصوتية الحديثة. فإن نحن جهلنا كل هذه الأشياء فكيف نحكم على هذا اللفظ بالخفة أو الثقل وقد رأينا أن اللغوي الذي يجهل هذه الأمور قد يجعل من الخفة والثقل أمرا خاصا بذوق الأفراد وليس الأمر كما يزعم أبدا.

وبناء على هذا فإن اختيار هذا اللفظ من بين الألفاظ التي يعثر عليها الباحث من هنا وهناك (8) أو تلك التي يصوغها صوغا بالاشتقاق من الأصول أو الكلم المعروفة، للدلالة على هذا المسمى المحدث أو ذاك لا يمكن أن يتم على أحسن الأحوال إلا إذا توفرت لدى الباحث جميع المعطيات التي ذكرناها وإلا كان عمله مجرد خبط عشواء. ولهذا أيضا بدأنا في بلادنا في إجراء البحوث الميدانية و المخبرية الشاملة للحصول على هذه المعطيات التي لا مناص منها. وسبق لنا أن ذكرنا في بحث سابق نشرناه في مجلة اللسانيات (العدد الرابع) (9) بعض المقاييس التي استخلصناها من بحوثنا وبحوث غيرنا لاختيار الألفاظ.

العمل الشبه الحرفي: إن البحث في وضع المصطلحات العربية

(8) في غالب الأحيان وهذا البحث غير الاستقرائي الشامل هو أيضا اعتباطي كما سنراه فيما يلي.

(9) تحت عنوان: أثر اللسانيات في النهوض بمستوى معلمي اللغة العربية.

لا يزال كما قلنا شبه حرفي ونعني بذلك أنه لم يخرج بعد من طور البحث **الفردى اليدوى** الذى لا يزال يجرى على مستوى الأفراد حتى ولو كان المعنيون به منتسبين إلى هيئة علمية يعملون فيها مع غيرهم لأن عملهم ليس جماعيا فى الحقيقة إذ العمل الجماعى هو الذى تقوم به جماعة أو أسرة من الباحثين ينتظمون فيها انتظام الخلايا بالنسبة للجسم الحى: كل مجموعة فيها تؤدي مهمة معينة لفائدة المجموع أو لفائدة مجموعة معينة أخرى وهذه بدورها تكفل عمل غيرها. فالعمل الجماعى فى البحث العلمى هو أيضا من هذا النوع إذ تجتمع على العمل الواحد الواسع النطاق الخلايا من الباحثين المختلفى الاختصاصات وكل يعمل لفائدة الآخر ولا يمكن أن ينفرد ويستغنى عن غيره⁽¹⁰⁾. فهذه مجموعة تكلف بضبط المعطيات وجردها وترتيبها وهى تعتمد على جماعة أخرى تتحررها فى الميدان وتجمعها وتحصل عليها فى كل ذلك بفضل المناهج المهيأة سلفا لهذا الغرض وتلك جماعة أخرى تجرى على المعطيات التحوير اللازم بالآلات الإلكترونية (الحواسيب) وهى تعتمد بدورها على اختصاصيين فى البرمجة. وكل ذلك موجود بالفعل فى الكثير من معاهد العلم ومراكز البحث الكبيرة فى أوروبا وأمريكا.

(10) وهذا غير العمل الذى يقتصر فيه على توزيع الأعمال على لجان مختصة بل هو تقسيم للعمل على نظام تتكافل فيه جميع أجزائه وليس مجرد تقسيم على مستوى واحد.

فالأعمال الفردية - حتى لو كانت في داخل لجان مختصة - لا يمكن أن تساوي كماً وكيفاً ما تؤديه هذه المجموعات المنتظمة من الباحثين. وقد بقي البحث اللغوي في الوطن العربي على الشكل الذي هو عليه من التفرد و عدم التكافل الشامل بين العاملين المنتمين إلى الهيئة الواحدة. وفيما يخص هندسة اللغة فقد صار علماء اللسان في زماننا هذا يتعاونون مع المهندسين في الحاسوبيات والإلكترونيات ولهذا يحتاج كل واحد من اللسانيين والمهندسين أن يكون حاصلًا على علم الآخرين بقدر كاف دون تخصص فيما يكسبه زميله اللغوي أو المهندس من مبادئ اللسانيات أو مبادئ في الحاسوبيات. هذا وقد يضطر المهندس إلى أن يلم بالكثير من مفاهيم اللسانيات الحديثة إذا تناول ميدانًا من البحث يخص اللغة ونظامها وبنيتها. وتوصل العلماء في هذا الميدان المشترك إلى مستوى عال من المعرفة اللسانية التقنية مكنتهم من صنع البرامج الحاسوبية التي تمكن من تنطيق الحواسيب من جهة ومن علاج النصوص على الحاسوب من جهة أخرى وهذا قد بدأ يهتم به بعض الباحثين في الوطن العربي.

وقد تفتن الكثير من العلماء العرب إلى أهمية الطريقة الجماعية وأول مشروع بدأوا به هو مشروع الرصيد اللغوي على مستوى المغرب العربي. ثم على مستوى الوطن العربي. وانتهى

إنجازته أي الرصيد المغربي في عام 1972 ورسمه وزراء البلدان الأربعة الجزائر وتونس والمغرب وموريتانيا في 1975. وأدخل في الكتب المدرسية في هذه البلدان. والهدف منه كما ينص عليه واضعو الرصيد العربي (المشروع الثاني) : أن يضبط مجموعة من المفردات والتراكيب العربية الفصيحة التي يحتاج إليها التلميذ في مرحلة التعليم الابتدائي والثانوي حتى يتسنى له التعبير عن الأغراض والمعاني العادية التي تجرى في التخاطب اليومي من ناحية ومن ناحية أخرى التعبير عن المفاهيم الحضارية والعلمية الأساسية التي يجب أن يتعلمها في هذه المرحلة من التعليم.

عدم الشمولية : إن أكثر اللغويين ممن يهتم بوضع المصطلحات يقتصر في الغالب على البحث في المعاجم المتداولة كالقاموس المحيط ولسان العرب والصحاح وغيرها ويجعلون من هذه المصادر المستقى الوحيد لجميع أعمالهم. وقلما وجدنا من اهتم بالنصوص التي وصلتنا كأمهات الكتب في الأدب والعلوم وغيرها. والحق أن هذا العمل يعجز عن القيام به الأفراد لمشقته العظيمة وقد يعجزون عن التصفح المنتظم المتواصل للمعاجم نفسها فما بالكم بمئات الآلاف من النصوص. ومهما بلغ تبريرنا لموقف اللغويين فإن النقص قائم. ثم إن هناك دافعا آخر قد يحمل اللغوي على الاقتصار على القواميس: فقد يظن أن كل ما هو موجود في تلك

المعاجم يطابق تماماً ما هو موجود في الاستعمال إذ قد أخذت مادتها منه. فهذا وإن كان ظاهره صواباً ففيه الكثير من التوهم. فعدد كبير جداً من المعاني والمدلولات الجزئية قد لا ينص عليها القاموس إما لكثرتها وإما لأن اللفظ قد استعمل كمصطلح خاص بفن أو علم معين أو لمفهوم جديد طرأ بعد تدوين العلماء للغة. ثم إن أكبر عيب هو أن تذكر تحديدات القواميس لمدلولات الألفاظ ويكتفى بذلك ويتناسى أن مدلول اللفظ لا يمكن أن يحصر إلا بالاعتماد على جميع السياقات والقرائن التي ورد فيها هذا اللفظ في الاستعمال المدون. نعم قد اعتمد اللغويون الذين جمعوا اللغة في عين المكان على السياقات وحال المشاهدة وسألوا الموردين عن أغراضهم إلا أن هذا كله لم يدونه بأكمله من جاء بعدهم من مؤلفي القواميس فما كان يمكنهم أن يذكروا من هذه السياقات وتلك الأحوال والأغراض إلا القليل بالنسبة لكل كلمة (وقد يكتفي بالشاهد الواحد وقد لا يذكر أي سياق إطلاقاً). ثم إن المدلول قد يكون تغير على مر الزمان بما يجيزه قياس العربية من مجاز واتساع في المعنى⁽¹¹⁾. هذا وأعظم نقص يوجد في القواميس (ليس هذا ذنبها) هو أنها لا تنص أبداً على مدى شيوخ الكلمة في

(11) بالتحصيل أو التعميم وغير ذلك.

الاستعمال لأن أصحابها أكثرهم من المتأخرين (12) إذا استثنينا الجوهري والأزهري.

وعلى هذا فالذي يحتاج إليه واضع المصطلحات هو ما يعرف في زماننا باسم «الذخائر اللغوية الآلية» فيمكن أن يوجد فيها جميع ألفاظ العربية التي وردت في الاستعمال الفعلي أي في النصوص التي وصلتنا (حتى المخطوطة منها). وعلى هذا يعتمد الباحث إذ لا يمكن أن يستغني عن السياقات والقرائن من الشعر الجاهلي حتى الصحف في عصرنا الحاضر. ويمكن أن يستخرج من ذلك الكثير من المعلومات التي لا يجدها في القواميس. وهذا لا يمكن أن يتم له ذلك إلا بما أشرنا إليه من التنظيم وتكافل الأعمال والاستعانة بالآلات العظيمة المفعول وهي الحواسيب.

أما لغة التخاطب اليومي الفصيحة العفوية ومميزاتها (كما دونها ووصفها اللغويون العرب وأهل الآداب) فقد سبق أن قلنا في بحث سابق مايلي :

«لم تحظ أية لغة في الديننا منذ أن خلق الله الإنسان بما حظيت به اللغة العربية من العناية من قبل أصحابها وخاصة اللغويين منهم وأهل الأداء... ومن أعظم ما تركوه لنا هو الوصف

(12) من الذين جاؤوا بعد تقلص رقعة الفصاحة السليقية.

المستفيض للأداء القرآني من جهة وللغات العرب أي الكيفيات المتنوعة في التأدية الصوتية والصرفية النحوية لعناصر اللغة. وإن كان هذا الجانب من أوصافهم جدّ مهم بالنسبة لنا و للأجيال القادمة فإنه لم يحظ إلى الآن بالعناية الكبيرة من قبل اللغويين المحدثين اللهم إلا القليل النزر من المحاولات.

«وهذا هو الجانب الذي ينبغي -في نظرنا- أن يعتني به أكثر من غيره. فلإن تفتن العلماء والكثير من المثقفين الى وجود القسط الكبير من المفردات في العاميات الحالية وهي فصيحة أو قريبة جدا من الفصحية (وتكوّن 80 في المائة من ألفاظ التخاطب اليومي في وقتنا الراهن⁽¹³⁾) فإن هذا لن يفيد الأمة العربية شيئا مادام الأداء أي كيفية النطق والتعبير عامة لا يخضع لنواميس العفوية اللغوية التي تتصف بها كل اللغات عند النطق بها يوميا في الحاجات العادية وفي حالة أنس. وكل من يلجأ الى استعمال الفصحي -كما تعلمها في المدرسة وكما يعبر بها المذيع والخطيب- في بيته مع ذويه في غير ظروف التعليم والتلقين ومع أصدقائه في مكان عمله أو غيره وأي واحد في الشارع فيستعرض بذلك للاستهزاء والسخرية. ومنله في ذلك كمثّل الذي يخطب في الناس وهو يريد مخاطبتهم في أغراض بسيطة : فهو يخاطبهم وكأنه يقرأ من كتاب.

(13) ويحتاج هذا الجانب إلى دراسة قائمة برأسها.

وقد رسخ في أذهان المعلمين أن اللغة العربية ليس لها إلا كيفية واحدة في التعبير بها وهو المستوى الذي سميناه بالإجلالي أو الترتيلي.

وسبب ذلك يرجع إلى أقدم العصور حيث أصبح همّ المعلم هو الإعراب و النطق الصحيح ببنية الكلمة وأهمّلوا المستوى العفوي وهو ما أجازته العرب من تسهيل للهمزة وإدغام الكثير من الحروف وإخفاء الحركات واختلاسها وتسكين بعض المتحركات وحذف ما يستغنى عنه في حال الخطاب المرئية. وتجاهل الناس هذا المستوى المستخف من التعبير العفوي لشدة غيرتهم على الصحة اللغوية حتى أداهم ذلك إلى اللحن (14). وذلك مثل الوقف فإن الطفل العربي لا يعرف أن النطق بالحركة والتنوين في الكلمة المسكوت عليها هو شئ غريب في العربية. وذلك لأن الوقف هو من قبيل **المشافهة** وهو حذف للإعراب والتنوين فكأنه مسّ بالعربية التي تمتاز عن العامية بالإعراب والتنوين!

يريد المعلم قبل كل شئ أن يصحح بالإضافة إلى الأخطاء الحقيقية، ما يعتقد هو وغيره منذ مئات السنين أنه خطأ لأنه موجود في العامية فصار شيئاً فشيئاً مقتنعاً بأن كل ما هو مستعمل في العامية فهو خطأ في العربية الفصحى حتى يحكم على الكثير

(14) وهي ظاهرة معروفة تسمى بالإنكليزية بـ Hypercorrection = فرط التصحيح (وهو خطأ).

من المفردات والتراكيب الفصيحة وتأديتها نطقاً أنها عامية محضة. فما هي، ياترى، هذه الصفات التي تميز فصحي التخاطب العفوي التي كان ينطق بها أسلافنا في حاجاتهم اليومية والتي سمعها ودونها المتقدمون من علمائنا وفصحي الترتيل التي صارت على مرّ الأيام المعيار المدرسي الوحيد؟ الإجابة عن هذا السؤال الخطير يحتاج إلى دراسة قائمة بنفسها في مجلد كامل. وسنكتفي ههنا لضيق المكان بعينة ذات دلالة إن شاء الله (15) وهي اختزال الحركات (16).

الحركات الإعرابية : إن العرب لا تبتدئ بساكن ولا تقف على متحرك كما هو معروف. وأدنى سكتة تقتضي سقوط الحركة والتنوين كما قلنا بل لا سبيل إلى إيجاد اتصال مستمر في الكلام لا وقف فيه. ثم إن جميع العرب من ربعة كانوا يقفون بالسكون على المنصوب نفسه. ويحسن بنا أن نذكر أقوال هؤلاء الذين سمعوا منهم كلامهم مباشرة : قال أبو العيناء : «ما رأيت مثل الأصمعي قط، أنشد بيتاً من الشعر فاختلس الإعراب». ثم قال :

(15) صورة محسوسة هي التعداد فإن المعلم نفسه لا يعرف أن مثل هذا النطق : كتاب-قمطر-قلم وكذلك واحد-اثنان-ثلاثة... بالحركة والتنوين غلط فاحش في العربية.

(16) هذه الأشياء التي سنذكرها هنا يعرفها جيداً علماء اللغة والقراءات إلا أن حظها من العناية قليل بل يكاد لا يلتفت إليها في وقتنا الحاضر إلا الشرذمة القليلة من الاختصاصيين على الرغم من أنها تهم كل المثقفين إذ تمس مستقبل لغتهم.

«سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول : كلام العرب الدرج». وحدثني عبد الله بن سوار أن أباه قال : «العرب تجتاز بالإعراب اجتيازاً». وحدثني عيسى بن عمر أن ابن أبي إسحاق قال : العرب ترفرف على الإعراب ولا تتفيهق فيه وسمعت يونس يقول : «العرب تشام الإعراب ولا تحققه». وسمعت الخشخاش بن الحباب يقول : «إعراب العرب الخطف و الحذف»⁽¹⁷⁾. فهذا يخص الكلام العفوي في الحاجات اليومية. وأما ماسماه الجاحظ بالتشدد والتفيهق فهو تكلف بعضهم في استعمالهم لمستوى الترتيل والتحقيق في حال الخطاب اليومي. وهذا ليس معناه أن التحقيق غير مرغوب فيه، بلى فإن هناك حالات خاصة تقتضي التحقيق وقد بالغ بعض أتباع حمزة القارئ في التحقيق والإشباع حتى كره ذلك بعض الشخصيات كالإمام أحمد بن حنبل وابن قتيبة (وقد ظلموا حمزة في ذلك مع صواب موقفهم إزاء هذه المبالغة).

(17) من كتاب «نثر الدر» للوزير أبي سعيد الأبي، القاهرة، 1995، جزء 8، ص 154-155.

الحركة العلمية في الجزائر المسلمة وأهميتها عبر القرون في بناء الحضارة وتقدمها

أ.د. الربيع ميمون
جامعة الجزائر

تلخيص المقال

وجدت اللغة العربية، في الجزائر، وهي تستقبلها مع دين الله، في القرن السابع للميلاد، أرضاً خصبة سمحت لها بأن تنتشر فيها، وأن تتمكن من قلوب أهلها وأرواحهم إلى درجة جعلوا منها لغتهم، وصاروا منها وصارت منهم.

ولقد كان منها أن صارت لغة علمائها حينما ظهوروا بها، وبدأت حركتهم تنتظم فوق ربوعها وتنعش الأرواح والعقول. وهي حركة أعطت ثمارها، وجعلت من بلادنا بلد علم وحضارة على مر القرون...

وبالفعل فعلماءها، وهم من جهاتها كلها، وفي كل الاختصاصات

المعروفة في أزمتههم، وفي بلدان المسلمين كلها، لا يحصى عددهم، ولا نعرف عنهم إلا النزر اليسير.

ومن الممكن أن نعرف شيئاً من أعمالهم الباهرة إذا أشرنا لبعض منهم ممن يمثلونهم أحسن تمثيل، ونستطيع أن نرى من خلالهم صورتهم بالحق. لأن بعضهم من بعض.

ويظهر لنا أن العلماء الذين سنشير إليهم من بينهم، وهم الإمام الداودي أول شارح لصحيح البخاري، وابن رشيقي صاحب كتاب العمدة في البلاغة، والشيخ يوسف البسكري إمام القراءات، والإمام الورجلاني العالم الفيلسوف، والإمام ابن معطي صاحب أول ألفية في النحو، والإمام الأبلبي عالم الدنيا، والإمام الشريف الحسني الشيخ الذي ملأ المغرب علماً وتلاميذ، والإمام السنوسي عالم تلمسان وحكيمها وصالحها، والشيخ مصطفى الرماصي إمام الفقهاء في عصره، والشيخ عبد العزيز الثميني المتكلم الفيلسوف والفقير الكبير، والشيخ ابن حمادوش العلم الموسوعي، والأمير عبد القادر فارس الإيمان، وأمير السيف والقلم، والمتصوف الذي انكشفت له أسرار الشرع والوجود، هم علماء يمكننا أن نعرف من خلال ما امتازوا به عن العلماء في أزمتههم، أن الجزائر هي بلد علم، وسبق فيه إن في العلوم اللغوية أو الدينية أو الوضعية أو غيرها، وبلد سيكون له شأن وأي شأن بين بلدان المستقبل في بناء الحضارة فوق هذه الأرض. وهو ما نحاول أن نشير إليه وإن نبينه في المقال التالي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ والصلاة والسلام على أشرف المرسلين
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين

إن اللغة العربية التي أشرقت الجزيرة العربية بأنوارها في القرن السادس للميلاد والتي نزلت أي الذكر الحكيم بها، من بعد ذلك بقليل، على رسول الله ﷺ لتبليغها إلى البشرية جمعاء عبر الأمكنة والأزمنة إلى يوم الدين⁽¹⁾، قد وجدت، في الجزائر، وهي تستقبلها مع دين الله في القرن السابع للميلاد، أرضاً خصبة سمحت لها بأن تنتشر فيها، وأن تتمكن من أرواح أهلها، تمكنا جعلهم يعرضون عن لغتهم الأصلية من أجلها، ويتخذون منها لغة لهم لا يرضون بغيرها، ولا يحيدون عنها إلى أن صاروا منها وصارت منهم⁽²⁾.

1 : الإسلام واللغة العربية في الجزائر

ويظهر لنا بما لا مجال للشك فيه بالنسبة إلينا أن أجدادنا الأمازيغ الأحرار لم يتمسكوا بالإسلام والعربية إلا لأنهم وجدوا فيهما ذلك الكمال الذي ما فتئوا يبحثون عنه ويطمحون إليه منذ العهود الأولى لتاريخهم العتيق.

لقد وجدوا فيهما ما لم يجدوه في المسيحية حينما صارت هذه ديانة للأمبراطورية الرومانية مستعمرتهم، ولا في لغة هذه الأمبراطورية. ولقد

تعلقوا بهما وتعاطفوا معهما وصاروا منهما، وإلى الأبد، بدون قيد ولا شرط.

وبالفعل فالاسلام لم يعرض عليهم من القيم إلا ما يزيدهم تعلقا به وتعاطفا معه وتخلقا بأخلاقه واستجابة لأوامره ونواهيه.

وأما اللغة العربية فإنها لم تأتهم إلا بما فيه تحرير لعقولهم وأداة تفتح أمامهم باب الكمال على مصراعيها.

ولذلك فإن الجهود التي بذلوها من أجل أن تصطبغ بها أرواحهم، ومن أجل انتشارها بينهم، ورسوخها فوق أراضيهم، وازدهارها وتقدمها ورقبها على أيديهم، واختيارها للتعبير بها عن أمور العقل والروح، واعتمادها لنقل فتوحات حضارتهم، جهود لا يقوم بها إلا المؤمنون⁽³⁾ بالمثل الإنسانية العليا.

2 : علماء الجزائر المسلمة

وبالفعل فتراث علماء الجزائر باللغة العربية في العلوم على اختلاف أنواعها منذ إسلامها إلى اليوم عظيم وهو كمالها المقوم لوجودها ومفخرتها الدائمة إذ هو الذي منحها هويتها التي صارت لها على مر العصور، حتى وإن كنا نحن الجزائريين لا نتبين ذلك اليوم على حقيقته، لأن ظروف التاريخ حالت بيننا وبينه، وقضت عليه في ذاكرتنا فصرنا وكأننا بدون ذاكرة، وصرنا نرى في وجودنا ماهد جد بعيد عنه، ولا يمنحنا صورته الحقيقية.

إن الانحطاط الذي عرفه المسلمون لمدة قرون، وليالي الاستعمار الحالكة السوداء التي أرخت عليهم سدولها، وبعدهم عن الحياة التي هي الحياة الحق، وتخلفهم بالنسبة إلى أسلافهم وإلى أوروبا التي قامت نهضتها على فتوحات علمائهم، أمور عرفت الجزائر من ويلات ما لم تعرفه بلدان المسلمين الأخرى. ولهذا، فإنها كادت أن تفقد ذاكرتها، وأن تنسى ما كان منها للتقدم والحضارة. وضرنا نحن الجزائريون، ناسا يعيشون بين الناس، وكأن لا وجود لدينا لما يفخر به الناس، ويغترزون به، حين تجمعهم الجامعات، من الآداب والعلوم والفنون والصناعات والدين والأخلاق، وغيرها.

لقد صرنا لا نعرف من تاريخنا سوى سلبياته إذ لم نستطع أن نهيمن على مجاريه وأن نوجهها بما يقدمنا ويرتقي بنا لأن مد الأحداث وجزرها، فيما بيننا ونحن من أرومة واحدة، وفيما بيننا وبين جيراننا وهم إخواننا وبنو جلدتنا، وفيما بيننا وبين بلدان البحر الأبيض المتوسط والعالم، لم تسمح لنا بذلك الاستقرار السياسي الذي يتيح للأمم أن تنتظم، وأن تكون لها مؤسسات بالحق، تتيح لها أن تبلغ تلك الدرجة من الوعي الصادق الذي تقوم الحضارة بالحق عليه والذي يرفعها، ويغذيها فتغديه، وينمو معها وتنمو معه.

لقد عرفت الجزائر قبل إسلامها علماء أجلة هم من أبنائها، وهم علماء ألفوا باللغة اللاتينية وبرزوا فيها وصاروا مصابيح يهتدي الناس بأنوارهم إلى اليوم في كل البلدان المتقدمة (4).

ولقد عرفت الجزائر من بعد إسلامها علماء آخرين كانوا فرسانا للعلم في أزمئتهم، ومن المتقدمين فيه وبه والناشرين له على مستوى بلدان المسلمين وغيرها، فرفعوا قدرها، وحصنوها من الزوال.

وعرفت في أيام الاحتلال الفرنسي السوءاء ومن بعدها علماء ألفوا باللغة الفرنسية، وبرزوا فيها حتى على أهلها، وأبانوا للقاصي والداني مع من سبقهم من أسلافهم الذين كتبوا باللغة الفصحى وباللاتينية أن عبقرية الجزائر متفتحة إلى رياح الفكر اللواخ وقادرة على أن تعرب عما في نفسها بكل لغة، ولا سيما حينما تعلمت من الكتاب العزيز أن كل اللغات ما هي إلا آيات من آيات الله وأن التفتح عليها من الكمالات العالية. ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين﴾ (سورة الروم، الآية 22).

هذا، وسنقتصر على التعريف ببعض من علمائها بعد إسلامها في هذا المقال لان حدوده لا تسمح لنا بتجاوزهم، ولأننا نعتقد أن الاهتمام بعلمائها كلهم غير عصور تاريخها الطويل مشروع يجب القيام به في عمل شامل يعرض حركتها الثقافية كلها عرضا يجلو بداياتها وتياراتها، ومثليها وآثارهم، وامتداداتها، وتشابها وتخالفا، وتقاطعها وتوازيها، وتأثيرها، وتأثر بعضها البعض، وامتيازاتها، وهو عمل، نحن نقوم به مع أعمالنا الأخرى في علوم الدين والفلسفة بالإمكانيات المحدودة التي توفرها الجامعة الجزائرية لأساتذتها. وإنا نلرجو أن يعيننا الله على إتمامه.

إن علماء الجزائر كثيرون، وهم من بناء الحضارة على الرغم مما كان

يصيب بلادهم، حيناً بعد الآخر، من الاضطرابات الداخلية والخلافات السياسية القاتلة وحركات التاريخ الجهوي والعالمي الداهمة. وهم من أعلى المستويات في كل الاختصاصات العلمية المعروفة في أزممنتهم، وهم أيضاً، من كل أنحاء البلاد، ومن كل الدول التي ظهرت فوق أراضيها، وحكمت أهلها.

فعلماء بني رستم، وبني زيري، وبني حماد، وبني زيان، والعلماء الذين عاشوا في عهد الأدارسة والأغالبة والعبيديين والموحدين وبني مرين والخفصيين، والأتراك والفرنسيين، وعلماء ما بعد الإستقلال إلى اليوم، كلهم علماء يثبتون، وبقوة، أن لا وجود لقرون مظلمة في الجزائر ولا في شمال إفريقيا إلا في عقول ناس أضلتهم العنصرية النكراء، والمطامع الخسيسة والوحشية العمياء، والغرور البليد⁽⁵⁾.

3 : الجزائر لم تعرف قرونا مظلمة

إن الجزائر لم تعرف قرونا مظلمة في تاريخها، ولا سيما في تاريخها العلمي. فوعيتها الراسخ بذاتها، ورفضها لكل من اعتدى عليها من عصر الإقليد ماسينيسا (238 - 148 ق م) إلى عصر فارس الإيمان الأمير عبد القادر بن محي الدين (1808 - 1883 م)، والمجاهدين من بعده، أبطال حرب التحرير الأسطوريين، أمر ثابت لا غبار عليه، إن في السراء وإن في الضراء.

ولا شك في أن العلماء الذين ندين لهم باستمرار وجودنا عبر القرون،

وعلى الرغم من العواطف الهوجاء التي عرفتها بلادنا، هم الذين منحونا هويتنا النهائية أو هويتنا الأبدية.

وهي هوية لا تقبل الاندماج في أية هوية أخرى لأن ثرواتها غير متناهية، وهوية لا يوجد لها مثيل لأن مقوماتها وكمالاتها وحدة سامية وحضارية عالية. وهي مقومات وكمالات ينسجم بعضها مع بعض، ويمتزج به امتزاجا كاملا يجعل من أصلها الأمازيغي الذي لم تحد عنه، أصلا، يشرق ويهتدي بنور الإسلام وتعاليمه الكونية من جهة، وأصلا، يعرب عن وجوده وحضارته بلغة الضاد من جهة أخرى، فنحن لسنا عربا بالأصل لأن أمازيغية أجدادنا تسكننا، ونحن لسنا أمازيغ مثل أجدادنا لأن الإسلام ولغته يميزان وجودنا بما لا بديل عنه. وهما بعدان لنا لا معنى لوجودنا بدونهما.

إن علماءنا الأعلام لم تكن تخفى عليهم هذه الحقائق. ولهذا فإنهم كانوا يعرفون من هم، ولم يكونوا يطرحون على نفوسهم المشاكل الزائفة التي نطرحها على أنفسنا، نحن اليوم، ولا تتوصل إلى حلها لكونها لا وجود لها، ولأن نفوسنا لا تطرحها علينا، ولكن غيرها.

إن علماءنا كانوا واقعيين. ولقد كانت أعمالهم العلمية في مختلف الفنون المعروفة في أزمنتهم لا تقل أهمية عما هو في بلدان غيرهم، وقد تكون في بعض الأحيان متفوقة عليه إن في بلاد المسلمين، وإن في أوروبا إلى بداية قرونها الحديثة في القرن السابع عشر للميلاد. وهي أعمال تشرف الجزائر والمسلمين، وتخدم الفكر الإنساني، وثبتت بما لا مجال

للسك فيه أن الجزائر ذات مكانة عالية في مجال العلوم، كما ثبت أن ما عرفته من التخلف الذي أصاب المسلمين كلهم، وما عرفته من ويلات الاستعمار الغاشم الذي كاد أن يقضي على كيائها، لم ينل من النواة الصلبة التي يقوم وجودها عليها لأن ما حققه علماؤها لها لتستمر وتندوم غير قابل للهدم أو الكسر.

وهم كثيرون، ومن الواجب علينا في هذه المرحلة من تاريخنا أن نحییهم، وأن نعرف من هم، وكم هم، وأن نبحت عن تراثهم، كل تراثهم، وأن نجتمع وأن ندرسه بجد ومنهجية، وأن نعتمد على معطياته لنرى أن تاريخنا ليس هو ما يصوره لنا جهلنا، وليس هو ما أراد الاستعمار أن نراه عليه.

4 : مع جمع من علماء الجزائر

هذا، وبما أن الوقوف مع كل منهم غير ممكن، في إطار هذا المقال، كما قلنا فإن الوقوف مع بعض منهم أمر لا بد منه لنثبت ما نقول ونجلو أبعاده، ولنتذكر شيئا مما نسيناه من تراثنا، وتبين مكانتنا في الوجود، ويتبين لنا الطريق الذي يجب علينا أن نسلكه.

إن علماءنا الذين ازدانت ربوعنا بهم منذ أن ازدانت بنور ربها إلى اليوم، قد قاموا بواجبهم نحونا، ونحو المسلمين والإنسانية إلى أقصى الحدود. ومن الممكن أن نتصور عظمتهم وعظمة ما قاموا به لبناء شخصيتنا الأبدية إن عرفنا مشايخ منهم يمثلونهم أحسن تمثيل وأصدق

من جهة، ويشبتون بما لا يمكن دحضه أن الثقافة الجزائرية كانت سامية في أزمنتهم، وكانت تهين على غيرها في ميادين كثيرة من جهة أخرى. وهم مشايخ ظهوروا بها حيثما استقرت اللغة العربية فوق ربوعها واعتمادها أهلها لغة لهم. ومشايخ من الواجب علينا أن نعرفهم، وإن باختصار كبير، وأن نعرفهم بدقة تجلو لنا قيمتهم وقيمة أعمالهم على حقيقتها، وتجلو لنا تميزهم بها على غيرهم من العلماء بما هو لهم دون سواهم.

ومنهم، ومن سنعرف بهم فيما يلي: الإمام الداودي ثم ابن رشيق، والشيخ يوسف البسكري والإمام الورجلاني، والشيخ ابن معطي، والإمام الأبلي، والإمام الشريف الحسني، والإمام السنوسي، والشيخ مصطفى الرماصي والشيخ عبد العزيز الشميني، وابن حمادوش القسنطيني والأمير عبد القادر الجزائري.

وهم من عهود مختلفة، وجهات متعددة، واختصاصات متنوعة. وهم ممن انتفعت الجزائر وبلدان المسلمين الأخرى بعلومهم في الشرق والغرب. وبالفعل، فهم عمالقة، ومعرفتنا بهم وبغيرهم ممن لم نذكرهم، وهم كثيرون، ومعرفتنا بتراثهم في عمقه، وفيما كان يمكن أن يؤول إليه لو يعترضه عهد الانحطاط هي المعرفة التي ستكشف لنا صورة تاريخنا على حقيقته، وتكشف لنا كم شوه الانحطاط من جهة، والاستعمار من جهة أخرى، هذه الصورة في أعيننا.

وهي المعرفة التي ستحملنا على النهوض بالحق، لأنها هي التي ستحيي في أعماقنا منابع الحياة التي هي الحياة بالحق، وتسمح لنا بأن نكون.

5 : الإمام الداودي أول شارح لصحيح البخاري

إن الإمام أحمد الداودي الذي نشأ بالمسيلة، وتوفي بتلمسان سنة 402 للهجرة وسنة 1011 للميلاد، له فضل السبق على غيره من علماء المسلمين في القيام بأعمال علمية جلية. فهو أول من شرح صحيح البخاري، وسمى شرحه له «بالنصيحة» فحاز به الفضل على جميع من تقدمه أو تأخر عنه من العلماء. ولقد شرح، أيضاً، موطأ الإمام مالك بكتابه «النامي» وألف كتباً أخرى في الدين منها تفسير للقرآن الكريم تداوله العلماء في عهده ومن بعده، ودرسوه ونقلوا عنه، ومنهم الشيخ عبد الرحمان الثعالبي (786 - 875 هـ / 1384 - 1470 م) في تفسيره «الجواهر الحسان». وهكذا فهو من العلماء المبرزين في اختصاصه، ومن تعزز الجزائر بهم، وما كان منهم في سبيل الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة بما انتفع به المسلمون كلهم ⁽⁷⁾ إلى اليوم.

هذا، ومن العلماء الذين تعزز بهم الجزائر، وتفاخر بهم، الحسن بن رشيق صاحب كتاب العمدة في علم البلاغة.

6 : ابن رشيق والبلاغة العربية

إن الحسن بن رشيق الذي ولد في المسيلة، مثل الإمام الداودي، سنة 385 للهجرة وسنة 995 للميلاد، وتوفي سنة 463 للهجرة وسنة 1071 للميلاد، بصقلية، هو من أكبر علماء البلاغة العربية في كل عصر، إذ هو من المؤسسين لها. ولقد اشتهر بها في المشرق والمغرب، مثل الشيخ عبد

القاهر الجرجاني (ت 1078م) الذي كان معاصرا له، واعترف العلماء له بالإمامة فيها، واعتبروا كتابه «العمدة في صناعة الشعر ونقده» كتابا لا يستغني عنه الدارسون والباحثون حيثما وجدوا.

وهو كتاب يدرس فيه اصول الشعر وقواعده، وأنواعه نظريا وعلميا، ويدرس فيه، وبالتخصص علاقة اللفظ بالمعنى، وهي علاقة يعتبر فيها اللفظ جسما، والمعنى روحا له، ويعتبر ارتباط بعضهما ببعض كارتباط الروح بالجسد...

هذا، ولقد تحدث ابن خلدون عن كتابه هذا واعتبره كتابا «انفرد بهذه الصناعة، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده، مثله» (8).

وهو رأي لا يخالف فيه من يعرف أن ابن رشيق أهدي كتابه هذا إلى الشيخ الجليل علي بن أبي الرجال (ت بعد 1040 م) المنسوب إلى القيروان، وإن لم يكن منها، ومن يعرف أن هذا الشيخ هو من جملة مشايخه، ومن كبار أدباء المغرب وعلمائه الفلكيين، معروف بكتابه «البارع» الذي ترجمه الأوروبيون إلى اللاتينية، واستفادوا منه، وطبعوه عدة مرات منذ طبعته الأولى بالبندقية سنة 1485 للميلاد (9).

هذا، ومن علمائنا الذين بلغوا درجة الإمام الداودي والشيخ ابن رشيق الشيخ يوسف أبو القاسم البسكري.

7: الشيخ يوسف البسكري إمام القراءات:

إن الشيخ يوسف أبو القاسم البسكري ولد ببسكرة سنة 1012 ونشأ بها، ثم فارقها للتطواف في بلاد المشرق والمغرب بحثا عن القراءات المشهورة والشاذة.

ولقد كان منه أن زار أصبهان وبغداد ونيسابور واخذ عن مشايخها... وكان منه أن استدعاه إذ ذاك الوزير نظام الدين السلجوقي (1018-1092م)، صاحب الإمام أبى حامد الغزالي (1111م)، للإقراء في مدرسته بنيسابور سنة 458 للهجرة، فاستجاب له، واخذ يدرس بها وينشر علمه إلى أن وافته المنية سنة 465 للهجرة، وسنة 1071 للميلاد. ومن تأليفه التي برز بها كتابه العظيم «الكامل في القراءات» الذي ضمنه خمسين قراءة بألفين ومائتين وتسعين طريقا.

وهو كتاب بذل في سبيل تأليفه من الجهود ما لا يتحمله إلا الذين لا يرون لحياتهم معنى إلا بالعمل الدؤوب في سبيل العلم ومثله التي يجب أن تسود فوق هذه الأرض. إنه يقول: خرجت من بسكرة، وهي وسط المغرب حتى وصلت إلى «أوش» وهي مدينة قرب فرغانة وسط المشرق، مع ما زرت ودخلت من البلدان يمينا وشمالا، وسهلا وجبالا، ولم أستتكف أن أقرأ على أحد، صغيرا أو كبيرا، ذكرا أو أنثى. ولقد بقيت أقتبس منهم ثلاثا وأربعين سنة في السفر، مع الجوع والفقر، ليلا ونهارا.... فجملة من لقيت في هذا العلم 365 شيخا، من آخر المغرب إلى باب فرغانة... ولو علمت أن أحدا تقدم في هذه الطريقة في جميع بلاد الإسلام لقصدته.. هذا ولقد ألفت كتابي «الكامل» وجعلته جامعا للطرق المتلوة والقراءات المعروفة... ونسخت به مصنفاتي «الوجيز» و«الهادي» (10).

إن هذا الكلام ثقیل جدا ولا يقوله إلا عالم بالحق يعرف أن طلب العلم لا يتناهى. ولقد علق ابن الحزري (751-833 هـ/ 1350-1428 م)

عليه، فقال: «كذا ترى هم السادة في الطلب»، وكذا هم علماء الجزائر في كل مكان، وفي كل زمان!

8 : أبو يعقوب الورجلاني العالم الفيلسوف

وبالفعل، فأبو يعقوب الورجلاني الذي ولد في ورجلان سنة 500 للهجرة، و 1106 للميلاد، وتوفي بها سنة 570 للهجرة و 1174 للميلاد، معروف هو الآخر بعلمه الغزير، وبرحلاته المتعددة في طلبه. لقد رحل إلى بلاد الأندلس للاخذ عن علمائها، وعاش فيها بقرطبة، ورحل منها إلى بلاد المشرق وحواضره العلمية.

ولقد كان منه أن وصل في بعض رحلاته العلمية إلى قريب من خط الاستواء الذي يسكن في نواحيه ناس يخافون البيض ويحسبونهم ملائكة ينزلون عليهم من السماء.....وسافر إلى الحجاز، ثم رجع إلى بلده «ورجلان» للاشتغال بالدرس والتدريس والتأليف ونشر العلم..... ومن أعماله الجلييلة كتابه العظيم «الدليل والبرهان» الذي هو موسوعة فريدة لا مثيل لها في علوم الدين والفلسفة، وفي تاريخ المسلمين والثقافة في عصره.

وهو كتاب يشرفه، ويشرف الجزائر والمسلمين والإنسانية، لأنه كتاب فريد من نوعه، وكتاب يعرض فيه صاحبه أفكاره فيما كان يحرك فكر المسلمين في عصره.

ولذلك ترجم جزء منه إلى الفرنسية في بداية القرن العشرين، وهو مع هذا لا زال لم يطبع باللغة العربية طبعة تليق به إلى اليوم.

إن تراثنا العلمي عظيم جدا. ولقد كان رائدا، وفي مقدمة الإنتاج الثقافي في العالم لمدة قرون. وهو يشهد لنفسه بنفسه (11).

9 : الإمام ابن معطي صاحب أول ألفية في النحو

ومن الممكن أن نزداد تحققا مما نقول إذا عرفنا أن الإمام يحيى بن عبد المعطي الزواوي الذي ولد سنة 1169 للميلاد، وتوفي بالقاهرة سنة 1231 للميلاد، هو مؤلف أول ألفية في النحو، وأنه هو الذي يشير إليه الإمام بن مالك الأندلسي رحمه الله (600-673 هـ/1203-1274م) في ألفيته لدى وصفه لها في بدايتها بكونها «فائقة ألفية بن المعطي»، ثم ينتبه إلى ما بدر منه، فيتراجع عنه، إلى حد ما، ويصلح كلامه ويعترف له بفضيلة السبق، فيقول:

وهو بسبق حائز تفضيلا مستوجب ثنائيا الجميلا

والله يقضي بهبات وافرة لي وله في درجات الآخرة

لقد كان ابن المعطي أحد أئمة عصره في علوم اللغة العربية، ولقد انتفع بعلمه ناس كثيرون في مصر، لما استقر بها، وتصدى لتعليم الأدب واللغة في الجامع العتيق، بعد مقامه في دمشق زمانا.

وهو، وإن لم تنل ألفيته بعد وفاته شهرة ألفية بن مالك، من أعلام اللغة العربية، ومن مفاخرها. وهو مثال لعلماء الجزائر عبر العصور في طلبهم للعلم بصدق وفي تمكنهم منه، وتلبسهم بحقائقه، وحرصهم على إثرائه، وتنظيمه، والإحسان في طريقة عرضه، وتبليغه، وتعليمه (12).

ويظهر أن هذه الصفات زينة لكل منهم سواء ظهوروا قبل الإمام بن المعطي أو من بعده. ومن هؤلاء ممن ظهوروا بعد الإمام ابن المعطي، ومن يجب علينا أن نذكرهم لما لهم من الفضل العظيم بما قدموه للثقافة الجزائرية والإنسانية بصفة عامة: الإمام الأبلي والإمام الشريف الحسني.

10 : الإمام الأبلي عالم الدنيا

لقد ولد الإمام الأبلي في تلمسان (681هـ/1282م)، ونشأ بها في كفالة جده، القاضي محمد غلبون الذي لقنه مع مشايخ آخرين مبادئ العلوم. ولقد كان منه أن سبقت إلى ذهنه محبة التعاليم فانكب على دراستها بشغف، وبرع فيها.... وانتقل إلى المشرق ليزداد تعمقا فيها فلقي بها فرسان المعقول أمثال ابن دقيق العيد (ت 702هـ/1302م). ولكنه لم يأخذ عنهم لمرض ألم به، فرجع إلى تلمسان، ودرس بها على ابني الإمام عبد الرحمان (741هـ/1340م) وعيسى (749هـ/1348م). وهما جبلا علم اجتمعا بشيخ الإسلام الإمام ابن تيمية (661-728هـ/1263-1328م)، وناظره وظهرا عليه.

هذا، ولقد فر الأبلي من تلمسان بعد مقامه بها إلى المغرب لينجو من السلطان أبي حمو الأول (ت 718هـ/1318م) الذي أراد أن يكرهه على العمل في ديوانه. وكان منه أن اختفى في فاس عند شيخ التعاليم خلوف المغيلي اليهودي، فأخذ عنه فنونها ومهر فيها، ثم فارقه وارتحل إلى مراكش، ونزل بها على الإمام ابن البناء (661-728هـ) شيخ المعقول

والمنقول، وصاحب القدم الراسخة في التصوف علما وحالا، فلازمه وتضلع عليه في علم المعقول والتعاليم والحكمة، ثم فارقه والتحق بالسلطان أبي الحسن المريني الذي نظمه في طبقة علمائه فعكف لديه على التدريس، ولازمه، وحضر معه وقعة طريف والقيروان قبل أن يستقر بتونس للتدريس، فدرس عليه ابن خلدون بها ثلاث سنين بدون انقطاع واخذ عنه فنونا من العلم.

ولقد درس من بعد ذلك في بجاية، لمدة شهر، وانتقل منها إلى تلمسان ثم إلى فاس حيث توفي سنة (757هـ / 1350م) بعد حياة طويلة قضاه في الترحال بين حواضر العلم طلبا منه للمزيد من المعرفة إن وجد من يتعلم منهم، ونشرا لها إن احتاج طلبة على تعليمه في أي بلد كان.

ولعل ذلك لأنه كان يعتبر نفسه طالبا لمن هو أعلى منه معرفة، وأستاذا سريع الاستجابة، وفي كل وقت، لمن هو في حاجة إليه، لأنه كان يرى أن الجاهل هو الذي أودى بالمسلمين، وأن العلم هو الأساس الذي يقوم عليه كل بناء، والدعامة التي يرتكز عليها، والقوة التي يستمر بها. ولذلك فإنه يجب نشره بين المسلمين بكل جهد.

وبالفعل، فلقد كان يؤله ما صار إليه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها حينما صاروا يعرضون عن القيم التي ما فتىء الإسلام يدعوهم إليها لأنها قوام الحياة دون سواها وصار الجهلة منهم هم أصحاب الحل والربط، واهل الأمر والنهي في مجال الدين، والعلم، والسياسة، والأخلاق، والحكم، والتسيير، والآداب، والفنون وغيرها.

ولقد كان يؤلمه رحمه الله أن يرى أشباه العلماء يتهافتون على تفسير القرآن الكريم الذي هو من أصعب الأمور، ويقدمون عليه بدون تهيب ظناً منهم أن قصورهم علم، وفي مستوى تعاليمه القدسية.

وكان يؤلمه ما كان المسلمون عليه، من عداوة بعضهم لبعض، واشتجار بأسهم بينهم، وضعفهم عن عدوهم بسبب ذلك.

وكان يؤلمه تعدد ملوكهم لاتساع أقطارهم، واختلاف أنسابهم وعوائلهم، وانتزاع الخلافة من أيديهم، وسيرهم في الملك بسير من قبلهم مع غلبة الهوى واندراس معالم التقوى.

وكان يؤلمه تحريفهم الكلم عن مواضعه لجهلهم بالتأويل وقولهم في القرآن والدين بأرائهم المنحرفة ودعاويهم الباطلة... فلا يسعه وهو يرى ما صار المسلمون إليه وما كان يجري في زمانه بينهم، وما كانوا مقبلين عليه، إلا أن يقول : (لولا انقطاع الوحي لنزل فينا أكثر مما نزل في بني إسرائيل لأننا أتينا أكثر مما أتوا...).

لقد حاد المسلمون عن طريق الكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة في نظره. لقد زادهم بعدا عنهما، وبالتالي بعدا عن العلم كثرة التأليف لأنها نسخت الرحلة التي هي أصل جمع العلم من جهة، وبناء المدارس التي ينجذب الطلبة إليها لا لرغبتهم في العلم ولكن لما توفره لهم من الأمداد وافتحه أمامهم من الوظائف لخدمة الحكام الذين يرضون بها لهم ولكنهم يصرفونها عن غيرهم من أهل العلم بالحق، ولا يدعونهم إليها، وإن دعوهم إليها لم يجيبوهم، وإن أجابوهم لم يوفوا لهم بما يطلبونه من غيرهم.

إن هذا الكلام منه عن كثرة التأليف وبناء المدارس يحتاج إلى شرح طويل كما يقول. ومع هذا فإننا نستطيع أن نفهم ما يقول من خلال حالتنا اليوم وحالة المسلمين في الماضي.

لقد ترك المسلمون الرواية، وانقطعت أسانيد العلوم كلها بينهم فكثر التصحيف فيها، وانقطعت سلسلة الاتصال بين علمائهم فصارت الفتاوي تنقل من كتب من لا يدري ما زيد فيها مما نقص منها لعدم تصحيحها وقلة الكشف عنها....

وهكذا فهم لم يفقدوا عزتهم الأولى إلا حينما انحرفوا عن سيرتهم المثلى وساد الجهل بينهم وأهملوا العلوم، وانقطعت أسانيدنا بينهم إن في العلوم اللغوية أو الدينية أو الوضعية وصاروا يتجاسرون حتى على القرآن فيقولون فيه بما تولى عليهم أهواؤهم ولا يرضي الله والرسول. وما ضعفهم وتفرقهم واستئساد الأمم عليهم إلا مرآة تعكس مظاهر جهلهم بالحياة وبما تتطلبه لتكون كريمة، ومظاهر جهلهم بدينهم وبما يقتضيه منهم ليكونوا كما وصفهم الله في قوله لهم: ﴿كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله﴾ (سورة آل عمران، الآية 110).

لقد ظهر الإمام الأبلّي بتلمسان في زمان كانت فيه كتب الإمام الفخر الرازي (606هـ/1210م) قد وصلت إليها. وأخذ العلماء يتدارسونها، ويشرحونها، ويبنون عليها، وانتبه هو إلى أهميتها وما تحتوي عليه من الكنوز النادرة في علوم المعقول والمنقول فتقبلها، واختار من بينها كتاب

«محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من الفلاسفة والحكماء والمتكلمين» وصار يدرسه ويشير على طلبته بتلخيصه ليتمكنوا من مباحثه ولتصير هذه من بنية أفكارهم ومن منطلقات بحثهم وأدواته، ومن الوسائل الناجعة للتقدم بهم نحو جزر الفكر المجهولة.

هذا، ولقد كان من بين طلبته الذين لخصوا هذا الكتاب العلامة ابن خلدون (1332-1406هـ/1263-1328م) وهو كتاب جليل على الرغم مما وجهه إليه الامام ابن تيمية رحمه الله (661 - 728 هـ 1263 - 1328 م) من انتقادات غير مؤسسة تجاسرا منه على صاحبه الذي كان لمؤلفاته رواج كبير في المشرق، وانتشار عظيم من بعد ذلك في المغرب، وفي الجزائر المحمية الغالية بالخصوص.

وهي انتقادات لم يرض الإمام الأبلي عنها، ولا سيما حينما نقل إليه البيتان اللذان قالهما عنه. لقد أغضبه هذان البيتان، واستفزاه فقال، وقد كان جالسا، وبيده قضيب : والله لو رأيته لضربته بهذا القضيب هكذا، ثم رفعه ووضع.

وهذان البيتان هما:

محصل في أصول الدين حاصله من بعد تحصيله علم بلا دين
أصل الضلالة والإفك فما فيه فأكثره وحي الشياطين

إن رفض الأبلي وأتباعه لما في هذين البيتين، دليل على أن الجزائر كانت للمنطق والعقل والتقدم والرقى منذ العهود الأولى لانتشار العلم فوق ربوعها، ولم تكن قط للخرافة والتخلف والانحطاط. ولهذا فإننا

لنرجو أن تكون نهضة المسلمين بالحق فوق ربوعها المباركة، وعلى أيدي بناتها وأبنائها...

وهي نهضة كان الأبلي يحلم بها، ويعمل ما في وسعه من أجلها، بإرشاد طلبته إلى ما يمكنهم من السير قدما في طريقها.

وهكذا فإننا لا نشك في أن ما أتى به ابن خلدون في مقدمته يجد مصدره فيما أخذه عنه كما تشير إلى ذلك النصوص التي أوردناها له، وكما يشهد على ذلك ابن خلدون نفسه حين يقول بأنه أخذ منه الكثير وأخذ عنه حتى فكرة العصبية. ولاشك أيضا في أن الدراسات الجادة ستثبت ما نقول، وستبرز ما يدين به ابن خلدون لأساتذته الجزائريين فيما وصل إليه مما هو محل عناية فائقة اليوم من طرف علماء الدنيا كلهم.

إن الأبلي لم يؤلف كتابا، ولكنه كون مع ابن خلدون علماء آخرين لهم من الباع الطويل ما لابن خلدون. وإذا كنا لا نعرفهم فلأن قرون الانحطاط كادت أن تطمس آثارهم (13).

11: الإمام الشريف الحسني أو الأستاذ ملا المغرب علما وتلاميذ

ومن هؤلاء ممن يجب علينا أن نذكرهم الإمام أبو عبد الله الشريف الحسني صاحب ابن خلدون وزميله. وهو الإمام الفذ فارس المعقول والمنقول وصاحب الفروع والاصول، شيخ الشيوخ، حسب حجة الإسلام الإمام ابن مرزوق الحفيد (766-842هـ/1364-1438م)، وأعلم أهل عصره القاطبة.

لقد أخذ كابن خلدون عن الإمام الأبلبي، وتضلع من معارفه فاستبحر وتفجرت ينابيع العلوم من مداركه، إلى أن صار الإمام الأبلبي أستاذه يقول عنه: هو أوفر من قرأ علي عقلا وأكثرهم تحصيلًا.

وبالفعل فلقد كان يحيط بعلوم زمانه كلها، وكان إماما في العلوم العقلية، منطقا كانت هذه أو حسابا أو تنجيما أو هندسة أو موسيقى أو طباً أو تشريحا أو فلاحه، وكان صاحب معرفة عميقة عالية بكثير من العلوم القديمة والحديثة.

لقد كان يقف مع العلم حيث وقف، وكان يحيط بأيام الله علما، ويزيد اجتهاده حيث ينتهي أمره.

فسر القرآن في خمس وعشرين سنة فأفاد وأجاد.

وانصب للتدريس فدرس كل علوم زمانه وبث علمه بإيمان وإخلاص فملأ المغرب علما وبقي على ذلك إلى أن اضطربت أموره بعد واقعة القيروان، وذهبت ريحه.

هذا، ولقد ارتحل إلى تونس ليأخذ عن الإمام ابن عبد السلام (ت 661هـ) ولكن هذا الأخير سرعان ما تبين له قدرته في العلوم فأخذ يدرس عليه في بيته فصل التصوف من كتاب الشفاء لابن سينا (980-1037م)، وتلخيص كتب أرسطو (384-322 ق م) لابن رشد (1126-1198م)، وغير ذلك من العلوم الدينية والوضعية.

وارتحل أيضا على فاس فالتف الطلبة حوله ونهلوا من منابع علمه ما أنعش نفوسهم وارتقى بها لأن اعتناؤه كان بالإقراء، ولم يكن بالتأليف،

ولقد تخرج عليه منهم من لا يحصى من صدور العلماء وأعيان الفضلاء والنجباء.

ومن هؤلاء، وبالاخصوص الإمام الشاطبي (ت 790هـ/1388م) صاحب كتاب الموافقات. وهو الكتاب الذي اهتم به الإمام السيد رشيد رضا (1865 - 1935م)، فطبعه، وانكب العلماء عليه لما فيه من الإعراب عن نوع من الحقائق الدينية التي لا يستغني عنها الفهم الصحيح لتعاليم الدين.

وهي حقائق انتقلت إليه من أستاذه العظيم الإمام الشريف الحسني، ابن تلمسان، الذي أخذ عن الأبلي عالم الدنيا، وكان منه أن عاش مع القرآن الكريم، وبه وله، إذ كان كثير التدبر في آياته وكثير التطلع للشواهد، وكثير النظر في الملكوت بعبارة وفكرة.

إن الإمام الشاطبي هو أول من زرع البذور الأولى لعلم مقاصد الشريعة. الذي هو علم عظيم يكتمل به علم أصول الفقه الذي وضعه الإمام الشافعي رضي الله عنه (150-204هـ/767-820م)، وعلم قواعده الذي وضعه سلطان العلماء العز بن عبد السلام (ت 660هـ/1262م)، وعلم الفروق بين قواعده الذي وضعه الإمام القرافي (ت 684هـ/1285م). هذا، ولا شك في أن الكنز الذي انتقلت منه لبناته الأولى على فكر الشاطبي هو تعليم أستاذه الإمام الشريف الحسني من جهة، ومادة كتابه «مفتاح الوصول على بناء الفروع على الاصول» من جهة أخرى.

ولا شك في أن الإمام الشيخ الطاهر بن عاشور، شيخ مشايخي في الجامعة الزيتونية، عمرها الله، هو الذي انتبه إلى ما في كتاب الموافقات للشاطبي من الحقائق، فاعتمدها، وبنى عليها، وأكملها في كتابه العظيم «مقاصد الشريعة الإسلامية» وهو كتاب عشنا معه ولازلنا وهو من جملة الكتب العليا التي نهلنا منها ولازلنا، إن اللغة العربية وإن باللغة الفرنسية.

هذا، ولا زال علم المقاصد قابلا للإكمال، ولا زال ينتظر من يرقى به إلى قممه بالحق، ويمنح للمسلمين عن طريقه ما يقدمهم، ويرقيهم ويوصلهم إلى تلك الدرجة التي يجب عليهم بلوغها⁽¹⁴⁾، ليكونوا مسلمين بالحق.

12 : فتوحات الأبلي العلمية ومداها:

إن الحركة الفكرية العظيمة التي كان الإمام الأبلي مصدرا لها في الجزائر قد آتت أكلها، وبعثت في البلاد وعيا جيدا متعدد الوجوه أعرب عنه طلبته بأعمالهم الجليلة وهم كثيرون، ولم نذكر منهم إلا قليلا جدا، وأعرب عنه طلبه طلبتهم وهم أيضا كثيرون ولم نذكر منهم إلا النزر اليسير.

وهي حركة تدين لها الجزائر بنهضة لها عارمة أثرت الفكر الحديث بوضعها ثلاثة علوم هي، في زماننا، أساسية، وهي علم الاجتماع، وعلم فلسفة التاريخ ثم علم مقاصد الشريعة أو فلسفة القانون.

وحركة يمكننا اعتبارها من بعد هذا حادثة بالمعنى الصحيح لأنها عن نقد بناء للواقع الفاسد الموروث عن ماضٍ منحرف، ولأنها توجه صادق نحو المستقبل، وإعراض عن الخرافة وإقبال على العقل وترك للتخلف وتمسك بالتقدم.

وبالفعل، فهي حادثة تقدمت الجزائر كلها بسببها كثيرا، وصارت في مستوى بلدان الشرق وفي مستوى بلدان الغرب كما تثبته المقارنة العادلة بينها وبين بلدان العالم في زماننا. وهي حادثة كانت لتعرف ما عرفته الحداثة الأوروبية من الازدهار في شتى مجالات العلم والعمل لو لم تمنعها حركات التاريخ في الشرق والغرب من المضي قدما، ولم تستحوذ أوروبا على غيرها من البلدان بعد أن أصلحت أمورها بما أخذته عن المسلمين أنفسهم وطورته وصارت تهيمن به عليهم، وعلى العالم بأسره.

لقد ازدهرت العلوم في الجزائر ووصلت إلى حد كادت أن تنتقل به إلى ما آلت إليه أوروبا في القرن السابع عشر للميلاد بفضل علمائها الذين صارت لهم رؤية جديدة للإنسان والوجود. وبالفعل، فلقد أدرك علماء أوروبا أن المنهج ذو أهمية حاسمة في البحث العلمي وصاروا يعتمدون عليه، وأدركوا أن الرياضيات هي مقياس العلم اليقيني وأن العالم ما هو إلا أشكال وعمليات رياضية، وأدركوا أن التجربة لا يمكن الاستغناء عنها في إثبات الحقيقة، وأدركوا، وبالاخص، أن العلوم كلها ليست ساكنة

22 - عبد الغني الدفر، معجم النحو، ط 1، 1975-1982. دمشق: الشركة المتحدة للتوزيع، ص 89.

23 - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 4، ص 261.

ولكنها تتطور بما ينكشف للعلماء في مجالاتها من الحقائق باستمرار. وهكذا فإنهم وضعوا فوق بساط البحث كل شيء، ولم يكتفوا بما وصلت إليه البشرية من قبلهم في مجال المعرفة، بل نقدوه وصححوه وطوروه وتقدموا به إلى الأمام فتقدمت العلوم اللغوية فوق ربوعهم وكذلك الآداب والعلوم بأنواعها كلها، والصناعات والفنون، وصارت إلى ما هي عليه اليوم من الاهتمامات بهذه الأرض وبما هو فوق هذه الأرض، وبالكون وما يحتوي عليه للاطلاع على أغواره، والكشف عن أسرارها.

إن علماء الجزائر لم يدركوا، كعلماء المسلمين كلهم، ما وصل الغربيون إليه ابتداء من ديكارت (1590 - 1650م) ومعاصريه إلى اليوم، ولم يستطيعوا أن يتحرروا تماما من قيود الماضي، ولا أن يتجاوزوا سلبات مجتمعهم على الرغم من أن فتوحاتهم في العلوم المختلفة، وجهودهم في تعليم الشعب وتربيته سمحت لهم بأن يعطوا البلاد مستوى كافيا من الثقافة منحها هويتها الأبدية بصفة نهائية، وجعل هذه الهوية ثابتة راسخة تصمد أمام العواصف والزلازل.

13 : الإمام السنوسي عالم تلمسان وحكيمها وصالحها:

هذا، ويبدو لنا أن الإمام السنوسي قد قام بواجبه إلى أقصى حد لحماية هوية بلادنا على الرغم من أنه عاش في وقت كانت حركة التاريخ فيه تتمخض بقوة لتغيير خريطة العالم ورسم وجه آخر لها. وهي حركة صدر عنها خروج المسلمين من الأندلس واكتشاف أمريكا، وظهور

الأترك على مسرح التاريخ، ونهوض البلدان الأوروبية، وانعزالهم عن غيرها من البلدان، وانحطاط هذه الأخيرة، وابتعادها عن الحضارة ومصادرها، وعن العالم وما يجري فيه، فانقض الغرب عليها، واستعمرها، وكاد ان يقضي عليها. ﴿ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض، ولكن الله ذو فضل على العالمين﴾ (سورة البقرة، الآية 251).

وهكذا، فهو قد ظهر في هذا القرن بالذات، وهو محوري في تاريخ البشرية، ليقوم بما قام به الأبي، ومن قبله، ومن بعده من العلماء، لتوعية المسلمين بالعلم، وبالعلم في كل شيء وقبل كل شيء من جهة، وليجمع زبدة فتوحاتهم الفكرية، ويعرضها في كتب ممتازة تقربها من عقول الناس، خواصهم وعوامهم، رجالهم ونسائهم، أحرارهم وعبيدهم، حتى يتحصنوا باستيعابها، ضد كل انحراف، ويعرفوا ما هي المواقف التي يجب عليهم اتخاذها، يوم أن ينقض على بلدانهم أجلاف الأمم، ويغلبوهم على أمورهم ويحاولوا مسخهم من جهة أخرى. وهو أمر نجح فيه إلى حد كبير إذ كان تعليمه الراقى هو السلاح الذي واجهوا بها قوى الغضب والاضطهاد حين هاجمتهم، والسلاح الذي تغلبوا به عليها حين أن الأوان ليظهرها أرضهم منها.

إن الإمام السنوسي عالم كبير، وحكيم بصير، وولي من أولياء الله الصالحين. ولهذا وقف حياته للجهاد في سبيل الله بالتي هي أحسن أو بالعلم والتوعية، فدرس ودرس وألف حوالى خمسين كتابا كلها في علوم

زمانه ومصره. وهي كتبه الكلامية التي تكون نواة أعماله وكتبه المنطقية وكتبه في الطب الشرعي والوضعي وكتبه في الأسطرلاب والرياضيات وكتبه في علوم التفسير والحديث وكتبه في السيرة النبوية الشريفة، وفي الفقه والفرائض، وكتبه في اللغة والأدب، وغيرها.

وهي كتب يدل كل واحد منها على اطلاعه الكبير وعلى سعة علمه، وقدرته على التعبير، والشرح والتحليل والتركيب والتبليغ، والتمكن من المادة التي يكتب فيها، والتصرف فيها بما يجلوها، ويسرها على قارئها، مع حرصه على احترام حقوق النقل والعقل...

لقد كان رحمه الله يرى في علم الكلام أو التوحيد تاج العلوم وغايتها، ويرى في العلوم كلها طرقا إليه وأساسا له.

ولهذا فإننا لا نبتعد، ونحن ندرس هذا العلم لديه، عن العلوم الأخرى منطقية كانت هذه أو رياضية، علمية أو تجريبية، لغوية أو أدبية، ولا نبتعد أيضا عن أصوله من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حين ندرسها. فالعلوم لديه يخدم بعضها بعضا. ولهذا، فإنه ليخيل إلينا ونحن ندرس تراثه في جملته أن الدين لديه علم، وأن العلم دين، ويخيل إلينا أن موسوعيته لا غاية لها إلا أن تزيدنا علما بالدين أو ديننا بالعلم.

هذا، وإذا أردنا أن نعرف مكانته بين علماء المسلمين فإننا نجد ذا علاقة متينة بالمشايخ الأجلاء الذين سبقوه إبتداء من علماء المسلمين الأولين ومن الإمام الأبلي من بعدهم إلى مشايخه المباشرين لأنه كان على طريقتهم ولأنه كان على حكمتهم، يحافظ عليها ويجدد بها بما يمليه

عليه حال المسلمين في عصره وبما يوصله إليه اجتهاده بناء على ما تعرب عنه النصوص الشرعية الصحيحة، ويقتضيه واقع المسلمين في عصره. ونجده أيضا ذا اهتمام كبير بما كان يجري في عصره، وبما سيؤول إليه أمر المسلمين من بعد حين.

ونجده في النهاية يعد لهم العدة بتأليفه المختلفة القيمة ليدافعوا عن أنفسهم بالحجة والبرهان، وليعلموا بصفة نهائية أن الإسلام هو دين العلم كله وأن المسلمين لا يمكنهم أن يرفعوا له أو لأنفسهم، ألوية فوق هذه الأرض إلا بالعلم على اختلاف أنواعه.

لقد كانت تأليفه رحمه الله دعوة منه إليهم للاهتمام بالعقيدة لأنها هي التي تثبت لهم أن الله جل وعلا هو الضامن للوجود والمعرفة إذ لا وجود بدونه ولا معرفة إلا بنور منه لأنه هو الحق المبين، وللاهتمام بالمنطق لأنه نور الفكر إلى الصدق، وللاهتمام بالرياضيات لأنها المعيار الذي يجب أن تستلهمه معارفنا وإن تعتمده، وللاهتمام بالعلوم الوضعية لأنها الجلاء لما يحيط بنا من الأسرار، والتفسير لما يصعب علينا أو يربكنا في حياتنا ويعجزنا فوق هذه الأرض، وللاهتمام بالكتاب العزيز والسنة النبوية الشريفة وبسيرته عليه الصلاة والسلام وحياة صحابته رضوان الله عليهم لما في ذلك من التعاليم الدينية التي تهدي إلى الله وإلى نور منه، وللاهتمام من بعد ذلك بمراجعة كل العلوم التي لهم فيها قدم وساق وترقيتها كلما أمكنهم ذلك، وللاهتمام بكل العلوم التي تظهر في أزمئتهم، ودراساتها والبحث فيها والتقدم بها، وترقيتها لا للبحث من

أجل البحث ولكن عبودية لله وإعلاء لكلمته وتحسينا لأحوال خلقه وعباده طلبا لمرضاته.

وبالفعل فلقد انتشرت كتبه في بلدان المسلمين فانكب عليها الناس في الشرق والغرب، في آسيا وفي أواسط إفريقيا وفي إفريقيا الشمالية، وحتى في أوروبا.. وانتبه إليها العلماء فصاروا يدرّسونها، ويدرسونها ويشرحونها ويعلقون عليها ويلخصونها ويستلهمونها ويؤلفون على غرارها، إلى درجة صارت فيها كتباً مدرسية، تكيف عقول الناس وتصونها بما يضمن لها الاستقرار وإن بدون تقدم، والثبات وإن وسط الزواجع الهوجاء التي كانت بلدانهم تتعرض لها.

لقد كان يدعو إلى تحكيم العقل في النهاية للبت في كل القضايا العارضة.

وكان يدعو إلى تعليم كل الناس حسب مستوى كل منهم.
وكان يدعو إلى تفتح المسلمين على غيرهم، وإلى دراسة عقائدهم ليجادلوهم بالتي هي أحسن، وعلى بينة من أمرهم.
وكان يدعو علماءهم إلى أن يكونوا أصحاب مروءة علمية لان العلماء الذين ليس لهم هذه المروءة هم أخطر على المسلمين من أعدائهم.
وهؤلاء كانوا كثيرين في زمان السنوسي. وهم كثيرون جدا في زماننا.
إن الإمام السنوسي كان قلعة حصينة منيعة للإسلام السني في تلمسان الغراء، ولا يزال كذلك عن طريق كتبه التي لا تزال تدرس في معاهد الدين الإسلامي حيثما كانت.

وبالفعل فأنوار الحقيقة التي تشع منها والتي يدعو الإسلام الناس إليها، وهي أنوار لدنية، قد تمكنت من قلوب المؤمنين وأرواحهم وأعانتهم على السير بثبات حتى في ظلمات التخلف والجمود.

ولذلك فإن الانحطاط الذي وقع المسلمون فيه لعدة قرون، وكذلك الاستعمار الذي عانوا منه، لم ينل شيئا من عزيمتهم وأبقى عليها حية صامدة إلى أن جاء يوم التحرر والنصر. وهكذا، فلقد كان أبناء هذا الشعب العظيم، أولئك الأبطال الأسطوريون الذين حرروا بلادنا الغالية من برائي الطغيان، يصيحون وهم يواجهون زبانية الاستعمار في قاعات التعذيب: «الله أكبر ! تحي الجزائر ! يحيا الإسلام ! وتحيا العربية !» ولقد كنت أسمعهم وأنا بالقرب منهم في زنزانة مع آخرين، ولكأنني أسمع من أفواههم صدى قدسيا لدعوة السنوسي ومن قبله ومن بعده من علماء شعبنا العظيم.

إن الإمام السنوسي عالم عظيم ومؤلف قدير وحكيم بصير. وهو في التاريخ الفكري للجزائر وللمسلمين طود شامخ على الرغم مما يقول عنه كثير من أقزام المؤلفين الذين هم ليسوا في مستوى علمه الموسوعي، ولا يعرفون عنه إلا القليل، ومع ذلك فإنهم يتجاسرون عليه لغرورهم، ويحكمون عليه بما هو بعيد عنه فلا يكون منهم في النهاية إلا الكشف عن جهالتهم.

كناطح صخرة يوما ليفلقها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

إن الإمام السنوسي من مفاخر الجزائر الدائمة. فهو عالمها في عصره، وحكيمها وصالحها، والنيل منه عن قصد أو غيره هو تشويه لتاريخ الجزائر الثقافي، ومحاولة دنيئة للقضاء على هويتها الأبدية، وهي محاولة سعى الاستعمار لإنجاحها بكل الوسائل الجهنمية، ولكنه لم ينجح لأنه لم يرد أن يفهم لغاوته أن الأمازيغية والإسلام والعروبة في الجزائر وحدة لا تتجزأ أو قلعة واحدة حصينة منيعة.

هذا وليس الإمام السنوسي أكبر علماء الجزائر الأعلام ولكنه واحد منهم. وبالفعل، فهو خير خلف لمشايعه ولمشايعهم إلى رسول الله ﷺ، وهو أحسن سلف لمن ظهر بعده من العلماء الجهابذة، مصابيح الجزائر، وهذاتها في السراء والضراء وفي أيام الانحطاط والجمود، وفي ليالي الاستعمار....

14 : الشيخ مصطفى الرماصي إمام الفقهاء في عصره:

ومن هؤلاء، وبكل استحقاق وامتياز، الشيخ الإمام مصطفى الرماصي (ت1136هـ/1724م) الذي اثبت للقريب والبعيد أن الجزائر التي هي ارض القانون منذ أن أشرقت ربوعها بنور الإسلام تعرف ما هو القانون.

وبالفعل فهو حامل لواء الفقه المالكي في عصره، والباعث لروح جديد في دراسة المشايخ لمختصر خليل بن إسحاق المعروف بالجندي (ت 776هـ) والواضع لحاشية فريدة من نوعها على شرح الشمس التتائي (ت 942هـ) له.

وهي حاشية نالت إعجاب الأئمة إذ فتحت أمامهم طرقا جديدة للنظر والفهم، وصارت عمدة لهم يرجعون إليها في دراستهم لهذا الكتاب العظيم أو في حلهم للمشاكل التي تعترضهم فيه أو في غيره. ويمكننا أن نعد من بين من اعتمدوا عليها الشيخ أبو عبد الله اللبناني (ت 1194هـ) والشيخ التاودي (ت 1209هـ).

ومن اعتمد عليها، على ما يظهر مما أطلعنا عليه في الموضوع، الجنرال نابليون بوناپرت (1769 - 1821م) الذي أخذ عنها، وبمعاونة من علماء الأزهر الشريف، عددا من الأفكار لا يستهان بها في وضعه للقانون المدني الفرنسي.

وهو أمر يدل على أن الجزائر لم تكن بلدا متخلفا كما يقول مؤلفو الاستعمار في كتبهم ناسين أن المتخلف هو العنصري الذي لا يحترم الإنسانية حتي في أدنى مقوماتها، والكذاب الذي يعتقد أن الإنسانية هي ما يتصوره هو بعقله المختل.

إن الشيخ مصطفى الرماصي الجزائري جد عظيم في تاريخنا العلمي. ولقد صرنا نحن لا نعرفه وكاد أن يزول رسمه من ذاكرتنا⁽¹⁶⁾.

هذا، ومن علمائنا في هذه المرحلة الشيخ عبد العزيز الشميني

(1130-1223هـ/1718-1808م) مؤلف كتاب «معالم الدين في الفلسفة وأصول الدين» وصاحب كتاب «النيل» في الفقه الإباضي (17).

والشيخ عبد الرزاق بن حمادوش (القرن 18م) مؤلف كتاب «الجوهر المكون من بحر القانون» الذي ضاع ولم يبق منه إلا الجزء الرابع المعروف بـ «كشف الرموز» وهو الذي ترجمه إلى الفرنسية الأستاذ «لوسيان لوكلارك» (Lucien Leclerc). هذا، ويعتبر الشيخ ابن حمادوش من أعلام هذه المرحلة لموسوعيته وتفتحته إلى ما كان يجري في أوروبا، وطموحه إلى الارتقاء بالفكر الجزائري إلى مستواها الحضاري (18).

والأمير عبد القادر الجزائري (1808-1883م)، فارس الإيمان، وأمير السيف والقلم، والولي الصالح الذي أودع كتابه «المواقف»

أسرار الوجود وأبعاده، وحقيقة الدين المحمدي ومقاصده، ورسالة الإنسانية فوق هذه الأرض ومعنى وجودها بها... ورحيلها عنها...

وهو من الشخصيات البارزة في القرن التاسع عشر للميلاد بما كان منه في حياته من جهاد في الله حق جهاده، وبما تركه بعد مماته في كتبه من العلوم الدنية والإشارات السنية التي أوصله إليها الفهم العميق، والفهم نور ينبجس من منابع الجود الإلهي ولا يحظى به إلا أهل العلم والصدق، والمحبة والإيمان الذي يحرك الجبال (20)....

15 : الجزائر بلد علم

إن الجزائر بلد علم في عصورها كلها على الرغم من أن السياسة فيها عبر القرون لم تكن دائما سوية قوية.

وهي اليوم ذات إمكانيات لا يستهان بها تسمح لها بنهوض ثقافي عظيم يربطها بعهود علمائها العظام، ويؤهلها لإصلاح شؤونها بنفسها، ويهيئ لها مكانا جذاً مرموق تصير به في مستوى عصرها بالحق، ويسمح لها بأن تلحق بالركب وأن تتوجه مع الأمم الأخرى كشريك بالحق نحو المستقبل ووعوده.

فالمشاكل اللغوية التي تعترضها والمشاكل العديدة التي يتخبط فيها تعليمها على اختلاف أنواعه ودرجاته، والمشاكل الدينية التي تعكر حياتها الروحية، والمشاكل الفنية والترفيهية وغيرها من المشاكل التي تعترض الناس في أطوار حياتهم المتعاقبة ليست مشاكل بالكلية لأنها مشاكل قابلة للحل لو كان الذين يتولون أمرها هم في أغلبهم رجال دولة وفي المستوى الذي يبتغيه منهم فخامة السيد رئيس جمهوريتنا حفظه الله وسدد خطاه.

وبالفعل فالذي لا يعرف «أجروميته» كاملة غير منقوصة، من بدايتها، في عهود نشأتها الأولى، إلى نهايتها مع النحاة المتأخرين، لا يستطيع مهما كانت ادعاءاته أن يحافظ على لغة هذه البلاد الغالية، ولا أن يثريها، ولا أن يجددها ولا أن يصلحها، ولا أن يجعل منها لغة تعامل وتخاطب، وعلوم وحضارة..

والذي لا يعرف «متن ابن عاشر» في صريحه وفي سره، ولا يعرف كيف كانت نشأة مادته ولا كيف كان تطورها وما آلت إليه، ولا يعرف كيف برزت أصولها ومقاصدها وتأويلاتها عبر القرون، لا يستطيع مهما

كانت ادعاءاته أيضا ان يعلم الناس دينهم ولا أن يفتيهم فيه ولا أن يتولى شؤونه.

وهكذا فإن كل من لا يعرف ما هو الفن وما هي الفلسفة وما هو التاريخ وما هي العلوم على اختلاف أنواعها، وما هو قدره في سلم الوجود وما هي الغاية التي يجب عليه أن يبلغها، لا يجب عليه إلا شئ واحد هو الاكتفاء بما يسمح له به مستواه فحسب، أو الالتزام بالسكوت، ومن لا يعرف فما عليه كما يقول «فثجنشتين» (1889 - 1951 م) إلا السكوت، في الجملة الأخيرة من كتابه «البحث المنطقي الفلسفي».

إن الإنسان لا قيمة له إلا بإدراكه للحق الممكن بالنسبة إليه في هذه الحياة وبالعامل من أجل سيادته على الناس فوق هذه الأرض.

16 : العربية هي لغة الجزائر

ولهذا، فإن الجزائر يجب عليها أن تجند أعلم أبنائها بلغتها لتسترجع لغة علمائها العالية، ولتثريها بما لا يشوه جمالها، ولترتقي بها لتصير لغة العلم والروح ولغة التخاطب كما كانت قبل أن تدخل عليها رطانات العجمة، ويوم أن كان لها جنود يخدمونها ولا يخدمون بها. ويظهر لي أن تطورها، وبسرعة جد ممكن لأن الأعمال التي قام بها إخواننا في الشرق والغرب متقدمة، ولأنها لغة كاملة مكتملة تستطيع أن تواجه المشاكل التي تعترضها وأن تحلها إذا كان لها رجال هم من مستواها بالحق، ووفرت لها الدول العربية الوسائل التي لا زالت تعوزها.

فالمشاكل التي تنسب إليها هي مشاكلنا وليست مشاكلها. ومن الواجب علينا، بدلا من أن ننظر إليها لنثبت عجزها، أن ننظر إلى أدواتنا وإلى معارفنا الحالية بها لنرى هل هي حقا ناجعة.

لقد كانت اللغة الفرنسية في القرن السادس عشر للميلاد لغة متخلفة لا تستجيب لما تتطلبه الحياة منها لتعبر عن الوجود، وكان الناس يفضلون اللاتينية عليها للتعبير عما يعن لهم من الشؤون. ومع هذا فإنها لم تبق على هذه الحال وتجاوزتها بما لا يتناهى لأن بررة من أبنائها تعاهدوا على أن يدافعوا عنها ضد محاربيها، وعلى أن يحيوها، ويشروها ويرتقوا بها، ويجعلوا منها، زيادة على كونها لغة التخاطب والأدب والفن والصناعة، لغة العلم عوضا عن اللاتينية. ولقد نجحوا في مسعاهم، وكانوا هم من شعرائها وناثريها الأولين.

وهم سبعة يعرفون في تاريخ الأدب الفرنسي «بشعراء الثريا»، ويدرسهم طلبة السنة الثانية من التعليم المتوسط في الثانويات. وأشهرهم هما «رنسار» (1524-1585 م) و«جواشيم دوبلاي» (1522-1560) اللذان هما شاعران ينبغي لنا أن نرجع إلى أعمالهما لعلنا نجد فيها ما يمكننا أن نستغله في النهوض بلغتنا، وشاعران يمكننا أن نقارن بينهما وبين شعراء المعلقات، أو بينهما وبين شعراء الجزائر في زمانهما لنرى كم كانت اللغة العربية عالية إذ ذاك على ألسنة شعرائها وعلمائها، وكم كانت عالية في مدارسها وفوق ربوعها، ولنرى من بعد هذا كم هي فظيعة، دعوى الكثيرين من المؤلفين من أبنائها وغيرهم بأن الجزائر بلد غير ذي ثقافة.

17 : آفاق الجزائر العلمية

إن الجزائر، وبدون مبالغة، بلد ذو ثقافة عالية، وفي عصورها كلها. وعلينا نحن اليوم أن نعرف هذه الثقافة، بالرجوع إلى أعمال علمائها، وهي كثيرة وهم كثيرون، لنعرف بصفة يقينية ونهائية من هم أسلافنا وما الذي يجب علينا القيام به اليوم لنكون أهلا لهم وأهلا لهذه العولة التي تداهمنا، وأهلا لأن نكون من بُنائتها.

فترائنا يؤهلنا لأن نكون في المقدمة مع من يسيرون نحو التقدم والرفي ولا يرضون لنفوسهم، وعلى أية حال، بأن يكونوا للتخلف والانحطاط. ولهذا فما علينا إلا أن نسلك الطريق الصحيح.

إن مدارسنا اليوم، كمدارسنا بالأمس، تعلم تقريبا كل العلوم المعروفة في زماننا. ولقد بدأت تعطي ثمارها في كثير من الاختصاصات إن باللغة العربية وإن باللغة الفرنسية أو غيرها. وبالفعل، فلقد بدأ الشبان من مدرسيها، وكذلك الشابات، ينشرون، وبكل فخر واعتزاز، مؤلفاتهم في علوم اختصاصاتهم على اختلاف أنواعها، ويثرون بها تراث بلادهم العظيم ويصلون بها سلسلة أسلافهم الذهبية. وهم ينظمون من بعد هذا ملتقيات وندوات دورية يعالجون فيها قضايا الساعة في مجالات الحياة المختلفة، فيفتحون بذلك وبغيره على ما يجري في العالم ويتوصلون بهذا، وبطرق أخرى، إلى مواصلة ما قام به أسلافهم من كل العصور في الثقافة على اختلاف تجلياتها، وإلى اللحاق بالركب، والمشاركة في توجيه المغامرة الإنسانية نحو مزيد من الكمال، عن جدارة واستحقاق.

إن بناتنا وأبناءنا، وهم فلذات أكبادنا ومحطة كل آمالنا، قادرون على أن يمنحوا بلادنا، وفي القريب العاجل، كل مجد هي أهل له إن وجدوا من يدلهم على الطريق الصحيح. ومن الواجب على دولتنا، حفظها الله وحماها، ومن الواجب علينا أن نكون لهم بكل قوانا، وأن لا نهملهم، وأن لا نتركهم للجهلة والمتعلمين يعثون بهم وبمستقبلهم ومستقبل البلاد معهم.

لقد اهتم بهم الشيخ عبد الحميد بن باديس (1889 - 1940م) طوال حياته وخاطبهم وهو من أعظم من تعاطفوا في عصرنا مع تعاليم القرآن الكريم، منطوقها ومفهومها، ومن أولئك القرآنيين الذين هم ورثة الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، والذين هم قلب الإنسانية، وعقلها وبصيرتها، بقصيدته المشهورة «شعب الجزائر مسلم»، فعرفهم بهويتهم الأبدية، وأخبرهم بأنهم في كل عصر أمل الأمة ورجاؤها. وطلب منهم أن لا يخوضوا في أمر، إلا بعد أن يأخذوا له سلامه وطلب منهم أن يرفعوا للعدل والإحسان منارهما، لأنه لا شيء يمكن أن يقوم على الظلم والجور. إن تاريخ الجزائر بالحق هو تاريخ علمائها، منذ القديس أوغستين (354 - 430 م)

ومعاصريه إلى الأمير عبد القادر والإمام عبد الحميد بن باديس ومن ساروا من بعدهم على خطاهم.

ومن الواجب على شبابنا أن يعرفوهم وأن يعرفوا مآثرهم، وما تحمله إليهم من التوجيهات للتقدم والرقى والإبداع في كل زمان.

وعلينا أن نوفر لهم الشروط الضرورية لينجحوا، وأن لا نشغلهم بعماليات جهلنا، ولا بضلالات أهوائنا لأن زمانهم غير زماننا، ولأن عالمهم غير عالمنا، ولأنهم سيتقدرون، وبحول الله، على ما لا نقدر عليه نحن اليوم لأسباب ليس هذا محل تفصيلها.

هذا، وإنني لا أشك في أنهم هم الذين سيعيدون للجزائر مجدها التليد، دون سواهم لأنه سيكون لهم الباع الطويل في العلوم وفي بناء الحضارة الإنسانية، لا بما ينقلونه عن غيرهم، ولكن بما تجلوه لهم أبحاثهم الرائدة، وتجد به عليهم منابع قلوبهم الطاهرة وفتوحات عقولهم النيرة وعوارف قرائحهم الخصبية.

هذا، وإنني لا أشك في أنهم هم الذين سيحيون تراث علمائنا باللغة العربية في ظل الإسلام، وتراث علمائنا باللاتينية قبل الإسلام، وتراث علمائنا باللغة الفرنسية في أيام الاحتلال السوداء ومن بعدها، لأنهم سيكونون، بحول الله، وفي المستقبل القريب، أصحاب الدراية الراسخة التي ستسمح لهم بأن يرسوا لبلادنا قواعد حضارتها بالحق، وبأن يرووا أن مراحل تاريخها كله هي حقيقتها، وأن يروا أنه يمكنها، إذا مزجت بينها بما يجعل منها وحدة تجلوها كثرتها وتعرب عنها، أو كثرة تنظمها وحدتها وتدعمها، أن تصير من بلدان المستقبل التي يعول عليها فوق هذه الأرض... وما ذلك على الله بعزيز، فهو نعم المولى ونعم النصير...

الشيخ الأستاذ الربيع ميمون

عالم في أصول الدين / دكتور دولة في الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة الجزائر

المراجع

- 1 - Ernest Renan, Histoire générale et système comparé des langues sémitique , Livre IV, Chapitre 2, pp.444 -507, in uvre complètes, T.8, calmann - levy, paris, 1947.
- 2 - G.H. Bousquet , Les berbères, P.U.F.Paris ,pp. 43 - 44.
- 3 - Ibid
- 4 - الإشارة هنا هي إلى «إميل - فيليكس غوتيي» مؤلف كتاب:
Le passé de l'Afrique du Nord, Les Siècles Obscures , Payot, Paris, 1937.
- وهي أيضا إلى أمثاله من المؤلفين.
- 5 - عبد الحميد بن باديس، «الحركة العلمية والسياسية في القطر الجزائري»، أثار الإمام عبد الحميد بن باديس، مطبوعات وزارة الشؤون الدينية، 1985، ج 4، ص ص 114 - 120 .
- 6 - عبد الرحمن الجيلالي، «تاريخ الجزائر» ، ديوان المطبوعات الجزائرية، ج 1، ص 273. بدون تاريخ.
- 7 - رابع بونار، «المغرب العربي. تاريخه وثقافته» ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1981، ص ص 304 - 318.
- 8 - نفس المرجع، ص ص 298 - 302 .
- 9 - عبد الرحمن الجيلالي، المرجع السابق، ص ص 304 - 305.
- 10 - نفس المرجع، ص ص 318 - 319 .
- 11 - صالح بلعيد، «ألفية ابن مالك في الميزان» ، ديوان المطبوعات الجامعية 1995، ص ص 15 - 16 .
- ثم ابن مالك، الألفية، القاهرة، 1932، ص 2.
- 12 - ابن مريم، «البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان» ، ديوان المطبوعات الجزائرية، 1980، ص ص 214 - 229 .
- ثم ابن خلدون، «الباب المحصل» ، المقدمة.
- 13 - ابن مريم، المرجع السابق، ص ص 164 - 184 .
- ثم الشريف الحسني، «مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول» ، منشورات المركز الثقافي الإسلامي، الجزائر، بدون تاريخ.
- ثم الإمام الشاطبي، «الموافقات» ، مجلدان، دار المعرفة، بيروت، 1997.
- ثم الإمام الطاهر عاشور، «مقاصد الشريعة الإسلامية» ، بدون تاريخ، المقدمة، ص ص 3-8.
- 14: الأعشى ميمون، من معلقته:

«ودع هريه إن الركب مرغل وهل تطبيق وداعا أيها الرجل»

15: الربيع ميمون، «الإمام السنوسي عالم تلمسان»: حوليات جامعة الجزائر، الجزائر، مارس 1993، ص 24-37.

- ثم الربيع ميمون، «طريقة الحكماء المحدثين في علم الكلام عند الإمام السنوسي» حوليات جامعة الجزائر، مارس 1996 ص 40، 56.

- ثم

Louis Gardet et M.M.Amawati, " Introduction à la Théologie Musulmane Vrin,
Paris, 1948, pp.169-171 et pp.381-384.-

16 - محمد الحجوري، «الفكر السامي»، فاس، بدون تاريخ، ص 78-79.

- ثم محمد عزيز جعيط، الطريقة المرضية، تونس، 1360 هـ، ص 35.

17: - الربيع ميمون، «مكانة الإمام عبد العزيز الثميني في علم الكلام»، الأيام الدراسية حول الشيخ عبد العزيز الثميني، غرداية، 1999، ص 32.

18 - Lucien Leclerc, Traduction de Kachf Ar-roumouz (Révélation des Enigmes),
Préface, Eds. Baillière et Leroux, Paris 187.

- ثم عبد الرزاق بن حمادوش، «كشف الرموز»، المطبوعات الجميلة، الجزائر، 1996.

19 - Rabia Mimoun, L'homme dans la vie et l'uvre de l'Emir Abdelkader, Annales
de l'Université d'Alger, 1989-1990, p.47.

20 - Lagarde et Michard, le XVI ème siècle, Collection " Textes et Littérature ",
Bordas, Paris, 1961, pp.91-166.

21 - عبد الحميد بن باديس، المرجع السابق.

هل - بلى مسألتان في الاستفهام تحتاجان إلى فتوى لغوية معاصرة!

أ.د. صالح بلعيد.

المقدمة : لا أخفي على القارئ بأنّ (هل) و (بلى) شكّلتا لي مسألة لغوية كبيرة منذ سماعي الكثير والمتكرّر الخلط في الإجابة عن الاستفهام بـ (هل) بصيغة التعيين، وهي تأتي للتصديق بصيغة: (نعم) أو (لا) عكس ما ينطبق على (الهمزة) التي تقبل التعيين والتصديق. كما نجد في أسلوب الاستفهام الإنكاري الإجابة المؤكّدة بنعم بدل بلى، وهذا عكس ما تعلّمناه من شيوخنا، وما درسناه في كتب النحو بأنّ الإيجاب للاستفهام الإنكاري يكون ببلى، وأنّ النفي يكون بنعم؛ حيث تقوم (نعم) في هذا الموقع مقام (لا) النافية. وإثر الخلط والتعاكس الذي أسمعته على أفواه بعض الخاصة، بلّغ العامة، أصبحت (هل) و (بلى) من المسائل التي تحتاج إلى بيان حقيقتيهما اللغوية، وكيف يجب التعامل معهما في

* - وقع تركيزي على الاستفهام الإنكاري حالة توظيفه لأداتين من أدوات الاستفهام هما: ألم / أليس. واستبعدت غيرهما.

أسلوب الاستفهام، وهل يمكن أن تنطبق شروط (الهمزة) على (هل)؟ وكذلك هل يمكن أن تحلّ (بلى) محلّ (نعم)؟

وهكذا يتعيّن في هذا الموقع البحث عن أدوات الاستفهام، وأدوات الجواب، لما لها من أهمية في الفروق اللغوية، وما هي المواقع السياقية التي تستعمل فيها كلّ أداة من هذه الأدوات. وبذا رصدت كلّ الشواهد ذات العلاقة بالاستفهام الإنكاري (الموظّف فيه (ألم) وظهور الإجابة به (بلى) فقط، من ثلاثة مصادر هي: القرآن الكريم + شرح أبيات سيويه للسيرافي + وشواهد المغني للسيوطي، وشكّلوا لي مدوّنة اعتمدتها في التحليل. واستبعدت البحث عن شواهد (الهمزة) و(هل) لكثرتهما، ولكنني تحدثت في الفرق بينهما نظراً للتداخل الذي يحصل أحياناً.

وتستدعي المنهجية العلمية التعرّض للمعنى الذي يفيد أسلوب الاستفهام. فلغة: استفهم طلب معرفة شيء لم يكن معروفاً من قبل، والخلوص إلى الجواب ليس شرطاً، أو طلب الفهم بالأدوات المخصوصة. ومجاله الإرادة، وعناصره المقامية المتكلم والمخاطب، وحال كلّ منهما للجواب. فالتكلم بجهل ما يسأل عنه أو لا يعرف تعيينه، ويفترض أنّ المخاطب إليه عالماً بما يسأل عنه أو غير عالم. كما أنّ هناك استفهام ظاهري ينجز عن طريق أدوات مجالها الحروف / الأسماء، وهناك استفهام إضمري مظهر أو مقدماً أو مؤخراً؛ لأنّ فيها معنى التحضيض مثلاً: هلا / لولا / لوما / ألا.

واصطلاحاً: أسلوب يؤتي به في صياغة طلب معرفة الشيء أو حاله أو

نوعه أو عدده، أو صفته. فهو خبر يجيء لمعنى يقتضيه حال المستفهم السائل أي أن الخبر ناتج عن استفهام «فالخبر والاستفهام زوج ملازم أحدهما للآخر بعبارة جيرو⁽¹⁾ (Une paire adjacentes) وسبق أن قال الزركشي بأن الاستخبار هو الاستفهام؛ باعتبار الاستخبار؛ هو طلب خبر ما ليس عندك، وهو بمعنى الاستفهام؛ أي طلب الفهم. ومنهم من فرق بينهما بأن الاستخبار ما سبق أولاً، ولم يفهم حق الفهم، فإذا سألت عنه ثانياً كان استفهماً⁽²⁾. وعند البلاغيين: «من أنواع الإنشاء الطلبي؛ وهو طلب العلم بشيء لم يكن معلوماً من قبل، فالاستفهام إما أن يكون عن نسبة كقولك: هل يصدأ الذهب؟ وفي هذه الحال تنفي نسبة الصدأ عن الذهب أو تثبت بـ (لا) أو (نعم) بالنسبة للسائل، لأنه متردد بين ثبوت الصدأ للذهب ونفيه عنه، ويسمى إدراك النسبة ومعرفتها تصديقاً، وإما أن يكون الاستفهام عن أحد شيئين أو أكثر، نحو: أفاض بالجائزة عبد الله أم إبراهيم؟ فهنا لا نطلب معرفة النسبة، والمستفهم يعرف أن الفوز واقع حتماً بالنسبة لواحد من المستفهم والمستفهم عنه، وينتظر من المسؤول أن يعين المفرد الفائز، وتسمى معرفة المفرد تصوراً⁽³⁾ ويمكن أن يخرج

1 - ع / خالد ميلاد، الإنشاء في العربية بين التركيب والدلالة دراسة نحوية تداولية. تونس: 2001، منشورات كلية الآداب بجامعة منوبة + المؤسسة العربية للتوزيع، ص 113.

2 - الإمام بدر الدين بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. بيروت: دت منشورات المكتبة العصرية، ج 2، ص 326.

3 - محمد سعيد إسبر + بلا جنيدي، معجم الشامل في علوم اللغة العربية ومصطلحاتها، ط 1. بيروت: 1981، دار العودة ص 94-95.

الاستفهام إلى معانٍ أُخر تُفهم من سياق الكلام، ونشير إلى بعض هذه المعاني:

*** الاستفهام الإنكاري:** وهو ما يسأل به عن شيء غير واقع، ولا يمكن أن يقع، كما أن قائله من الكاذبين ويتضمّن معنى النفي؛ باعتبار أداة النفي فيه بمنزلة أداة النفي من حيث المعنى، وقد أخذ تسميات أخرى من مثل: الاستفهام الإبطالي / التحذير / الوعيد... ولا بأس من التمثيل لكل واحد منها:

*** الاستفهام الإبطالي:** هو استفهام إنكاري؛ يتضمّن النفي، مثل قوله تعالى ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا ﴾ الإسراء 40. أي خصّكم ربكم بالذكور، وخصّ نفسه بالبنات. ويرى الزمخشري في هذه الآية بأن الخطاب موجه للذين قالوا الملائكة بنات، والهمزة للإنكار، يعني أفخصكم ربكم على وجه الخصوص بأفضل الأولاد؛ وهم البنون لم يجعل فيهم نصيباً لنفسه، واتخذ دونهم وهي البنات، وهذا خلاف الحكمة وما عليه معقولكم وعادتكم؛ فإن العبيد لا يؤثرون بأجود الأشياء وأصفأها من الشوب ويكون أردوها وأدونها للسادات. وعلى العموم فإنه يفيد أن ما بعد الهمزة غير واقع (باطل) وأن مدعيه كاذب.

*** استفهام التحذير / الوعيد:** استفهام إنكاري ومن شواهد قوله تعالى ﴿ أَلَمْ تَهْلِكْ الْأَوَّلِينَ ﴾ المرسلات 16. هنا تحذير ووعد وتذكير بأن العذاب يمكن أن يقع كما وقع على من سبقوكم.

* استفهام الافتخار: وهو من الاستفهام الإنكاري، ومن شواهد قوله تعالى ﴿وَنَادَىٰ فرعونُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِي أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصرَ وَهَـذِهِ الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون﴾ الزخرف 51؛ حيث استفهم فرعون عن ملك مصر على سبيل الإثبات مع الافتخار والاستعلاء، وهو استفهام تقريرى؛ ويراد منه طلب الاعتراف بوقوعه، وهذا معنى التقرير. أي حمل المخاطب على الإقرار والاعتراف بأمر قد استقرّ عندك ثبوته نحو: أضربت أخاك؟ ونحو قوله تعالى ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ الشرح 1. ويرى الزمخشري⁽⁴⁾ في هذه الآية أنه استفهم عند انتفاء الشرح على وجه الإنكار؛ فأفاد إثبات الشرح وإيجابه، فكأنه قيل: شرحنا لك صدرك، ومثل ذلك أن تقول: ألم أحذرك من الكهرباء. ومثله قول جرير في بيته الافتخاري المشهور:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

ويرى أحمد الهاشمي في البيت المذكور بأنه أسلوب استفهامي يراد به التقرير؛ لأنّ المقام للمدح وذلك أبلغ فيه، ولو أنّ الشاعر قال في مدحه (أنتم خير من ركب المطايا) لكان قوله (خيراً) يحتمل الصدق والكذب ولكنه إذا وضعه في صورة الاستفهام لم يجعله خيراً يشكّ فيه، بل جعله حقيقة لا يجهلها أحد، ولا ينكرها إذا سئل عنها⁽⁵⁾.

4 - تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل، تحقيق وتعليق: محمد مرسى عامر، ط2، القاهرة: 1977، دار المصنف.

5 - أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، بيروت: 1978، دار الفكر، ص 96.

*** استفهام العتاب:** استفهام تنكير، ذكره السيوطي ومثّل له بالآية الكريمة ﴿أَلَمْ يَأْتِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلَ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ الحديد 16 ، ففي هذه الآية استفهام عتاب موجّه للصحابه عندما أكثروا المزاح. وبعضهم يسميه الإنكار التوبيخي: فتقضي أنّ ما بعدها واقع، وأنّ فاعله ملوم عليه، ومثله كذلك ﴿أَتَعْجَبُونَ مَا تَنْجَتُونَ﴾ الصافات 95. كما أدرجه بعض الباحثين في استفهام الإيطاء. فعن ابن عباس رضي الله عنه أنّ الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن.

*** استفهام التهكم:** استفهام تنكير، ومن شواهد قوله تعالى ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَجَلَوَاتِكَ تَأْمُرُكَ أَنْ تَتْرِكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ هود 87. حيث كان شعيب عليه السلام كثير الصلوات، وكان قومه إذا رأوه يصلي تغامزوا وتضاحكوا تهكماً منه.

*** استفهام التعجب:** استفهام تنكير، ومن شواهد قوله تعالى (أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسُ عَلَيْهِ دَلِيلًا) الفرقان 45. والمعنى: ألم تنظر إلى صنع ربك وقدرته! ومعنى مدّ الظل أن جعله يمتدّ وينبسط فينتفع به الناس، ولو شاء لجعله غير منبسط لا ينتفع به الناس. وهذا كلّ في أسلوب التنبيه والتعجب؛ يراد منه بيان قدرة الله، والدعوة إلى استعمال الفكر في هذه الأمور.

ونخلص إلى نقطتين هما:

أولاً: إنَّ العرض والتمني والتخصيص والتحقيق والطلب... أعمال من الاستفهام، فهي معان غير واجبة مولدة من الاستفهام، ولكنها تختلف عن محض الاستفهام؛ إذ تكون أدواتها مركبة من حروف الاستفهام والنفي، وتحمل معنى اللين والرفق واللطف من دون قوة الأمر المباشرة. وللاستفهام معنى حقيقي وواضح هو طلب معرفة شيء، أو خصيصة من خصائصه.

ثانياً: نرى في الاستفهام الإنكاري المعنى واقعاً على ما بعد أداة الاستفهام المنفية؛ حيث تؤكد الأداة وتحقق ارتباطها بالنفي المقصود منه التثبُّت والتأكيد، كقوله تعالى ﴿فَهَلْ يَسْهَلُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ الأحقاف 35. فالاستفهام المتصدر للجملة لحقَّه النفي، وعند ذلك خرج من صيغة الاستفهام الحقيقي إلى نكران، بغية التحقيق أو التذكير. وهذه هي الصيغة التي يتنزل فيها أسلوب الاستفهام الإنكاري، ويتحدد عند ذلك المعنى حسب الدلالة التي يفيدها من ارتباطه بما يلحقه من مفردات. أي أنَّ الاستفهام قد يخرج عن معناه الحقيقي إلى معانٍ أخرى يفيدها من خلالها السياق الذي يرد فيه. فللاستفهام الإنكاري أسلوب يلتزمه من خلال ضمائم لغوية يوظفها في نطقه.

إنَّ أسلوب الاستفهام له حرفان وتسعة أسماء، فأما حرفاه، فهما:

- الهمزة: باب الاستفهام لأنها أكثر دوراناً، ويستفهم بها في التعيين

والتصديق، نحو: أعمر دخل أم سعيد؟ **فالتعيين** هو إدراك المفرد؛ كأن تقول: أسعيد مسافر أم خالد؟ تعتقد أن السفر حصل من أحدهما ولكن تطلب تعيينه، ويُجاب بالتعيين: سعيد / خالد. **وأما التصديق** هو «إدراك وقوع نسبة تامة بين المسند والمسند إليه - أو عدم وقوعها؛ بحيث يكون المتكلم خالي الذهن مما استفهم عنه في جملة مصداقاً للجواب - إثباتاً بنعم - أو نفيّاً بلا⁽⁶⁾». وبذا نعلم أن الهمزة تستفهم عن ثبوت النسبة كأن تقول: أحضر الرئيس؟ فنستفهم عن ثبوت النسبة ونفيها، وفي هذه الحالة يجاب بنعم / لا. وهي (الهمزة) حرف مبني على الفتح لا محلّ له من الإعراب، وإذا دخلت على نفي أفادت التحقيق: ألم تفهم الدرس؟ ويرى النحاة بأن الهمزة تنفرد ببعض الخصائص التي لا توجد في غيرها من أدوات الاستفهام، من مثل:

* تصدرها الكلام، ولا يجوز أن يتقدمها شيء، علماً بأن أدوات الاستفهام الأخرى تقدمتها أشياء: ﴿عمر يتساءلون﴾ ﴿فكيف تتقون﴾ ﴿إن كفرتم يوما﴾ ﴿فهل يهلك إلا القوم الفاسقون﴾. كما أن أم تصدر بعض أدوات الاستفهام من مثل: أم هل ترى غير هذا؟ / أم من يرفعك للمقام الأعلى؟ / إن هل ليست بمعنى الألف. وهذا ما لا يحصل بالنسبة للهمزة.

* اختصاصها بالدخول على حروف النفي مثل: لا = ألا. ما = أما. لم = ألم، وكذلك على الواو = أو في قوله تعالى (أو كلمّا عاهدوا عهداً

6- أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدع، ص 87.

نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون) البقرة 100. وعلى الفاء ﴿أفأمن
أهل القرى أُمُّ يَأْتِيهِمْ بِأَسْنَا بِيَاتَا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ الأعراف 97/
﴿أفأمن الذين مكروا السيئات أُمُّ يَخْسِفُ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ
يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ النحل 45. وعلى ثمَّ ﴿أَثَرُ
إِذَا مَا وَقَعَ آمَنُمْ بِهِ الْإِنُّ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ يونس 51.

* دخولها الكثير على (رأيت). و(رأى) هنا هي القلبية ﴿أَفَرَأَيْتَ
الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا﴾ مريم 77. ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَى عَبْدًا إِذَا
صَلَّى﴾ الماعون 2. ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَكْذِبُ بِالْذِّينِ﴾ العلق 9. كما
تدخل على (رأى) البَصَرِيَّة: رأيت محمداً البارحة في السوق؟ والفرق
بين القلبية والبصرية، نجده في جواب رأى القلبية الذي قد لا يأتي لأنه
يصاغ للوعظ، أو التنبيه أو التعجب أو التحذير... وأما رأى البصرية فإنه
يطلب التعيين / التصديق: نعم، رأيته / لا، ما رأيته.

* حذفها في النص الاستفهامي: وهذا ما ذكره ابن هشام⁽⁷⁾ عندما
احتجَّ بمجموعة من الشواهد التي حذفت فيها، ومن أمثلة الحذف في
الآبيات الشعرية التي احتجَّ بها ابن هشام قول عمر بن أبي ربيعة:
فوا الله ما أدري، وإن كنت دارياً بسبع رمين الجمر أم بثمانٍ؟

والهمزة المحذوفة هنا في بداية كلمة (سبع) والمقصود (أبسبع) على
اعتبار أنها متقدمة على (أم) وكونه لم يشر إلى القرائن الخطية أو اللفظية

7 - جمال الدين بن يوسف بن هشام الأنصاري، مغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تحقيق: مازن المبارك +
محمد علي حمد الله، بيروت: 1979، دار الفكر، ص 20-19.

التي عملت على حذف الهمزة، فنرى بأنّ (الهمزة) حذفت بفعل تضافر القرائن كما يقول تمام حسان، وهذا ما تبرزها النغمة التي تعين لنا نوع المحذوف، فالمحذوف هنا ليس معجمياً، بل هو دليل لفظي يلمس من خلال القرائن التي جمعت البيت. وهذا لا يتوفّر إلا في (الهمزة) رغم التشابه الملموس بينها وبين (هل) في اشتراكهما في الاستفهام عن التصديق «إذا ما أخذنا في الحسبان اشتراك (الألف) و (هل) في الاستفهام عن التصديق = النسبة، جاز لنا القول بجواز حذف أي من الأدوات إذا دلّت على وجودها قرينة (التنغيم) أو أية قرينة أخرى مناسبة حين لا يكون التركيب منطوقاً... إنّ الحكم بجواز الحذف في (الألف) يصدق في (هل) من حيث كان كلّ من الأدوات يُستفهم به عن النسبة. ومن قبل أنّ النغمة في بنية الاستفهام بأيّ منهما تكون صاعدة ظهرت الأداة أو حذفت. أما سائر أدوات الاستفهام فلا يحسن حذفها لأنّه يفوّت به (أي) بالحذف ما يستفهم عنه بها، ولأنّ التنغيم عند الاستفهام بها ليست صفته مقصورة على التراكيب التي تتضمن تلك الأدوات»⁽⁸⁾.

- **هل:** حرف استفهام مبني على الفتح لا محلّ له من الإعراب، يدخل على الجملة الاسمية والفعلية وهذا للاستفهام عن العلاقة بين جزأها: هل سافر محمد؟ ويكون الجواب: نعم / لا. هل محمد سافر؟

8 - فيصل إبراهيم صفا «تأملات في اختصاص (ألف) الاستفهام بالحذف» مجلة حوليات الجامعة التونسية. تونس: العدد 40، ص 41-29.

ويأتي الجواب بـ نعم/ لا، ولكنه يقبح أن يلحقها اسم. أما هل زيداً عرفت؟ فهو صواب لأنه في أسلوب الاشتغال. والاستفهام في الأصل لا يتم إلا بالفعل؛ وهذه الخصيصة يعللها سيبويه على اعتبار أن الاستفهام مثل الأمر والأمر لا يكون بغير الفعل⁽⁹⁾ إلا أن النحاة توسّعوا فيها فأجازوا لبعضها أن تبدئ بالاسم، فأجاز المجمعون دخول هل على اسم بعده فعل استناداً إلى فعل القدامى «يجري على أقلام الكتاب مثل هذا التعبير: هل الكذب يُصدق؟ بدخول (هل) على اسم مخبر عنه بجملة فعلية. وجمهور النحاة على أن ذلك جائز في ضرورة الشعر. على أنه جاء في الهمع تجويز الكسائي دخول (هل) على الاسم الذي يليه فعل في الاختيار ولا مانع من إجازة ذلك التعبير⁽¹⁰⁾» وأما جوابها فيكون للتصديق سواء جاءت بعدها (أو) مكررة أو غير مكررة، أم لم تحيء: هل سافر خالد؟ نعم/ لا. هل سافر خالد أو زهير؟ الجواب: نعم/ لا. هل سافر خالد أو زهير أو محمد؟ الجواب: نعم/ لا. وإذا جاءت بعدها (أو) لا يحصل التعيين كقولك: هل حضر سعيد أو محمد؟ الجواب: نعم/ لا، فلا يقال: سعيد/ محمد؛ لأن (هل) لا تأتي للتعين بل يؤتى بها للاستفهام عن العلاقة بين ركني الجملة، فتكون إجابتها: نعم/ لا. أما التعيين فيكون السؤال: ب (الهمزة) أجا سعيد أم محمد؟ فتقول: سعيد/ محمد. كما لا تدخل (هل) على (إن) فلا يقال: هل إنك قادم؟

9 - سيبويه، الكتاب، تحقيق: محمد عبد السلام هارون، ط3. القاهرة: 1988، ج1، ص99.

10 - مجمع اللغة العربية، الألفاظ والأساليب، إعداد: محمد شوقي أمين. القاهرة: 1977، الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية، ص48.

ولا تدخل على شرط، فلا يُقال: هل إن نكرمك تكرمنا، ولا على نفى، فلا يُقال: هل لم يذهب خالد؟ ولا على حروف العطف، ولا على اسم بعده، ولا على المضارع الدال على الحال، وهذا عكس (الهمزة) التي تقبل كل المذكور. وعند بعض النحاة تشترك (لعل) في حروف الاستفهام نحو قوله تعالى ﴿وما يدريك لعله يزكى﴾ عبس 3. فلعل هنا خرجت من معنى الترجي إلى إفادة الاستفهام من خلال الربط المعنوي الذي أفادته من خلال السياق.

ومع هذا فإن (هل) أمكن في الدلالة على الاستفهام؛ لأنها ليست بديلاً للهمزة، فهي حرف وضع لمحض الاستفهام، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهي تماثل الهمزة في بعض الأمور، والفرق بينهما في كون الاستفهام بـ ((هل)) لا يكون تقريراً أو توبيخاً، ويفرق بينهما سيوييه بقوله «إن هل ليست بمنزلة ألف الاستفهام؛ لأنك إذا قلت: هل تضرب زيداً؟ فلا يكون أن تدعي أن الضرب واقع. وقد تقول: أتضرب زيداً؟ وأنت تدعي أن الضرب واقع، وما يدلّك على أن ألف الاستفهام ليست بمنزلة هل أنك تقول للرجل: أطرباً وأنت تعلم أنه قد طرب، لتوبيخه وتقرّره، ولا تقول هذا بعد هل⁽¹¹⁾» أي بل يقلب: هل تطرب؟ لأن العبارة هنا تتضمن معنى الطرب في المستقبل، فلما يحصل الطرب بعد، عكس: أتطرب؟ يمكن أن تدلّ على واقع قد أنجز، كما يجوز أن تدلّ على شيء لما ينجز بعد، وهذا حسب السياق الكلامي الذي ترد فيه.

ونبقى في (هل) لنؤكد بأنه يؤتى بها للتصديق فقط؛ أي معرفة نوع النسبة، أو عدم وقوعه لا غير، نحو: هل حافظ الإسلاميون على أفكارهم؟ ولهذا امتنع أن يقال: هل حافظ الإسلاميون على أفكارهم أم تجاوزوها؟ ولأجل اختصاص (هل) بطلب التصديق لا يذكر معها المعادل بعد (أم) فهي تأتي لطلب الحكم؛ لأن الحكم فيها غير معلوم، وإلا لم يستفهم عنه بها، وحينئذ يؤدي الجمع بين (هل) و (أم) إلى التعارض. ويؤكد هذا الأمر السكاكي في قوله «الاختصاصه بالتصديق امتنع أن يقال: هل عندك عمرو أم بشر؟ باتصال: أم، دون: أم عندك بشر؟ بانقطاعها، وقبح: هل رجل عرف؟ وهل زيد عرفت؟ دون هل زيداً عرفت؟ ولم يقبح: أرجل عرف؟ وأزيداً عرفت؟»⁽¹²⁾ كما يجب أن نعرف بأن (هل) تُخصَّص الفعل المضارع بالاستقبال، فلا يصح أن يقال: هل تضرب زيداً وهو أخوك؟ على نحو: أتضرب زيداً وهو أخوك؟ في أن يكون الضرب واقعاً في الحال. ويكون (هل) لطلب الحكم بالثبوت أو الانتفاء، على أن الإثبات والنفي لا يتوجهان إلى الذوات، وإنما يتوجهان إلى الصفات، كما أنها أدعى للفعل من الهمزة، أضف إلى هذا أنه يدخلها معنى التقرير والتوبيخ ما يدخل الهمزة التي يستفهم بها، كقوله تعالى ﴿هل لكم مما ملكت إيمانكم من شركاء﴾ الروم 28. أو تفيد معنى قد في مثل قوله تعالى ﴿هل أتى على الإنسان خير من الدهر﴾ (الإنس 1).

12 - أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر محمد بن علي السكاكي، مفتاح العلوم، ضبط وشرح: نعيم زرزور، ط 1. بيروت: 1983، دار الكتب العلمية، ص 308-309.

ونخلص إلى ما يلي:

- 1 - إنَّ (الهمزة) حرف استفهامي يأتي للتصديق، كما يأتي للتعين والتثبيت، وجوابه يقبل: نعم / لا. كما يقبل التعيين: (فلان).
- 2 - تنفرد (الهمزة) بخصائص لا توجد في غيرها من أدوات الاستفهام.
- 3 - (هل) حرف استفهامي يأتي للتصديق، وجوابه التثبيت لا غير، فيكون بإحدى صيغ الجواب: نعم / لا.

وأما تسعة أسماء فهي: مَنْ / ما / متى / أَيْانَ / أينَ / أنى / كيف / أيْ / كم. وقد تلحق بعض هذه الأسماء ضمائم إضافية تؤدي دلالة الاستفهام مع زيادة معنوية، مثل: منذ متى / منذ كم... فهي أدوات استفهامية يراد منها التأكيد أو التحسّر أو التعجّب أو الشك... وبذا نراها تأتي لتأدية معانٍ وأغراض متعددة. كما تخرج هذه الأدوات عن الاستفهام الحقيقي إذا جاءت بعدها كلمات التسوية: ما أبالي / ما أدري / سيّان / ليت شعري. وهكذا نجد إحدى عشرة أداة للاستفهام، يقسمها النحاة إلى ثلاثة أقسام:

* قسم أول يختصّ بطلب حصول التصوّر، فيسأل بها عن معناها، ويكون الجواب معها بتعيين المسؤول عنه: ما / مَنْ / أيْ / كم / أين / كيف / أنى / متى / أَيْانَ.

* قسم ثان يختصّ بطلب حصول التصديق: هل.

* قسم ثالث لا يختص، وهي الهمزة. فالهمزة لها معان بلاغية عديدة، فقد تفيد التصوّر / التصديق / التسوية.

وهذا توضيح موجز في معاني أسماء الاستفهام:

- من: للسؤال عن الجنس من ذوي العلم: من محمد؟
- ما: للسؤال عن غير العاقل: ما عندك؟ أي أجناس الأشياء عندك؟
- وجوابه: سيارة/ قلم/ جهاز. وتحذف ألفها غالباً بعد حرف جرّ، كقوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ آمَنَ تَبْخُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِخَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ آل عمران (99) وبمعونة القرائن والسياق تتغير دلالة هاتين الكلمتين: ما هذا؟/ من هذا؟ فقد تحمل السؤال الذي يحمل معنى الاستخفاف أو التحقير...

- متى / أيّان: للسؤال عن المكان/ الزمان.

- أين: للسؤال عن المكان.

- أنى: تارة تعمل عمل كيف، وتارة تعمل عمل أين، وتارة تفيد ما تفيده أين.

- أيّ: تأتي لتمييز أحد المتشاركين في أمر يجمعهما، وهي اسم استفهام مُعرّبة، تصلح لكثير من المعاني فقولك: أيّ رجل؟ قد يفيد التعجب، أو التحقير...

- كيف: للسؤال عن الحال، وقد تقع بمعنى التعجب، وهذا في قوله تعالى ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ البقرة 28.

- كم: للسؤال عن العدد، وقد تخرج إلى معنى الاستبطاء. كم تدعوني؟ أو الإنكار أو التعجب: كم وعدتني ولم تف!...

وإنَّ أسلوب الاستفهام في عمومهِ يتطلَّب الجواب؛ وهو الردُّ سواء بالقبول أو النفي، إلا جواب الطلب فجوابه متضمَّن فيه؛ حيث السؤال يحمل الجواب، فقولك: اعمل تريح، فكلمة (تريح) جواب عن سؤال اعمل. يقول الزركشي: «إنَّ الأصل في الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال، إذا كان السؤال متوجَّهاً، وقد يُعدَّل في الجواب عما يقتضيه السؤال تنبيهاً على أنَّه من حقَّ السؤال أن يكون كذلك، ويسميه السكاكي الأسلوب الحكيم. وقد يجيء الجواب أعمَّ من السؤال للحاجة إليه في السؤال وأغفله للمتكلِّم، وقد يجيء أنقص لضرورة الحال. والأصل في الجواب أن يعاد فيه نفس سؤال السائل (13)» وتفادياً للتكرار أتوا عوض ذلك محذوف جواب اختصاراً وتركاً للتكرار. وأما ألفاظ القبول عادة هي التي يؤتى بها للدلالة على جملة الجواب المحذوفة غالباً، سادة مسدَّها اللفظان المتواتران: نعم/لا. ومن طريف الشعر الذي وظفت فيه علامتي الإيجاب والنفي في صور جميلة:

لا تقولن إذا ما لم تُردَّ	أن يتمَّ الوعد في شيء (نعم)
حسن القول (نعم) من بعد (لا)	وقبح قول (لا) بعد (نعم)
إنَّ (لا) بعد (نعم) فاحشة	فب (لا) فابداً إذا خِفتَ الندم
فإذا قلت (نعم) فاصبر لها	بنجاح القول إنَّ الخلف عدم.

إنَّ أكثر أدوات الجواب نجد (نعم) وفي معناها تستعمل المترادفات التالية: أجل / بلى / جبر / جَلَل / إي / لام الجواب / كلا / إنَّ، ولكلِّ

منها خصائص يتفرد بها، إلا أن توظيفها في الأساليب القديمة قليل، بله الحديث عن الأساليب المعاصرة. ومن خلال هذا الموقع يمكن ذكر ما تفيده كل أداة من هذه الأدوات باختصار:

- نعم: حرف جواب وتصديق وتوكيد، مبني على السكون لا محل له من الإعراب، وقد ورد ذكره في القرآن الكريم بمعنى الإيجاب أربع مرات (4)(14). أو هو: جواب سؤال مقدر، ويأتي بعد الكلام الموجب والكلام المنفي «إذا سأل أحدهم: أقام زيد؟ بالإثبات، قلت: نعم، فإنك تريد: نعم لم يقم زيد، فكأنك صدقت هذا النفي، لكن إذا أردت أنه قام، فعليك أن تقول: بلى قام زيد (15)» ومن معانيه:

* التصديق للمخبر: إذا وقع بعد جملة خبرية: دخل الأستاذ؟ نعم دخل.

* الوعد للطلب: وذلك إذا وقع بعد الأمر أو النهي أو التحضيض، نحو: تابع محاضرتك، نعم. ويرى بعض النحويين أن الإجابة بعد الطلب ب (أجل) أحسن منها ب (نعم).

* الإعلام للمستخبر: وذلك إذا وقع بعد الاستفهام، نحو: هل فهمت؟ نعم.

* حرف التوكيد: إذا صدر الكلام بها، نحو: نعم إنك بطل.

- أجل: حرف جواب مبني على السكون لا محل له من الإعراب

14- سورة الأنفال رقم 44- سورة الأعراف رقم 114- سورة الشعراء رقم 42- سورة الصافات رقم 18.
15- شوقي المعري، إعراب الكلمات والتراكيب المشككة في الأساليب العربية، ط2، دمشق: 2001، دار الحارث، ص 92.

بمعنى نعم، قليل الاستعمال. ويأتي جواباً للسائل؛ فإذا كان الكلام قبله منفياً أفاد النفي (إثبات النفي) نحو: ألم تجلس؟ أجل (أي لم أجلس) أي يأتي تصديقاً للمخبر وإعلاماً للمستخير، ووعداً للطالب، نحو أجل، لمن قال لك عاونني. وأما قوله تعالى ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل...﴾ البقرة 282، فهو ليس حرف جواب، وكذا بقية آيات القرآن الكريم.

- **بلى:** حرف جواب، قل وروده في الشعر، وورد اثنين وعشرين (22) مرة في القرآن الكريم، و«يجاب به عن سؤال منفي، فيبطل نفيه، كنحو: أن تسأل وقد نجحت أما نجحت؟ فتجيب: بلى والمعنى: بلى نجحت. ولو قلت: نعم لكان المعنى: نعم ما نجحت!! وذلك أن نعم لا تبطل النفي، بل تثبته فيظل المعنى منفياً⁽¹⁶⁾.» وهي غير بل: التي تفيد الإضراب. ومعناه حينئذ إبطال ما قبله، وإذا وليه مفرد كان حرف عطف ولم يسمع مقترناً مع حرف آخر إلا مع (لا) فإنها تزداد قبل بل لتوكيد الإضراب: وجدتك كالبدر لا بل كالشمس، أي لتدرك كلام غلطت فيه، فتقول: رأيت علياً بل محمداً «ويكون لترك شيء من الكلام وأخذ من غيره⁽¹⁷⁾» ولا أريد الاستفاضة في مسألة بلى حيث يأتي الحديث عنها مفصلاً.

- **جبر/جبر:** حرف جواب بمعنى نعم، مبني على الكسر أو الفتح، لا

16 - يوسف الصيداوي، الكفاف، ط 1. بيروت: 1999، دار الفكر المعاصر + دمشق: دار الفكر، ج 1، ص 446.

17 - محمد بن عبد الله بن مسلم الدينوري، تأويل مشكل القرآن، شرح ونشر: أحمد صقر. بيروت: دت،

المكتبة العلمية ص 536.

محلّ له من الإعراب، والشائع استعماله قبل القسم؛ حيث يؤدي دلالة (والله) وهو قليل الاستعمال.

- **جَلَلٌ**: تأتي حرف جواب بمعنى نعم، فيكون مبنياً على السكون لا محلّ له من الإعراب. وهو من الكلمات النواذر.

- **إِي**: حرف جواب بمعنى نعم، قلّ استعماله، وورد في قوله تعالى ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُمْ بِمُهْجَرِينَ﴾ (يونس 53) ونجده في هذه الآية بمعنى بلى، ولا يأتي إلا قبل اليمين صلة لها. وهذه الحرف كثير الاستعمال في التعبيرات اليومية.

- **لام الجواب**: وهي اللام التي تأتي بعد لو/ لولا، كقولك: لو زرت لرأيت/ لولا المصالحة لفشا الحقد.

- **كلا**: لها معاني كثيرة، وهي في أصلها حرف ردع وزجر، تكون اسماً للردّ كقوله تعالى ﴿كَلِمَاتٌ سَوِيَّةٌ تَلْمِزُونَ﴾ ﴿ثُمَّ كَلِمَاتٌ سَوِيَّةٌ تَلْمِزُونَ﴾ 3، 4. كما تكون حرف جواب في قولك: هل دخل الأستاذ؟ كلاً فهنا أفادت نفي الجواب، وهي حرف نفي مبني على السكون لا محلّ له من الإعراب خلافاً لـ (إي) في الإثبات. ويقول عبد السلام هارون تأتي حرف جواب بمعنى نعم، وهو ما قاله النضر بن شميل والفرّاء ومن وافقهما، وحملوا عليه قوله تعالى ﴿كَلِمَاتٌ سَوِيَّةٌ تَلْمِزُونَ﴾ (18).

- **إن**: حرف جواب بمعنى (نعم) من شواهد ما روي أنّ فضالة بن شوك قال لابن الزبير: لعن الله ناقةً حملتني إليك. فأجاب ابن الزبير:

18 - عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ط2. القاهرة: 1979، مكتبة الخانجي بمصر، ص 161.

كما تأتي بعد كون منفي؛ أي بعد ما كان أو لم يكن لتوكيده: ما كان محمد ليظلمك (الجنود) وهذا كله يدخل في النفي المطلق؛ أي تنفي جميع الأفراد من غير حصر كمّي ولا عددي. وهناك **لا النافية للجنس**، وهي حرف يدخل على الجملة الاسمية، فيعمل فيها عمل (إن) وهي تفيد نفي الخبر عن الجنس الواقع بعدها، أي نفيًا عامًا على سبيل الاستغراق لا على سبيل الاحتمال، ويشترط في عملها:

* أن يكون اسمها وخبرها نكرتين.

* ألا يفصل بينها وبين اسمها فاصل.

* ألا يدخل عليها حرف جر.

كما يدخل على هذه اللام الهمزة، وبذلك تصير أسلوباً إنشائياً، ويتغير معناها، كأن تقول: ألا أصارحك بالقول / ألا تأتي معنا... وهناك **لا النافية للعامة عمل ليس**، وسميت عند بعض النحويين بـ (لا الحجازية) وهو حرف يعمل عمل الأفعال الناقصة في نصب المبتدأ ورفع الخبر، وهذا ضمن شروط:

* ألا يتصل بينها وبين اسمها فاصل إلا إذا كان هذا الفاصل ظرفاً أو جاراً ومجروراً معمولاً للخبر: لا عليك أحدٌ معتدياً.

* ألا ينتقض نفيها بـ (إلا) لأنّ النقص يجعل المعنى إثباتاً.

* ألا تتكرر؛ لأنّ نفي النفي إثبات، وهي لا تعمل إلا في المنفي.

* ألا تزداد بعدها (إن).

* أن يكون اسمها وخبرها نكرتين.

- **لم:** حرف نفي وجزم وقلب، مبني على السكون لا محل له من الإعراب، ويجوز دخول همزة الاستفهام عليه فيفيد التقرير والتوبيخ ﴿ألم نشرح لك صدرك﴾ الانشراح 1. وقد ورد ذكر هذا الحرف في القرآن الكريم ثمانية وسبعين (87) مرة، بما فيها ألف لام ميم. كما أن لم / لما ينفيان الماضي ويختصان بالدخول على المستقبل. ونجد أحياناً حرف (لما) يأتي بمعنى (لم) في قوله تعالى ﴿بل لما يذوقوا العذاب﴾ ص 8. أي بل لم يذوقوا العذاب.

- **لن:** حرف نفي واستقبال مبني على السكون لا محل له من الإعراب، وينصب الفعل المضارع بعده.

- **ما:** النافية التي لا عمل لها، وهي حرف نفي مبني على السكون لا محل له من الإعراب، ينفي الماضي / والحال: ما دخل الأستاذ (الماضي) ما دخل الأستاذ الآن. وهناك ما النافية العاملة عمل ليس والمسماة بما الحجازية، فهي حرف يرفع المبتدأ وينصب الخبر بشروط:

* ألا يتقدم خبرها على اسمها.

* ألا يتقدم معمول خبرها على اسمها.

* ألا تزداد بعدها إن.

* ألا ينتقض نفيها بـ (لا)

* ألا تتكرر.

- **إن:** النافية التي تعمل عمل ليس، شرط عدم تقدم خبرها على اسمها، وعدم انتقاض نفيها بإلا. كقول الشاعر:

إن المرء ميتاً بانقضاء حياته ولكن بأن يُبغى عليه فيُخذل.

- **لات:** وهو حرف مشبه بليس، ويعمل عملها تحت هذه الشروط:
* ألا ينتقص نفيها بإلا.

* أن يكون اسمها وخبرها من أسماء الزمان.

* أن يكون أحد معموليها محذوفاً.

* أن يكون المذكور من معموليها نكرة. وتظهر هذه الشروط في قول الشاعر الذي أنشد:

لهفي عليك للهفة من خائف يبغى جوارك حين لات مجير.

- **ليس:** فعل ماض ناقص تفيد النفي، وكثيراً ما تزداد عليها همزة الاستفهام ﴿ **أليس الله بكاف عبده** ﴾ الزمر 36. وهنا تفيد النفي الإنكاري، وقد وردت ثلاث عشرة (13) مرة في القرآن الكريم بصيغة (أليس). ويقول عبد السلام هارون «وأما ليس فهي وإن لم يأت منها فعل الأمر أو النهي أو الدعاء لعدم تصرفها، قابلة أن تجيء في سياق الاستفهام، فيسري إليها ما فيه من معنى الإنشاء، لأن العلماء قد نصّوا على أن أداة الاستفهام إذا دخلت على جملة عمّ معنى الاستفهام الجملة بأسرها. وقد وقعت ليس بعد الاستفهام كثيراً. قال تعالى:

﴿ **أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالدين من دونه ومن يخلل الله فما له من هاد** ﴾ الزمر 36 ﴿ **وكذلك قتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء من الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين** ﴾ الأنعام 53 ﴿ **وجاء قومه يهْرَعُونَ إليه ومن قبل**

كانوا يحملون السيئات قال يا قومي هؤلاء بناتي هن أظهر لكم
فاتقوا الله ولا تخزونني في ضيفي أليس منكم رجل رشيد ﴿هود 78﴾
﴿ومن يهدي الله فما له من مهمل أليس الله بعزيز ذي
انتقام﴾ (20) الزمر 37.

وبعد هذا التوضيح المختصر لأدوات الاستفهام وأدوات الجواب
(الإيجاب / النفي) نعود لمسألة (بلى) فقد نصت كتب الاختصاص على
أنه حرف جواب مبني على السكون لا محل له من الإعراب، يوظف
بعد النفي إثباتاً، وأحياناً يقترن بالاستفهام مثل: أليس الله بكاف عبده،
ويأتي الجواب إثباتاً (بلى) ونفيًا (نعم) وفي تعريف آخر «حرف مرتجل، أي
للجواب، أصلي الألف، وليس أصلها بل، وتختص بالنفي وتثبت، سواء
كان مجرداً نحو: زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى، أو مقروناً
بالاستفهام حقيقياً كان نحو: أليس زيد بقائم فيقال بلى، أو توبيخاً نحو:
أيحسب الإنسان أن لن نجتمع عظامه بلى، أو تقريرياً نحو: أأست برّبكم
قالوا بلى أجري النفي مع التقرير مجرى النفي المجرد في رده بلى،
ولذلك قال ابن عباس وغيره لو قالوا نعم كفروا ووجهه أن نعم تصديق
للمخبر بنفي أو إيجاب (21)، ويؤكد هذا الأمر صاحب معجم النحو
«حرف جواب وتختص بالنفي، وتفيد إبطاله، سواء أكان مجرداً نحو:

20 - عبد السلام محمد هارون، الأساليب الإنشائية في النحو العربي، ص 41. (أتمت الآيات لمعرفة مقام
الشاهد من الآية) بتصرف.

21 - جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، همع الهوامع جمع الجوامع في علم العربية. بيروت: ديت دار المعرفة
للطباعة والنشر، ج 2، ص 71-72.

زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثنَّ أم مقزوناً بالاستفهام - حقيقياً كان، نحو أليس عليّ بات - أو توبيناً نحو أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم بلى، أو تقريراً نحو أليست بربكم قالوا بلى والفرق بين (بلى) و (نعم) أن (بلى) لا تأتي إلا بعد نفي، وأن (نعم) تأتي بعد النفي والإثبات، فإذا قيل: ما قام زيد فتصديقه نعم، وتكذيبه بلى⁽²²⁾. وهكذا تتحدّد معالم (بلى) في أنها لا تأتي إلا بعد نفي: ألم / أليس، وتكون جواباً للإثبات، وتعكس في هذه الحالة كلمة (نعم) التي تدلّ على النفي إن سبقت بنفي.

ويلخص ذلك الزركشي في قوله: إن بلى لها موضعان:

1. أن تكون رداً لنفي يقع قبلها، كقوله تعالى ﴿ما كنا نعمل من سوء بلى إن الله عليه﴾ النحل 28.

2. أن تقع جواباً لاستفهام، دخل عليه نفي حقيقة، فيصير معناها التصديق لما قبلها: ألم أكن صديقك! ألم أحسن إليك! فتقول: بلى (أي كنت صديقي)⁽²³⁾. وفي تفصيل آخر حول بلى سمّاه الكلام على (بلى) قال: وأما (بلى) فقد وردت في القرآن في اثنتين وعشرين موضعاً، في ست عشرة سورة، وهي على ثلاثة أقسام:

* أحدهما: ما يختار فيه كثير من القراء وأهل اللغة الوقف عليها؛ لأنها جواب لما قبلها غير متعلّق بما بعدها؛ وذلك عشرة مواضع: موضعان

22 - عبد الغني الدقر، معجم النحو، ط 1، 2، 1975، 1982. دمشق: الشركة المتحدة للتوزيع، ص 89.

23 - الزركشي، البرهان في علوم القرآن، ج 4، ص 261.

في البقرة ﴿ مَا لَا تَعْلَمُونَ بَلَىٰ ﴾ ﴿ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بَلَىٰ ﴾ وموضعان في آل عمران ﴿ وَهُمْ يَعْلَمُونَ بَلَىٰ ﴾ أوفى ﴿ بَلَىٰ إِنْ تَصْبِرُوا ﴾ وموضع في الأعراف ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ وفي النحل ﴿ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ ﴾ وفي يس ﴿ أُنْ يَخْلُقُ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ ﴾ وفي غافر ﴿ رَسَلَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ وفي الأحقاف ﴿ عَلَىٰ أَنْ يَحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ ﴾ وفي الانشقاق ﴿ أَنْ لَنْ يَحْجُورَ بَلَىٰ ﴾. فهذه عشرة مواضع يختار الوقف عليها؛ لأنها جواب لما قبلها، غير متعلّقة بما بعدها، وأجاز بعضهم الابتداء بها.

**** الثاني :** ما لا يجوز الوقف عليها، لتعلّق ما بعدها بها وبما قبلها، وذلك في سبعة مواضع: في الأنعام ﴿ بَلَىٰ وَرَبَّنَا ﴾ وفي النحل ﴿ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ ﴾ وفي سبأ ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي ﴾ وفي الزمر ﴿ مَنْ الْمُحْسِنِينَ بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ ﴾ وفي الأحقاف ﴿ بَلَىٰ وَرَبَّنَا ﴾ وفي التغابن ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ﴾ وفي القيامة ﴿ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ بَلَىٰ ﴾. وهذه لا خلاف في امتناع الوقف عليها، ولا يحسن الابتداء بها، لأنها وما بعدها جواب.

***** الثالث :** ما اختلفوا في جواز الوقف عليها؛ والأحسن المنع؛ لأنّ ما بعدها متّصل بها وبما قبلها، وهي خمسة مواضع: في البقرة ﴿ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي ﴾ وفي الزمر ﴿ قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ ﴾ وفي الزخرف ﴿ وَنَجَّوَاهُمْ بَلَىٰ وَرَسَلْنَا ﴾ وفي الحديد ﴿ قَالُوا بَلَىٰ ﴾ وفي الملك ﴿ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ ﴾.

ونخلص من وراء هذه الشواهد ومن المحدّدات لعلماء اللغة في باب

(بلى) إلى ما يلي:

1. بلى قد يوقف عليها؛ لأنها جواب تأكيد، فلا تحتاج إلى متمم.
 2. لا يوقف عليها؛ لأن ما قبلها بحاجة إليها وإلى ما بعدها.
 3. هناك أشياء خلافية، كان الأفضل منع الوقف عليها.
- وإذا تصفّحنا الآيات الحاملة لكلمة بلى، نجد فيها (بلى) متنوّعة المعاني، ولها مواقع متفرّقة، وهذا سرد وشرح لها من خلال الآيات التالية المعتمدة عشوائياً:

- ﴿بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب

النار هم فيها خالدون﴾ البقرة 81. يقول الزمخشري بأنّ (بلى) إثبات لما بعد حرف النفي، وهو قوله ﴿لن تمسنا النار﴾ أي بلى تمسكم بدليل قوله ﴿وهم فيها خالدون﴾. ويقول أبو جعفر الطبري: وأما (بلى) فإنّها إقرار في كلّ كلام في أوله جحد، كما نعم إقرار في الاستفهام الذي لا جحد فيه.

- ﴿بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربّه ولا

خوف عليهم ولا هم يحزّون﴾ البقرة 112. إثبات لما نفوه من دخول غيرهم الجنّة، كما يجوز أن يكون (بلى) ردّاً لقولهم، ثمّ يقع (من أسلم) كلاماً مبتدأ، ويكون من متضمناً معنى الشرط وجوابه، فله أجره، وأن يكون من (من أسلم) فاعلاً لفعل محذوف؛ أي بلى يدخلها من أسلم، ويكون قوله (فله أجره) كلاماً معطوفاً.

- ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ أَجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ البقرة 260. هنا (بلى) إيجاب لما بعد النفي معناه بلى أمنت (ولكن ليطمئن قلبي) وليمزيد سكوناً وطمأنينة.

- ﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ آل عمران 76. تفيد (بلى) إثبات لما نفوه من السبيل عليهم؛ أي بلى عليهم سبيل فيهم.

- ﴿بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا يَأْتِكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يَمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ آل عمران 125. نجد (بلى) إيجاباً لما بعد لن بمعنى يكفيهم الإمداد بهم فأوجب الكفاية، ثم قال (وإن تصبروا وتتقوا) يمددكم بأكثر من ذلك العدد مسوِّمين للقتال.

- ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الأنعام 30. إنَّ الجملة التي سبقت (بلى) (أليس هذا بالحق) تعبير من الله تعالى لهم على التكذيب فقد أجابوا بالتصديق.

- ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف 172. ويقول

الزمخشري قوله (ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) من باب التمثيل والتخييل، ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووجدانيته، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التي ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقرّرهم وقال لهم ألست بربكم، وكأنهم قالوا بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك، ولو قالوا: نعم لكفروا إذ يكون المعنى: نعم لست ربنا!! لأن (نعم) في هذا الموقع يحمل نفيًا أوضح من أن يكتّم، وأقوى من أن يهمل.

- ﴿الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقُوا السَّلَامَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَى إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ النحل 28. تدخل هذه الآية في باب الشماتة؛ لأنه جحدوا ما وجدوا عليه من الكفر والعدوان.

- ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتَ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ النحل 38. نجد (بلى) إثباتاً لما بعد النفي؛ أي بلى يبعثهم ووعد الله مصر ومؤكد لما دل عليه (بلى) لأن يبعث موعد من الله، ويبيّن أن الوفاء بهذا الموعد حق واجب عليه في الحكمة.

- ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَ نَكْمُ عَالَمٍ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ سبأ 3. نجد (بلى) تفيد معنى الإيجاب المؤكد بما هو الغاية في التوكيد والتشديد، وهذا

جواب لإنكار نفي البعث ومجيء الساعة، أو استبطاء لما قد وعدوه من قيامها على سبيل الهزء والسخرية.

- ﴿أَو لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ يس 81. نجد (بلى) تأكيداً لحقيقة الخلق والربوبية لله وحده؛ حيث إنَّ خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس.

- ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَ تِلْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ الزمر 59. تفيد (بلى) الوعيد حيث توحى للعبد بأنه قد هُدي بالوحي فكذب به واستكبر عن قبوله، وأثر الكفر على الإيمان والضلالة على الهدى.

- ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِيَكُم رَّسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ الزمر 71. نجد (بلى) تفيد تأكيد النفي، فوجبت على الكافرين كلمة العذاب.

- ﴿قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنْ تَأْتِيَكُم رَّسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ غافر 50. سبقت (بلى) بـ (أو لم تأتكم رسلكم بالبينات) والتي هي إلزام للحجة وتوبيخ، فكلمة (بلى) تأكيد لتكذيب بينات الرسول.

- ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَا لَا نَسْمَعُ سُرَّهُمْ وَنَجَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ

يَكْتَبُونَ ﴿ الزخرف 80. إِنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ السِّرَّ وَالنَّجْوَى؛ وَهُوَ مَا يَكَلِّمُ بِهِ
الرجل نفسه أو غيره في مكان خال، بلى يَسْمَعُهَا اللَّهُ وَيَطَّلِعُ عَلَى رِسَالِهِ
(يريد الحفظة).

- ﴿ أَمْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِ
بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿
الأحقاف 33. إِنَّ النِّفْيَ فِي أَوَّلِ الْآيَةِ جَذَبَ اهْتِمَامَ لِلْقُدْرَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي
لَمْ تَعْزِهَا خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهِيَ أَعْظَمُ مِنْ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى،
فَجَاءَتْ كَلِمَةُ (بَلَى) لِتُوكِّدَ هَذِهِ الْقُدْرَةَ، وَهِيَ فِي مَرَحَلَةِ الْإِيجَابِ.

- ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ
قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿
الأحقاف 34. تَأْتِي هَذِهِ الْآيَةُ تَوْكِيداً لِلآيَةِ السَّابِقَةِ، بِأَنَّ الْقُدْرَةَ الْإِلَهِيَّةَ
عَظِيمَةً، وَالْمُسْتَهْزِئَ بِهَا كَفِيلٌ بِنَيْلِ الْعَذَابِ.

- ﴿ يَنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ كُنْتُمْ فَتَنْتُمْ
أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمْ الْأَمَانِي حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ
وَغَرَّتْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿ الحديد 14. جَاءَتْ كَلِمَةُ (بَلَى) جَوَاباً لِسُؤَالِ
إِنْكَارِي (أَلَمْ) فَهِيَ تَفِيدُ التَّوَكُّيدَ وَالْإِثْبَاتَ.

- ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ
لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿ التغابن 7. نَجِدُ (بَلَى) إِثْبَاتاً لَمَّا
بَعْدَ لَنْ وَهُوَ الْبَعْثُ (وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ) أَيُّ لَا يَصْرِفُهُ عَنْهُ صَارْفٌ.
- ﴿ تَكَادُ تَمِيزُ مِنَ الْخِيْطِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٩٨﴾ ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ المملك 9.8. في الآية الثامنة (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ) توبيخ ظاهر، فجاءت الآية التاسعة (قَالُوا بَلَىٰ) تؤكد اعترافهم بعدل الله وإقراراً بأنَّ الله عزَّ وجلَّ أزاح عنهم بيعة الرسل، وإنذارهم ما وقعوا فيه وأنهم لم يؤثتوا من قدره.

- ﴿بَلَىٰ قَادِرِينَ عَلَىٰ أَنْ نَسُوَّ بَنَانَهُ﴾ القيامة 4. نجد (بلى) أوجبت ما بعد النفي وهو الجمع فكأنه قيل: بلى نجتمعها.
- ﴿بَلَىٰ إِنْ رَبُّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا﴾ الانشقاق 15. (بلى) إيجاب لما بعد النفي في لن يحور، أي بلى ليحورن.

ونستخلص ما يلي:

* أولاً: جاءت كلمة (بلى) في عمومها حرف جواب يفيد التوكيد والإثبات. ودلالاتها في القرآن الكريم تمتاز بالدقة والإحاطة والشمول.
* ثانياً: (بلى) حرف ردّ للنفي الذي قبله، وهذا النفي قد يكون صريحاً وقد يكون مفهوماً من السياق، فمن النفي الصريح قوله تعالى: ﴿زَعِمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ رَبِّي لَيُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبُّوا بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَىٰ اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ التغابن 7. والنفي المفهوم من السياق قوله تعالى ﴿أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَىٰ الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ الزمر 58-59.

* **ثالثاً: بعض (بلى)** لا يمكن الوصول إلى دلالتها العامة إلا بعد ربطها بالسياق العام الذي تفيد به الآية على اعتبار أن القرآن يفسر بعضه بعضاً⁽²⁴⁾ وأن الوصول إلى متقدم أو متأخر ليس في متناول كل الناس. كما أن بلى أحياناً يوقف عليها، وأحياناً لا يوقف عليها؛ حيث إن ما قبلها مرتبط بها وبما بعدها.

* **رابعاً: بعض (بلى)** لم تسبق باستفهام إنكاري واضح مثل: ألم / أليس.

* **خامساً: لاحظنا في الآيات احتياج متقدم بلى إليها، كما لاحظنا الوقوف عليها، ولاحظنا عدم الوقوف.**

* **سادساً: هناك استفهام إنكاري في بعض الآيات، وما وجدنا جواباً بكلمة (بلى). وهذا ما يظهر من خلال شواهد (أليس) وهي في صورة استفهام:**

- ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبَّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ الأنعام 30. نجد قوله تعالى (أليس هذا بالحق) تعبيراً من الله تعالى لهم على التكذيب فجاء الجواب يؤكد هذا التكذيب؛ الذي هو باطل.

- ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ الأنعام 53. نجد السؤال

24 - لمزيد من التوضيح، يمكن العودة إلى: الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة: 1957، دار إحياء التراث، الجزء الثالث، ص 175، وما بعدها.

(أليس) يفيد التنكير، الذي يحمل العلم بالشيء، ولكن غاب الجواب ببلى.

- ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قومي هؤلاء بناتي هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخذلوني في ضيقي أليس منكم رجل رشيد﴾ هود 78. غاب الجواب ببلى.

- ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بالحق لما جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ العنكبوت 68. لا نجد الجواب ببلى.

- ﴿فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق إذا جاءه أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ الزمر 32. لا نجد الجواب ببلى.

- ﴿أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضل الله فما له من هاد﴾ الزمر 36. لا نجد الجواب ببلى.

- ﴿ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون﴾ الزخرف 51. لا نجد الجواب ببلى.

- ﴿ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون﴾ الأحقاف 34. لا نجد الجواب ببلى.

- ﴿أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى﴾ القيامة 40. لا نجد الجواب ببلى.

- ﴿أليس الله بأحكم الحاكمين﴾ التين 8. لا نجد الجواب ببلى.

وبعد هذا نخلص إلى أن:

- **بلى** بعد استفهام إنكاري مسبق بـ (أليس) قد يأتي جوابها، وهو قليل، وغالبه لا يأتي. وبذا تخرج دلالة (**بلى**) من صيغة الجواب إلى دلالات أخرى، فقد تفيد التعجب / التحذير / الترغيب...

- **بلى** لها مواضع الوقف عليها؛ باعتبارها جواباً لما قبلها غير متعلق بما بعدها.

- **بلى** لها مواضع لا يجوز الوقف عليها، لتعلق ما بعدها بها وبما قبلها.

- **بلى** وقع الخلاف في جواز الوقف عليها، والأحسن المنع.

وأما في الشواهد الشعرية، ومن خلال المدونة المعتمدة، وجدنا ذكر (**بلى**) قليلاً جداً جداً، سواء وهي في دلالتها اللغوية الموجبة للنفي، أو هي خارجة إلى معانٍ أخرى، وتأمل معي هذه المدونة:

- بلى سوف نبكيهم بكل مهتدٍ ونبكي عُميراً بالرّماح الخواطر. الأخطل.
 - ألا زعمت أسماء أن لا أحبها فقلت: بلى لولا ينازعني شغلي. أبو ذؤيب الهذلي.
 - إذا متُ كان الناس نصفان: شامت وآخر مثنٍ بالسذي كنت أصنع
 - بلى سوف تبكييني خصوم ومجلس وشعثُ أهينوا حضرة الدار جوعاً (25). العجيري السلوي.
 - شهدتُ بأنّي لم تُغَيِّرْ مودَّتِي وإنّي بكم حتى الممات ضنين
 - وأنّ فؤادي لا يلين إلى هوى سواك وإن قالوا: بلى سيلين. جميل بثينة.
- ونخلص بأنّ ورود (**بلى**) محتشم في الشعر القديم، وهي في صورة

25 - محمد يوسف أبي سعيد السيرافي، شرح أبيات سيبويه، تحقيق وتقديم: محمد علي السلطاني. دمشق: 1979، دار المأمون للتراث، ج 2، ص 155.

الاستفهام الإنكاري، ويعني هذا أن العرب لم تألف نظم كلامها على هذا المنوال، وإلا فلا يعقل أن يأتي هذا العدد القليل من الشواهد. وأما ورود (بلى) بعد أليس / ألم اللتين تفيدان الاستفهام الإنكاري، فإننا لم نجد شاهداً يحمل (بلى) جواباً عن استفهام إنكاري، وهذه هي الشواهد التي وجدتها في المصدرين * :

- ألسنا أحقّ الناس يسوم تقاسوا إلى المجد والمستأثرات الجسائم.
- ألم ترياني لكما جئت طارقاً وجدت بها طيباً وإن لم تطيب.. امرؤ القيس.
- ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك حولها يتذبذب
- فإنك شمس والملك كواكب إذا طلعت لم يبد منهم كوكب. النابغة الذبياني.
- ألم تعلمي أنني رزئت محارباً فمالك منه اليوم شيء ولا ليا. النابغة الجعدي.
- ألم أكن جاركم ويكسون بيني وبينكم المودة والإخاء. الخطيئة.
- ألم تر أن الله أهلك تبعا وأهلك لقمان بن عاد وعادينا زهير بن أبي سلمى
- ألم تغتمض عيناك ليلة أرمدا وبت كما بات السليم مسهدا. الأعشى ميمون.
- أليس أميري في الأمور باتما بما لستما أهل الخيانة والقدر.
- ألسم تر أن كليب بنى كليب أراد حياض دجلة ثم هابا. جرير.
- أليست أحسن من يمشي على قدم يا أملح الناس لكل الناس إنسانا. جرير.
- أليست خير من ركيب المطايا وأندى العالمين بطون راح. جرير.
- أليس بضمير العين أن يكشر البكا ويمنع منها نومها وسرورها
- لكل لقاء تلقية بشاشة وإن كان حولاً كل يوم نزوها. توبة بن الحمير.

* أقصد المصدرين المعتمدين مدونة لهذا العمل.

- ألم تر ربع فتخبرك الرسومُ
على فرساج والعهد القديم
- تحمل أهله وجسرت عليه
رياح الصيف والسَّبط المديم. البرج بن مسهر.
- ألم تر أنني وتسرّت قوسي
أبقع من كلاب بني تميم
- عسوى فرميته بسهام موت
كذلك تردّد الحمق اللثيم
- وكنت إذا غمزت قناة قوم
كسرّت كعوبها أو تستقيم (26).
- ألم تسمعي أي عبد في روق الضحى
بكاء حمامات لهن هدير
- بكين فهيجن اشتياقي ولوعتي
وقد مرّ من عهد اللقاء دهور. كثير عزة.
- أليس أبي بالنضر أم ليس والذي
لكل نجيب من خزاعة أزهر.
- أليس يأتك والأنباء تنمى
بما لاقت لبون بني زياد
- ومحبتها على القرشي تُسرى
بأدراع وأسياف حديد
- كما لاقت من حمل بن بدر
وأخوته على ذات الإضاد. قيس بن زهير العبّاسي.
- ألم تسأل الربع القواء فينطق
وهل تُخبرك اليوم ببيداء سملق
- ألم تر بالجزع من ملكات
وكم بالصعيد من هجان مؤبلة
- ولم أر مثلاً خباسة واحدٍ
ونهنهت نفسي بعد ما كدت أحفله. عامر بن جوين الطائي
- ألم أفنكم قتلاً وأجدع أنوفكم
بفتيان قيس والأنوف الصوارم. الحجاج بن حكيم السلمي.
- ويروى هذا البيت بصورة أخرى، وهي:

- أليس أبي بالصلّت أم ليس إخوتي
لكل هجان من بني النضر أزهر.
- أليس الله يعلم أن قلبسي
يحبك أيها البرق اليماني. جعدر بن مالك.

26 - البيت لزياد الأعجم بهجو المغيرة بن حنّاء. ورد في: شواهد المغني للسيوطي، تصحيح وتعليق: الشيخ محمد محمود ابن التلاميذ التركي الشنقيطي. بيروت: دت، منشورات دار مكتبة الحياة، ج 1، ص 205.

- أَلَمْ تَرَ أَنِّي بَعْدَ عَمْرٍو وَمَالِكٍ وعروة وابن الهول لستُ بخالدٍ . حريثُ بن مخفض .
- أَلَمْ تَعْلَمِي أَمْ قَدْ تَفَرَّقَ قَبْلَنَا خليلاً صفاء: ممالك وعقيلُ . أبو خراش .
- أَلَمْ تَعْلَمِي يَا مَيَّ أَنِّي وَبَيْنَنَا مهنا ولطرف العيسن فيهن مطرحُ
- ذَكَرْتُكَ أَنْ مَرَّتْ بِنَا أَمْ شَادَن أمام المطايا تشرَّب وتسنحُ . ذو الرمة .
- أَلَمْ تَرْنِي مِنْ حَبِّ آلِ مُحَمَّدٍ أرواح وأغدوا خائفاً أترقبُ
- فَطَائِفَةٌ أَكْفَرْتَنِي بِحَبِّهِمْ وطائفة قالت: مسيء ومذنبُ . الكميت .
- أَلَمْ يَكُ حَقًّا أَنْ يَنْلُ عَاشِقُ تكلف إدلاج السرى والسودائق .
- أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنِّي تُخَافُ عَزَائِمِي وأن قناتي لا تلين على القسر . ابن الذبابة الثقفي .
- أَلَمْ تَرَ أَنَّنِي يَوْمَ جَوْ سَوِيقَةٍ بكيت فنادتني هنيئدة مسالماً . الفرزدق .
- أَلَسْتُ نَزْوَةً خَوَّارٍ عَلَى أَمَةٍ لا يسبق الحلبات اللؤم والخور . عمر بن لجأ .
- أَلَمْ تَعْلَمِي يَا عَمْرُكَ اللَّهُ أَتُنِّي كريم على حين الكرام قليل . موبال بن جهم المدحجي
- أَلَسْتُ حَقِيقِيًّا بِتَوَدِّيْعِهِ وأتباع ذلك صرماً طويلاً؟ أبو الأسود الدؤلي .
- أَلَمْ تَرْنِي بَعْتُ الضَّلَالَةَ بِالْهَدَى وأصبحتُ في جيش ابن غطفان غازياً . مالك بن الربيع
- أَلَمْ يَشْفِكَ أَنْ نَوْمِي مُسْهَدٌ وشوقي إلى ما يعتريني وتسهالي . يزيد بن الحكم
- بِمُخْتَلَفِ الْأَرْوَاحِ بَيْنَ سَوِيقَةٍ وأحذب كادت بعد عهدك تُخلق . جميل بثينة .

وما يمكن استخلاصه من كل هذا:

أولاً: إنَّ ورود أسلوب الاستفهام بصيغة الحروف كثير، وبصيغة الأسماء قليل ..

ثانياً: لكل حرف من حرفي الاستفهام مواقع يختص بها، ومع ذلك ف (الهمزة) أعم من (هل) .

ثالثاً: بالنسبة لحرف الجواب **(بلى)** ورد بكثرة في القرآن الكريم، كما ورد في الحديث النبوي أكثر بكثير من القرآن الكريم، ولم ترد بذات الكثرة في الشواهد الشعرية.

رابعاً: جواب الاستفهام الإنكاري يأتي بـ **(بلى)** بالإيجاب، وبـ (نعم) للنفي.

خامساً: تأتي **بلى** جواباً لما قبلها، غير متعلقة بما بعدها، وأحياناً لا يجوز الوقف عليها لتعلق بها وبما قبلها وهناك خلاف في جواز الوقف، والأفضل منه المنع. أي أن أمر توظيف بلى فيه خصوصيات يراعيها السياق الكلامي الذي يفيد، فليس كل سياق يفيد الاستفهام الإنكاري.

سادساً: تستعمل في اللغة اليومية، عند العامة، وأحياناً عند الخاصة في الجواب عن **(هل)** التعيين، بدل التصور، كما توظف **(نعم)** وتؤدي مقام **(بلى)**. وبما أن اللغة وضع واستعمال، فإن الاستعمال يريد في هذا الموضع قلب الموازين، ولا يفرق بالدقة بكل ضبط بين كل أداة من هذه الأدوات. وهنا تطرح علينا قضية طريفة: هي هل يمكن جعل **(هل)** تفيد التعيين والتصور مثل **(الهمزة)** كما أن **(بلى)** لاحظناها في اللغة المعاصرة لا تستعمل بذات الدقة التي وردت في التراث، أضف إلى قلة توظيفها، فماذا يقول المختصون إزاء توظيف جوابها، والعودة إلى الجواب المألوف: نعم / لا؛ أي هل يمكن أن تحل **(نعم)** محل **(بلى)** في الاستفهام الإنكاري في الأساليب المعاصرة؟

سابعاً: إن لغة الصحافة — على وجه الخصوص — تجسد التخليط

وعدم الدقة، وتقبل استعمال (نعم) في مقام (بلى) وذات الشيء نجد في التمثيليات التي تعمل الفضائيات العربية على إدخالها في لغة المواطن.

أطرح هذه المسألة على المختصين، وأعرف أن المسألة لها جانب من الحساسية، ولكن ألا يمكن القبول بالتعيين حالة السؤال بـ (هل) وجعله مثل (الهمزة) على اعتبار أن هذه الفروق لا يدركها إلى خاصة الخاصة. وكذلك ألا يمكن اعتبار (بلى) التي وردت في القرآن الكريم، والأحاديث النبوية الشريفة من الشواهد الصحيحة الدالة على المعنى الذي نصت عليه. وتدخل في الجانب التاريخي، وهذا ينطبق على الشواهد الشعرية وهي قليلة. وأما بالنسبة للغة العصر، هل يبيح المجمعون أن يجيب مجيب عن سؤال إنكاري بـ (نعم) بدل (بلى) ولا يعتبر ذلك خطأً، ويبقى النفي بأداة (لا) وهي لذلك الغرض الذي وضعت له.

أطرح ثانية هذه المسألة للمختصين للإفتاء اللغوي في ما نسمعه بقوة عند العامة، وهذا يخرج عن العرف اللغوي أو عن النمط المؤلف، ويبدو لي أن هذا شيئاً يطرأ على اللغات التي تعرف التطور في قضاياها الداخلية، فحق للغة العربية أن تقبل هذا التطور ما لم يمس النص الأصلي، ونجده في هذا المقام قد مُسَّ الأصل، فماذا يقول المختصون؟ هل يحق للغة أن تقبل التطور الحادث في كل اللغات، وهي لغة من اللغات وليست نكرة بينها، فالأحرى أن تقبل التطور بغية التحسين ومجارة لغة الاستعمال، وهذا كي لا تبقى الفجوة قائمة بين القوانين اللغوية واللغة

الوظيفية، أو بين المكتوب والمنطوق، وهنا تطرح مسألة وضع القوانين التي لا يجاريها الاستعمال، فهل نجبر المستعمل على اتباعها، ولو كره ذلك! علماً أن اللغات اجتماعية، لا تفرض من مختص، فالمستعمل (المجتمع) هو الذي يصطلح عليها، يضيف وينقص ويحدث التغيير الذي يراه. أم نبقى نخضع للنحاة الذين يفرضون: قل ولا تقل! دون مراعاة حركية اللغة، وتأكيذاً على هذا، فإنني أجريت عدة تجارب بسيطة على طلابي، فأسألهم متعمداً الخطأ: هل درستم البارحة المنهجية أو/ أم المصطلح؟ فيجيبون بالتعيين: المنهجية/ المصطلح. وأكرر الخطأ دون أن يعوا ذلك. وكثيراً ما يأتي منهم الخطأ دون وعي منهم بأنهم على خطأ، فيسألون: هل تحضر صباحاً أو/ أم مساءً؟

كما نلمس عدم استعمال **(بلى)** عند الخاصة، ولا يسمع الجواب عن الاستفهام الإنكاري إلا عند بعض أئمة المساجد؛ وهذا أثناء شرحهم للآيات الحاملة للاستفهام الإنكاري، إلا أن الإمام عندما يستعمل **(بلى)** يردفها بالشرح، فيقول: **(بلى)** بمعنى **(نعم)** أي يعود إلى توظيف **(نعم)** التي هي للنفي بدل الإيجاب، دون أن يدرك أن ذلك خطأ.

وتأكيذاً لهذا نرى أن اللغة العربية في واقعنا الحالي، وفي محيطنا الاجتماعي تعيش وضعاً متدنياً خطيراً ويتجلى هذا في استعمال العامية أو اللغات الأجنبية في القنوات، وفي معظم البرامج التي تعرض فيها، كما يتمثل هذا التدنّي في سوء لغة الكتب المدرسية، وفي الخلل في مناهج اللغة العربية، وفي عدم قدرة كثير من المدرّسين على إلقاء دروسهم

بالفصحى... فهنا كان لابدّ من البحث عن سبل الارتقاء بمستوى اللغة العربية في المجتمع، وبذلك يمكن الوصول للتفريق بين تلك المواطن الدقيقة التي يجاب بها عن التصوّر بـ (هل) وعن التصوّر والتعيين بـ (الهمزة) كما نفرّق بين متى نستعمل (بلى) ومتى نستعمل (نعم) ويجب أن نقرّ بأنّه عرض للعربية في الوقت المعاصر تطوّر كبير وخطير، حيث لم تعرف في تاريخها الطويل عصراً خطأ بماداتها: أصواتاً ومفردات وتراكيب نحو التطوّر خطوات واسعة مثل هذا العصر⁽²⁷⁾ فهذه المظاهر تستدعي البحث عن صيغ جديدة لقبول الفصحى المعاصرة، أو الفصحى المخفّفة كما يسميها البعض؛ لأنّه لا تستطيع قواعد النّحو أن توقف حركة اللغة، التي لم تسلم منها الأصوات ولا التراكيب ولا الدلالة، ومن هنا فإنّه ستطرح بعض الفجوات في قضايا ضيقة في ما تديره اللغة المعاصرة من عبارات أو أساليب قد تخدش الجانب النّحوي فنسمع من يقبل بهذا ما لم يمسّ الأصل، ونجد من يكفر بكلّ مساس يطرأ على اللغة العربية ولو من بعيد ولكن هناك صرخات كثيرة تقول: أنقذوا العربية من النّحويين، وينادون: إلى متى نبقي نردّد: هذا لم يقلّ به الأولون! وإلى متى نضع الطابوهات أمام الاجتهاد، وخاصة إذا وجد هناك ما له علاقة بالتراث وعلى وجه الخصوص ما اتّصل بالقرآن الكريم! يبدو لي أنّ المشكلة إذا عولجت علاجاً علمياً يمكن الخروج بنتيجة منطقية يقبلها المستعمل المعاصر وخاصة عندما نعلم أنّ هذه القضايا قليلة

27 - نعمة رحمة العزاوي، مظاهر التطوّر في اللغة العربية المعاصرة. بغداد: 1990، وزارة الثقافة والإعلام، ص 5.

جداً، فيمكن السيطرة عليها، ولكن ما كان يجب أن نضع مسألة القرآن عائقاً أمام قبول لغة العصر، على اعتبار أن ذلك يخلّ بالنظام اللغوي الذي أُرسي منذ عصر التقعيد. إن القرآن مقدس في قلوبنا وفي تعاملنا معه، ولكن يجب التفريق بين التقديس الأعمى، وبين حب التطور الذي يعمل على تثبيت التقديس العلمي والمعقول، علماً أن التطور لا يعمل على التحريف؛ والتطور المقصود هو الإضافة لما قاله السلف، ولا يعني الإلغاء. وهنا كان يجب التأكيد على مسألة إعمال العقل في النقل، والتفريق بين ما هو ثابت لا يقبل التعديل، وما هو متحول يقبل التعديل، شرط ألا يخلّ بالنظام اللغوي الذي ترفضه الجماعة اللغوية المستعملة لهذه اللغة.

إننا في أمس الحاجة إلى فعل حضاري لهذه اللغة التي يهجرها أبناؤها، وبحاجة إلى السماع للمستعمل المثالي الذي يريد لغة تعبر عن واقعه، عن مشاغله، عن يومياته، ألا يمكن للمجمعين البحث عن صيغة توافقية للغة مشتركة تُرقي من لغة الدهماء، وتُنزل من لغة التقعر إلى لغة وسطى، وتجمع بين الربط التاريخي ومعطيات العصر؟!

ذلكم انشغالي من أسلوب الاستفهام؛ ومن خلال حرف الاستفهام (هل) حيث لا تراعى في توظيفها الدقائق اللغوية التي تنصّ عليها كتب النحو في صيغة الجواب سواء بالتعيين أو التصديق (التصور) وتتداخل مع عمل حرف الاستفهام (الهمزة) وكذا من أداة الجواب (بلى) حيث تحلّ فيه العامة (نعم) محلّه بقوة، فأضحت القضية مسألة لغوية تحتاج إلى

فتوى لغوية معاصرة تأتي من مختصين. وإذا وقع تركيزي على أسلوب الاستفهام فيمكن أن نجد بعض الفجوات أو الأمور التي تحتاج في هذا الوقت إلى مراجعة، وهذا بغية التصحيح والنظر إلى وظيفة اللغة العربية، وطبيعة التطور الذي يوجد في آلياتها الداخلية. ومن هنا فإن الحديث في بعض الأصول لا يعني التطاول على شيوخنا، بل لنعلم أن اللغة ما وجدت لكي تبقى في نقطة واحدة، على اعتبار أن ذلك يقضي عليها، فلا ينميتها، ولا يعطي لها صفة معاشة أوضاع العصر، وكل هذا سيؤدي إلى توقيف مسار التقدم اللغوي (النحوي) ولا شك أن ذلك بدوره يؤدي إلى التحريف اللغوي، ونرجو أن نجد الفتوى اللغوية الواضحة والمعاصرة * لإزالة كل لبس.

* - أقصد بصيغة المعاصرة أن تكون هؤلاء أبحاث في علم الاجتماع اللغوي، للنظر في ما يسن من قوانين، وما يسمع على أفواه المستعلمين المتألمين لهذه اللغة، وبذلك يمكن أن تحصل فتوى لغوية معاصرة، ولا يعني هذا إلغاء القديم، أو التخلي عن القوانين النحوية، أو هجران اللغة العربية، بل البحث عن كيفية التعامل مع هذا التعاكس الذي نسمعه في أسلوب الاستفهام.

هل إتقان اللغة مرتبط بالابداع العلمي؟

رأي الرياضي لورنت لافورغ Lafforgue

د. أبو بكر خالد سعد الله

قسم الرياضيات

المدرسة العليا للأساتذة، القبة، الجزائر

عندما استضيف الشاب الفرنسي اللامع لورنت لافورغ Lafforgue في نهاية أغسطس من عام 2002 لإلقاء محاضرة رئيسية في المؤتمر الدولي للرياضيات⁽¹⁾ أمام الأربعة آلاف باحث القادمين من كل بقاع العالم - والذين غصت بهم قاعة الشعب الضخمة في العاصمة الصينية - لم يلق كلمته بالإنكليزية صوتا ونصا معروضا، خلافا لجميع المحاضرين. بل كان يعرض بالتوازي على الآلات العاكسة شفافات تحمل نص محاضراته باللغتين الفرنسية والصينية خلال مخاطبته الجمهور بالإنكليزية (بوصفها اللغة المفروضة على جميع المحاضرين).

والشاب لافورغ لم يكن كأي باحث في ذلك المهرجان

الرياضي الكبير الذي يقام مرة واحدة كل أربع سنوات، بل كان نجمه الساطع لأنه استضيف من باريس من أجل استلام أكبر جائزة تمنح في عالم الرياضيات، وهي ميدالية فيلدز (الجائزة المعادلة لجائزة نوبل)⁽²⁾. وما الذي جعل لافورغ يفوز بهذا الاستحقاق العظيم؟ لقد أثبت نظرية لا يتجاوز نصها ثلاثة سطور ... أما برهانها فجاء في سبع مائة صفحة قضى فيها سبع سنوات من عمره. وكانت النتيجة التي توصل إليها قد استعصت على زملائه عبر العالم منذ 1967.

من هو هذا الشاب المتألق؟

ولد لورنت لافورغ عام 1966 في باريس، ودرس بها وتخرج من كلية معلميها العريقة عام 1986. وانضم كباحث في الرياضيات للمركز القومي للبحث العلمي الفرنسي (CNRS) عام 1990. وتحصل على الدكتوراه من جامعة باريس الجنوبية (أورسي) عام 1994. وقد نال عام 1998 ميدالية من مركز البحث السالف الذكر، ثم جائزة كلاي Clay الأمريكية عام 2000، تلتها جائزة أخرى من أكاديمية العلوم الفرنسية عام 2001. كما أحرز على أكبر استحقاق (ميدالية فيلدز) وعمره لا يتجاوز 35 سنة. وفي عام 2004 صار عضوا في أكاديمية العلوم الفرنسية.

ورغم كل هذا التآلق خلال مرحلة الشباب لافورغ يقول «لا أعتبر نفسي موهوبا لحد كبير فسرعة تفكيري بطيئة ... ونجاحاتي مردّها، قبل كل شيء، إلى الوسط العائلي المناسب». ويضيف أن والديه كانا يطبقان قاعدة بسيطة، خلال تدرسه، تتمثل في أن «الأساتذة هم دائما على صواب». يشغل لافورغ الآن منصب أستاذ دائم (مدى الحياة) بمعهد الدراسات العليا العلمية الشهير ⁽³⁾ (IHES) الكائن بباريس، وهو منصب لا يفوز به إلا قلة من الأساتذة لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد (هم ثلاثة أساتذة الآن)، ولا يطلب منهم أي نشاط بعينه، لا تدريس، ولا حلقات بحث، ولا بحثا في حقل معين، وإنما توفر لهم هذه الهيئة كل الشروط اللازمة لبحثوا بكل حرية في مواضيعهم المختارة وليتحركوا كيفما أرادوا.

وليس مستبعدا أن ينشر كبار الرياضيين في العالم مائة بحث أو يزيد، سيما أن جميعهم يعملون بالتعاون مع بعضهم البعض، وينشرون بحوثا جلها مشتركة. بل هناك من نشر مئات البحوث ولم يسعفه الحظ في نيل هذه الجائزة. أما لافورغ فهو ليس كهؤلاء الباحثين، إذ أنه نشر بضعة بحوث لا أكثر ونال هذا الفوز الكبير.

وما يهمنا في موضوع لافورغ ليست مكانته العلمية في حد ذاتها، فهناك من بلغ مقامه العلمي في السابق أو زاد عنه قليلا أو كثيرا. والملاحظ أن كل من نال ميدالية فيلدز قد نشر كمّا وافرا من البحوث يساوي أضعاف ما نشره لافورغ ⁽⁴⁾، و ثم إنهم نشروها باللغة الأنكليزية، لغة

التواصل العلمي بدون منازع. أما لافورغ فحالته عكس ذلك حيث استثنته هذه القاعدة الطبيعية : عدد بحوثه هزيل جدا، والأكثر من ذلك أنه كتبها كلها باللغة الفرنسية دون غيرها ... وهي لغة لا تمثل لغة تواصل علمي.

ومن هذا الباب - باب اللغة، ورأيه فيها - جاء اهتمامنا بهذه الشخصية المتميزة. لقد ألقى لافورغ مؤخرا محاضرة بعنوان «الدراسات الكلاسيكية وحرية الفكر»⁽⁵⁾ عندما استضافته جمعية من الجمعيات المدافعة عن الفرنسية. نودّ في ما يلي تلخيص ما جاء فيها من أفكار لنرى كيف يربط هذا العالم اللغة والآداب بالرياضيات والعلم. وكيف يؤكد على دور اللغة في المجال العلمي. كما سنستعرض أفكار لافورغ في مجال اللغة والعلم من خلال البيان الذي أصدره مع أربعة علماء آخرين حول ضرورة الانشغال بنشر البحوث العلمية باللغة الفرنسية.

الدراسات الكلاسيكية وحرية الفكر

يقول لافورغ في بداية محاضراته : «إنني مسرور بوجه خاص لهذا اللقاء بين رياضي، أي مختص في العلوم، ولفيف من أساتذة في الآداب لأنني أعتقد أن مدرستنا الجمهورية - التي نحن جميعًا مدانون لها لما نحن فيه (من نعمة) - هي في خطر. وليس لنا بد، إذا ما أردنا إنقاذها وتصحيحها، سوى أن يشكل رجال الأدب والعلم جبهة مشتركة. إذ من الواضح في ذهني أن جميع التخصصات متأثرة تأثرا كبيرا بنقص

الاعتبار الذي تحظى به الدراسة والمعرفة من قبل مجتمعنا برمته، ومصابة بانخفاض عام في المستوى التحصيلي، ومصابة بتشوّه وزوال هيكلية المحتويات (التعليمية).»

ويعتقد لافورغ أنه مهما بلغت درجة مأساة وضعية تدريس الرياضيات والعلوم⁽⁶⁾ «فإن المأساة أعظم بالنسبة للآداب، وبوجه خاص الآداب الكلاسيكية، وبدرجة أكبر اللغة الفرنسية التي يعتبر تعلمها أكثر أهمية. أودّ أن أعبر لكم اليوم عن ردود فعل وتأمّلات رياضي بخصوص أهمية تعليم اللغة الفرنسية والآداب الكلاسيكية. كما أودّ التعبير عن المشاعر التي يتركها عندي التدمير الحالي لهذا التعليم ... ينبغي أن أقول منذ الآن بأن الأمر الذي هو اليوم في المحك ليس أقلّ شأنًا من الحرية المستقبلية للأجيال الصاعدة. فالأمر لا يتعلق بحرية سياسية ولا بحرية تعبير، بل يتعلق بحرية أعمق من كل تلك الحريات : إنها الحرية التي تخوّل للإنسان القدرة على التفكير بذاته. ذلك أنني أعتقد بأن عدم تلقين اللغة بشكل صحيح وعدم تغذية الفكر بالاحتكاك بكبار كتاب الماضي هي أسوأ من المصادرة : إنها تعني منع تكوين الفكر ذاته، وهي تعني رفض تزويد الأجيال الصاعدة بأدوات الحرية الفكرية وحرية العقل.

وقد عبّر المحاضر - بوصفه رياضيا - على حساسيته لمسألة اللغة موضحا أن الرياضيات تقوم على قواعد منطقية كما وضعها أرسطو، أي على شكل من أشكال القواعد اللغوية، ليست بالضبط تلك القواعد

التي تتحكم في النص الأدبي، بل هي قبل كل شيء قواعد وضع الجمل. والرياضيات، مهما بلغ تقدمها، تتمثل دائما في صياغة «جمل بسيطة وتافهة» توضع الواحدة منها تلو الأخرى، وهي جمل «ينبغي عليها احترام نفس القواعد الأولية. وبدون تلك القواعد، وبدون تلك الضوابط اللغوية ليست هناك رياضيات.»

تقوم الرياضيات على فن التحكم في قواعد المنطق والوصل بينها ببرونة، وتقوم أيضا على المهارة المكتسبة من الممارسة المتمثلة في تحويل أشكال الاستدلال. «وبدون هذه الحرية في صياغة الجمل صياغات متعددة ومختلفة من أجل الخضوع إلى متطلبات الاستدلال فليس هناك رياضيات اللهم إلا إذا تعلق الأمر بتمارين ابتدائية وتكرارية وسردية». وتعتمد الرياضيات كذلك على فن التركيب. فكل نص رياضي له نقطة انطلاق يواصل بعده مساره نحو هدف منشود بإتباع مسالك تتماشى مع ذلك الهدف ... وهي «مسالك يمكن أن تتباعد عن بعضها البعض لتلتقي بعد ذلك أو تتقاطع أو تتفرع قبل أن تؤول مجتمعة نحو هدفها. وبدون المقدرة على تنظيم الاستدلال وترجمته في نص ليقرأ من قبل آخرين «فليس هناك رياضيات بالمعنى المتداول لدى الرياضيين.»

وأخيرا فالرياضيات تتقدم عبر القرون بفضل النضج البطيء والمتواصل لمفاهيمها، أي «بفضل ألفاظ جديدة تمكن من التحكم في الكائنات». إذا لم يحمل كائن اسمًا فإنه يظل «خارج قبضة الإنسان، وغير مرئي، ويستحيل تمثله فكريا». وحتى يشرع الرياضيون في إدراكه

خلال بحثهم الطويل فإنهم يستخدمون الكناية والتعابير الغامضة ... «وقد يحدث أن تكون تلك الكناية معبرة عن مضمون مئات الصفحات من النصوص ... ذلك هو الثمن الذي ندفعه عندما نكون فاقدين للكلمات، ويكون العقل منغمسا في محاولة التفكير بدون كلمات». وخلافا لذلك، فعندما تجرى عدة تصفيات بطيئة - التي تأخذ أحيانا قرونا - وتبرز كلمات تسمح بإدراك ذوات الكائنات «يحدث أن بعض النتائج التي تطلبت في البداية كتبا كاملة لصياغتها وشرحها تصبح قادرين على تعبير عنها في بغض السطور بوضوح يعمي الأبصار ... لأن الفكر صار حرا بفضل الكلمات: كان مشلولا بسبب استحالة النطق وإذا به قد فكّت قيوده بفضل تقدم اللغة المتوفرة»

الكارثة اللغوية

إنها لكارثة عظيمة - حسب لافورغ - أن «نلاحظ بأن التنظيم الحالي للتربية (في فرنسا) يهمل القواعد اللغوية من الابتدائي إلى الثانوي، ولا يطلب حفظها، ويهمل بشكل تلقائي تعلم تصريف الأفعال، ولا يبالي بتعلم اللغة المكتوبة والتمارين الأساسية في الإنشاء والمقالة، ولا يعير اهتماما لتعلم المفردات والقواعد الإملائية. إنني أعتبر كل هذه التعليمات أساسية بوصفها تشكل قسما معتبرا من مكونات رجل الرياضيات أو رجل العلم. «لماذا؟» لأن تلقين المنطق ومرونة الاستدلال يتمان عبر اللغة الطبيعية». وأشار لافورغ في هذا السياق إلى أن أحد أساتذة

الرياضيات عبّر له مؤخرا عن دهشته من طلبة الدكتوراه الذين يشرف عليهم حيث لاحظ أنهم لا يحسنون التحكم في اللغة المكتوبة. ويعقب لافورغ على ذلك قائلا : «أنا متأكد بأن فكر هؤلاء الطلبة الذين سيصبحون عما قريب باحثين سيظل مختلا حتى بوصفهم رياضيين».

ثم ألحّ المحاضر على الفائدة الكبيرة التي يجنيها رجال العلم المستقبلين من جرّاء إتقان تعلم اللغة معتبرا أن حرية الفكر تبدأ بالقواعد اللغوية : «تحرير الفكر يبدأ بالتحكم في تصريف الأفعال التي تحفظ عن ظهر قلب، وتبدأ حرية التفكير بالتحكم في قواعد اللغة المكتوبة وفي المفردات، وبالتحكم الجيّد في القواعد الإملائية».

ويواصل لافورغ مخاطبا الحضور : «لعل بعضكم يجدني مبالغا في كلامي هذا بربط الحرية باحترام قواعد النحو. ورغم ذلك فأنا أؤكد وأوقع على ما أقول بسبب تجربة أخرى : بوصفي رياضيا فإني في احتكاك يومي مع باحثين منتشرين عبر العالم، ثقافتهم شتى وأنماط حياتهم الشخصية مختلفة، وقناعاتهم ومعتقداتهم تتعارض في عديد النقاط مع تلك التي أؤمن به ... غير أن وسط الرياضيات ليس وسطا تنازعا: إن كان الموضوع هو الرياضيات فلا بد أن هناك دوما إجماعا في الرأي لأن للرياضيات فضاء غال جدا بالنسبة للرياضيين يحترمون فيه جميعا نفس قواعد المنطق، ويخضع فيه كل ما يقال ويكتب لقوانين صارمة إلى حد كبير تنطبق على الجميع.

إن الاحترام الدقيق لتلك القوانين عبر العالم بأكمله هو الذي يسمح

بإنشاء فضاء مشترك. فهذه القوانين هي التي تتيح لكل باحث في الرياضيات التعبير بشكل واضح ومفهوم لدى الآخرين. «ولأن تلك القواعد تمتاز بالمتانة فإنها تفصل جزئيا النص عن صاحبه وتدخله في قائمة الممتلكات العمومية للرياضيين التي بالإمكان استخدامها في كل عمل جديد.»

هذه التجربة جعلت لافورغ يؤكد مرة أخرى على ضرورة قيام المدرسة بتلقين قواعد النحو بأنسب طريقة ممكنة للتلاميذ، وكذا كل قواعد اللغة الفرنسية كما تكونت في العهد الكلاسيكي، وذلك «حتى نخلق عالما مشتركا تطبعه الحضارة وتتوفر فيه إمكانية التخاطب والتفكير في دقائق الأمور وتبادل الأفكار». ويعتقد المحاضر أن الشرط الأساسي لتحقيق هذا الهدف هو وجود لغة مشتركة تخضع للقواعد التي «تم تصورها في العهد الفرنسي الكلاسيكي». ثم يضيف: «ونحن في فرنسا لا نملك لغة أخرى متاحة لهذا الغرض سوى اللغة الفرنسية الكلاسيكية.» يذكرنا هذا القول بأولئك الذين يطالبون بالاستغناء عن العربية الفصحى في البلاد العربية واستبدالها باللهجات المحلية، وهو اتجاه صار شائعا في الكثير من وسائل الإعلام المسموعة والمرئية.

ويستعرض لافورغ في محاضراته حجة أخرى في دفاعه عن اللغة الفرنسية الكلاسيكية: «نحن في الرياضيات نمتاز بكوننا لا نعترف بأية قطعة أو ثورة قلبت حقائق متفقا عليها وجعلت حقائق جديدة تحل محلها لأن الرياضيات ليست لها نتيجة تعتبر نقطة نهاية، بمعنى أنه

بالإمكان تعميق كل قضية على مرّ الأيام وبدون انقطاع. وفي نفس الوقت إذا تمّ البرهان على نتيجة فسيظل ذلك البرهان قائما إلى الأبد لأننا لا نعترف بفكرة إعادة النظر في البراهين.»

الجمال والحقيقة ... واللغة والرياضيات

وتحدث لافورغ في محاضراته عن الجمال وربطه باللغة والحقيقة : «إن الجمال والحقيقة هما الكلمتان الرئيسيتان لكل رياضي، وأعتقد أن ذلك يصدق على كل رجل علم». يؤمن الرياضي بأن الحقيقة موجودة بشكل مستقل عن شخصه وعن الجميع، وهو يعتقد أن الحقيقة في انتظاره، وأن من مهامه البحث عنها. وهو يعلم أن الجمال هو أبرز ما يميّز الحقيقة، «وعندما يدرك الرياضي الحقيقة فجزاؤه هو أن يتأمل في جمالها». لكن ينبغي أن نعترف بأن «جمال الرياضيات والعلوم صعب الإدراك»، وأنه لا يمكن بلوغه إلا بعد سنين طويلة من الدراسة. ويلاحظ لافورغ في هذا السياق : «... في ما يخصني، من حسن حظي فقد نمت إحساسي الجمالي عندما كنت طفلا بفضل الآداب».

وهكذا فإن تدريس اللغات الكلاسيكية، مثل اليونانية والإغريقية، يؤدي دورا رئيسيا في تكوين العقل في نظر لافورغ، لأنه يمنح لصاحبه إمكانية الانتقال إلى حالة جمال أسمى. ثم إن جمال اللغة أسهل إدراكا من جمال الرياضيات والعلوم المعاصرة التي لا يدرك جمالها مبكرا. ذلك أن بلوغه يتطلب منا «تخصيص سنوات من العمل المضني

والمواصل والقيام بمجهودات تأتي ثمارها متأخرة». ويقول لافورغ إن :
«إننا نصل إلى إدراك جمال اللغات والآداب الكلاسيكية من خلال تعلم
أشياء بسيطة لا تستدعي مؤهلات كبيرة، مثل تصريف الأفعال وقوائم
المفردات ... وهي تعلمات ضرورية». ثم ينبّه : «وإني أعلم، كرياضي،
خطورة التباهي بالذكاء والترفع على مثل هذه التعلمات. والرياضي يمرّ
بهذه الوضعية الخطيرة مائة مرة في اليوم، وينبغي عليه في كل مرة رفضها
لمواصلة كتابة أشياء بسيطة الواحدة تلو الأخرى على أمل بلوغ مراده».

والواقع أن الميول إلى التباهي بالذكاء موجود في كل الاختصاصات
ويجب الحذر منه. وهنا يشير لافورغ إلى أن أفضل سبيل إلى ذلك هو
تعلم اللغات الكلاسيكية، ويشرح السبب بهذه العبارات : « ليست
هناك ضرورة للتباهي بالذكاء أمام اللغة والنصوص الأدبية. وهذا الكلام
ليس موجهاً ضد الذكاء، بل أقول إن الذكاء الحقيقي، المتمثل في تعبير
الفكر عن ذاته بحرية، هو نادر في حياة الإنسان، وليست له مناسبات
للبروز إلا لماماً عبر أعمال مملّة وبسيطة».

ويضيف المحاضر أن النصوص التي ينبغي الإطلاع عليها هي
«نصوص كبار الكتاب والأدباء وكبار الكلاسيكيين من أدبنا والأدب
العالمي. أعتقد أن الاحتكاك المواصل والعميق بالثقافة الذي تتيحه
المدرسة هو السلم الذي يؤدي بعقولنا إلى وسائل حرية الفكر». ويدرك
لافورغ بأن الحقيقة من الصعب بلوغها حتى لو كانت بسيطة ... فهناك
في ما تركه لنا الأسلاف حقائق عديدة تطلبت منا قروناً من أجل

الكشف عنها. «وإن احتقرنا الثقافة التي توصلنا إلى تلك الحقائق فحياتنا بكاملها لن تكفي لبلوغ تلك الحقائق».

التناقضات شرّاً لا بد منه

ويشير المحاضر إلى أن كلامه لا يعني بأن كل ما احتوته الثقافة ينسجم مع حاضرنّا، بل بالعكس ... وهذا شيء جميل لأن الثقافة تؤدي إلى «عدم الارتياح» (الشقاوة في لغة المتنبي) و«عدم الرضا على النفس وعلى العالم» وتؤدي إلى «تناقضات لا سبيل إلى إزالتها، وهي محلّ حرية الفكر والإبداع. إنها الوقاية من النرجسية المعاصرة القائلة». ثم يخاطب لافورغ الجمهور قائلاً: "ولعلكم تفاجأتم من كوني أمتدح التناقضات في الوقت الذي أقول فيه إن الرياضيات تتجاهل الانقسامات والنزاعات! والواقع أن الرياضيات المكتوبة كتابة شكلية للتواصل لا تعرف التناقضات وهي قدوة في الإبداع الذي لا يرفض أي شيء من الماضي". غير أن التناقضات موجودة في عقل الرياضي في شكل «صور ذهنية تقريبية تتصادم في معظم الأحيان ... وكلما تجلت تلك التناقضات ابتهج لها الرياضي لأنها تبين أن هناك ضرورة للتعمق، وتقدم الدليل على وجود فجوة تدعونا إلى استكشافها. وأنا هنا أتحدث عن الفجوات التي تظهر داخل المشهد الرياضي الذي يتوسع ويتهيكل باستمرار». وفي النهاية أشار لافورغ إلى ما يعتبرها أكبر هوة تعرفها الثقافة الغربية.

لنقرأ ما يقول : « ... تلك التي كانت المحرك للإبداع الخارق الذي عرفته ثقافتنا خلال قرون. أريد هنا الحديث عن شدة الترابط بين الموروث الفكري للثقافة الكلاسيكية التي ولدت في اليونان والموروث العقائدي الناجم عن التقليد اليهودي المسيحي ... إن الموروث الكلاسيكي والموروث التوراتي يشكلان فيما بينهما زوجا شبيها بالماء والنار ... وهنا أعتقد مرة أخرى أنه لا ينبغي رفض التناقض بل علينا تقبله ببطولة ومواصلة تعميق إدراك المسائل التي تطرح في القوس الواصل بين القطبين (قطب النار والماء) بدون هوادة ... ولهذا أتمنى أن يكون بالإمكان تعلم اللغة العبرية إلى جانب اللغتين اليونانية واللاتينية في إكمالياتنا وثنائياتنا. »

محفزي القوي ... اعتراف عالمي مع الكتابة بلغتي، اللغة الفرنسية

وقد نشر لافورغ في عدد شهر مارس 2005 من مجلة Pour la Science مقالا بعنوان «الفرنسية في خدمة العلوم»⁽⁷⁾ يدعو فيه زملاءه إلى الالتزام بنشر بحوثهم العلمية باللغة الفرنسية. وعلق عليه البعض آنذاك سلبيا لأن المنافسة وإطلاع الغير على أعمالهم يتطلب النشر بلغة التواصل العلمي حاليا، وهي ليست اللغة الفرنسية ... علما أن لافورغ تحدى هذا المنطق ونشر عددا قليلا جدًا من البحوث - كما أسلفنا - كلها نشر باللغة الفرنسية دون سواها.

ماذا يقول لافورغ في موضوع لغة النشر العلمي؟ يلاحظ في البداية أن الرياضيات هي تقريبا الاختصاص العلمي الوحيد الذي يواصل فيه بعض الباحثين نشر أعمالهم باللغة الفرنسية⁽⁸⁾. وقد تعود البعض على القول بأن مكانة المدرسة الرياضية الفرنسية في العالم⁽⁹⁾ هي التي حافظت على هذا التقليد. لكن لافورغ يؤكد العكس: «وأنا لي اعتقاد راسخ بأن العكس هو الصحيح: فالمدرسة الرياضية الفرنسية حافظت على أصالتها وقوتها لأنها ظلت مرتبطة باللغة الفرنسية. وضعف فرنسا في بعض التخصصات العلمية يمكن أن يكون راجعا للإهمال اللغوي». فهذا الموضوع يرتبط ارتباطا قويا بعوامل «نفسية وأخلاقية وروحية تمكن من بلوغ الإبداع العلمي أكثر من ارتباطه بالجانب العلمي المحض».

- **العامل النفسي** : إن اختيار اللغة الفرنسية في نشر البحوث يعني أن «المدرسة الفرنسية لا تعتبر نفسها كمية مهمة، وأن لها الوعي الكامل بأنها قادرة على تأدية دور يتميز عن دور القوم التابع. إن هذا الاختيار هو بمثابة الدليل على موقف مكافح، وهو عكس ذهنية وضع السلاح والاستسلام». ثم يشير لافورغ إلى أن لهذا الاختيار معنى آخر على مستوى الفرد : « بالنسبة لي، وخلال سنوات طويلة من العمل، فإن المحفز القوي - بعد حبّ حلّ مسألة صعبة وإرادة فك عقدها - كان يتمثل في رغبة الحصول على اعتراف عالمي مع الكتابة بلغتي، اللغة الفرنسية». وبطبيعة الحال فإن «الفكر المكافح لا يضمن النجاح، لكنه أمر

ضروري كيما يظهر على ذلك المثلث للصفتين القائل تبيان المعاملات الوحيية
 المتأشقة فيسبقها هي تلك التي لا تنفخ فيها «اللون» لونه يعني قيمة رأياً ...
 3- **العامل الاجتماعي** وعلاقته أكثر أهمية من العامل النفسي لذلك أنه
 «إحقيار الفلاسفة قبل الاختيار بالبقاء عن اللغة التي تهتم بالآني على
 العالم، يعني أننا نولي اهتماماً أكثر للبحث في حد ذاته بدلاً من اهتمام
 باستهلاكه». وبعبارة أخرى، فالكتابة بالفرنسية، بدل اللغة الأنكليزية (في
 رأي لا فورغ) تدل على **هنا الباحث الفوضوي** يكتب لمن أجل نفسه ومن
 أجل الحقيقة قبل أن يكتب لغيره من النصارى من قراءة مثلي يكتبها. بمعنى
 أنه «حلم الحقيقة لا يفيق» العزوراء وهذا لأن يتعلق بالأمور أفضل من التوصل لخلق
 الآخرين لأن العلم مغامرة مجتمعية متواصلة عبر القرون. غير أنه لا يند
 من القول إنه «رفض إعطاء أهمية قصوى للنشيد الفوري لنتائج البحث
 يعني أننا نأخذ موقفاً لغوي للبحث العلمي ليس بشيء قديماً بل بقتسه» فأنه
 4- **العامل الثقافي والوحي** إنه عامل صعب الإدراك على الرغم من
 أهميته العالية بالنسبة للجميع. فهو العامل الذي نجعلنا «نخضعوا كثيرًا
 لكسب الكثير» لأن الإبداع العلمي «متجذر في الثقافة بجميع أبعادها
 اللغوية والأدبية والفلسفية وحتى الدينية» فلذلك حافظ على الاختلاف
 اللغوي والثقافي الذي يتغذى منه العلم. كما أنيس قال «يستحيل أن نعلم
 كما يمكن سلاً» نعتقد في عالمنا الصناعي شأن العلم ضللاً أيضاً للصناعة وأن
 العلم ليس «أصل حوال مجرد» تقني بل يستبدل أجهزهم بالأخرى كقطع الغيار
 ويعلق لا فورغ على «هذه الوأي بالقول ذلك» الإنسان. كان هناك اعتقاد بأن

ومجموعة المواطنين الفرنسيين الذين يدفعون أجور هؤلاء الباحثين ويجهزون لهم فرقهم البحثية. كما لا يشجع بلدان الفرنكفونية على مواصلة استعمال الفرنسية»¹. هذا خبر مهم جداً، لأنه يوضح بيان لا فورغ وزملائه أنه قد صار مستحيلاً بلوغ عيون المعارف العلمية والتقنية الحديثة باستخدام الفرنسية، والوضع يزداد تدهوراً في هذا الاتجاه يوماً بعد يوم. وما يزيد الطين بلة هو تأثير الموضة في هذا المجال إذ صارت الكفاءة في اللغة الأنكليزية من وسائل التمييز الاجتماعي، ويضيفون: «عندما يقلص الباحثون الفرنسيون - بتشجيع من السلطات الوصية عليهم - استخدام اللغة الفرنسية فإنهم بذلك يقومون بعمل سياسي ليس من صلاحياتهم، وهو عمل براغماتي على المدى القصير»². لكنه ينبغي لبلدهم على المدى الطويل»³. هذا - فربما - هذا خبر مهم أيضاً، ثم يشير البيان إلى أن «التعبير العلمي باللغة الفرنسية ضروري للشبيبة (الفرنسية) كي تحافظ على تذوق العلوم وتضمن المستقبل»⁴. ذلك أن التربية أصبحت أفضل مورد لأي شعب من الشعوب، ومن ثم فإن استخدام الأنكليزية في البحث أمر لا مفر منه، لكن احتكار الأنكليزية لهذا الاستخدام في فرنسا يضر بالموقع الدولي لفرنسا، ويهزّ تلاحمها الاجتماعي ويضعف حيويتها الفكرية»⁵. فحينئذٍ ليس -

والواقع أن مثل هذه الأفكار والصيحات لا يحملها لورنت لا فورغ وحده في فرنسا لكن أمثاله، من العلميين، غالباً ما يكونون منهمكين في بحوثهم العلمية إلى حدّ يشلّهم هذا الجانب، وما لا شك فيه أن فرنسا

لغته الأم في النشر ثبت أن النفس الطويل والجدلية في بلوغ الهدف غالبا

1- يقام هذا المؤتمر مرة كل 4 سنوات تحت رعاية الاتحاد الدولي للرياضيات (I.M.S.) في بلد من البلدان المتقدمة، وتُمنح خلاله ميدالية فيلانس للمُتبحرين. وقد حضر المؤتمر 2002 في بكين حوالي 4500 باحث، وأُنتِج عليه نحو 4 ملايين دولار، دفعت الحكومة الصينية قسطاً وافراً من هذا المبلغ. وسبق المؤتمر الموالي في أغسطس 2006 بالعاصمة الإسبانية.

2- نشأة ميدالية فيلز : جون فيلز (1863-1932) Fields الرياضي كندي عمل أستاذا بجامعة تورنتو في كندا. رغب في تأسيس ميدالية فيلز تكريما له ولزملائه في مجال الرياضيات. بعد ذلك تم في سنة 1902 التأسيس للميدالية فيلز. وقد درس فيلز في أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر، وأصبح خلال إقامته الكندية ابتداء من 1902 حتى وفاته. وقد درس فيلز في أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر، وأصبح خلال إقامته بأوروبا بمتشاهير الرياضيين. ولم يكن فيلز من كبار الرياضيين، لكنه اشتهر في دنيا الرياضيات بفضل فكرته التي تنبأها المؤتمر الدولي للرياضيات عام 1932. وتمثل هذه الفكرة في منح ميدالية عالمية في الفروع الرياضية بعدل جائزة نوبل (التي لا تمنح للرياضيين). وقد قرر الرياضيون فيما بعد إطلاق اسم فيلز على هذه الميدالية. وكانت رغبة فيلز أن تمنح الميدالية وفق القواعد التالية:

1. تمنح الميدالية لمن قدم إسهاما معتبرا في أحد حقول الرياضيات.
2. تمنح مرة كل أربع سنوات.
3. يكون عدد الحاصلين عليها محصورا بين 2 و 4.
4. لا تمنح لمن تجاوز سنه أربعين سنة مهما كانت أعماله العلمية.
5. يعلن عن الحائزين وسلمتهم لهم الميدالية خلال اجتماع المؤتمر الدولي للرياضيات الذي ينظم مرة كل أربع سنوات.

وتجدر الإشارة إلى أن القيد الوارد في الشرط الرابع (عدم منح الجائزة لمن تجاوز أربعين سنة) قد أثار ضلطة العديد من الرياضيين، أبرزهم الرياضي الأمريكي ألبرت أينشتاين www.albert-einstein.net الذي برهن على نظرية النسبية عام 1905، والفيزيائي الهندي ساتيا بريجاس www.satyajitprigat.net الذي اكتشف في عام 1930 أن الإلكترونات تتصرف كجسيمات وموجات في آن واحد. كما أن الفيزيائي الهندي سوبهاش تشاندراسيكر www.schanderasheker.com الذي اكتشف في عام 1930 أن النجوم تتكون من غازات الكبريت والأكسجين، والبريطاني إدموند هابل www.edmundhubble.com الذي اكتشف في عام 1929 أن الكون يتوسع. كما أن الفيزيائي الهندي سوبهاش تشاندراسيكر www.schanderasheker.com الذي اكتشف في عام 1930 أن النجوم تتكون من غازات الكبريت والأكسجين، والبريطاني إدموند هابل www.edmundhubble.com الذي اكتشف في عام 1929 أن الكون يتوسع.

3 - نشأة معهد الدراسات العليا العلمية : التقى عميد جامعة السوربون في 27 يونيو 1958 في مكتبه بأستاذ شبه مجهول قدم لبشتكي من تزايد هجرة الأدمغة الفرنسية نحو الولايات المتحدة الأميركية. والمشتكي هو ليون موتشان (1900-1990) Motchane الذي ولد بالاتحاد السوفيتي ثم هاجر إلى سويسرا ودرس هناك الرياضيات والفيزياء. لقد اقترح هذا الرجل مع عدد من الشخصيات التي تمثل قطاع الصناعة إنشاء مؤسسة تعنى بالبحث الأساسي على غرار معهد الدراسات المتقدمة Institute for Advanced Study الأمريكي. ومعلوم أن هذه المؤسسة الأمريكية قد أنشئت عام 1929 بتمويل قدر آنذاك بـ 5 ملايين دولار. وتعتبر هذه المؤسسة قبلة كبار الرياضيين والفيزيائيين أمثال أينشتاين وكورت غودل (1906-1978) Gödel وهرمان ويل (1855-1955) Weyl وجون نومان (1903-1957) Neumann وصار بعد الحرب العالمية الثانية مركزاً فريداً في العالم يلتقي فيه كبار العلماء مع ألع الباحثين الشباب فتتلاقح الأفكار والتجارب وتزدهر.

وهكذا تقرر إنشاء مؤسسة من هذا القبيل سميت «معهد الدراسات العليا العلمية» Institut des Hautes Etudes Scientifiques (IHES) بباريس تعنى بالبحث الأساسي. وعين على رأسها موتشان الذي كان ينبغي عليه بادئ ذي بدء حل قضية التمويل... وهذا خلافاً للنظيره الأمريكي الذي تم تمويله منذ نشأة المؤسسة بملع معتبر. ومن المعلوم أن نسبة من ميزانية المعهد تأتي من وزارة الدفاع الفرنسية.

4 - نذكر على سبيل المثال أن جون بيير ليونس Lions وجون بورغان Bourgain الحاصلين على ميدالية فيلدز عام 1994 قد نشرّا على التوالي 336 بحثاً و 329 بحثاً. وأن جاك لويس ليونس (والد جون بيير) رئيس أكاديمية العلوم الفرنسية سابقاً نشر 567 بحثاً، ولم يسعفه الحظ في الفوز بهذه الميدالية. أما لورنت لافورغ فقد نشر 10 بحوث منها ثلاثة لا يتجاوز مجمل صفحات 12 صفحة.

5 - العنوان الأصلي للمحاضرة هو Les études classiques et la liberté de l'esprit. وقد نشرت في عدة مواقع على شبكة الإنترنت، منها موقع جامعة السوربون.

http://www.paris4.sorbonne.fr/documents/journaux/BREF_11/Discours-Lafforgue.html

6 - يرى لافورغ في مكان آخر، لن نتناول موضوعه في هذا المقال، أن تدهور تدريس الرياضيات في فرنسا بلغ مستوى خطيراً جداً.

7 - العنوان الأصلي للمقال هو : Le français, au service des sciences.

8 - هذا صحيح إلى درجة ما إذ أن المجالات غير الفرنسية لا تقبل عموماً البحوث المكتوبة بغير الأنكليزية. وفي فرنسا نجد مجلة أكاديمية العلوم ذاتها لا تلزم الباحثين بكتابة بحوثهم باللغة الفرنسية، بل تترك لهم الخيار وتلزمهم في حال كتابة بحث بالفرنسية أن يكون له ملخص بالأنكليزية.

9 - تشغل فرنسا المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة منذ سقوط الاتحاد السوفياتي حسب عديد التقديرات. ولعل ما يؤكد ذلك العدد الهائل من الفرنسيين الذين يحرزون على الجوائز العالمية في الرياضيات، ومنها ميدالية فيلدز.

10 - هناك خمسة موقعين على هذا البيان، منهم إثنان حائزان على جائزة نوبل في الطب والفيزياء، ولورنت لافورغ إضافة إلى أستاذين في الطب.

11 - يوجد نص البيان مثلاً في الموقع .

http://www.languefrancaise.net/news/index.php?id_news=270

وكذلك في <http://perso.wanadoo.fr/avenirlf/Lassociation/Presentation.htm> .

12 - Lecherbonnier, Bernard: Pourquoi veulent-ils tuer le français ? Albin Michel, Paris, 2005.

الكلمة الأولى

بما أنه المستند على حقيقة أن القرآن هو كلام الله تعالى، فإننا نرى في القرآن الكريم لغة عربية فصيحة، وهذا هو الموقف في اللغة العربية.

الموقف في اللغة العربية

- في القرآن الكريم والشعر العربي -

في القرآن الكريم والشعر العربي، فإننا نرى لغة عربية فصيحة، وهذا هو الموقف في اللغة العربية.

الأستاذة: مرتاض زسرير الهام

أستاذة مكلفة بالدروس بقسم اللغات الأجنبية

لقد أوقفنا آية قرآنية مرات عديدة لم تنقص جمالا عن باقي آيات القرآن الكريم ولكنها اختصت أساسا بالكلمة وكتابتها التي لا تنتهي إذا جف القلم وإن ملئ منه بحرا من المداد لقوله تعالى ﴿ قُلْ لَوْ كُنَّا الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلَمَاتُ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَادًا ﴾ (سورة الكهف، الآية 109). هو كتاب قدسي يفوق أسمى عبارات التعبير وتفتقر أغنى التراكيب أمامه وتخضع أقوى الأساليب له ولحسنه وتسبحه؛ فالقرآن بين لنفسه مبین لغيره بما حفز فطاحلة من العلماء في الفقه واللغة على دراسته والتمعن في أسرارهِ ومن بين أكثر ما شددوا على دراسته هو الموقف عند قراءة القرآن لصلته الوثيقة بالمعنى السامي الذي تهدف إليه الآية الكريمة؛ فجاء هذا البحث مناسبة نستطلع فيها بصورة وجيزة بعض قواعد الموقف في تلاوة القرآن الكريم وما ورد من أنواع له في بعض أقاويل وأشعار العرب.

فالقُرآن الكريم من أهم الخواصر التي ساعدت على إبداء اختصاصة لغوية وعلمية حتى وإن كان الترخيص فيها أكثر من قراءة أحسن الجوامل في تدبر العلماء في تراكيبه وأصواته ولهجاته وكان من ضمن عشرين كتابه «العنوانين الخفي» دارىف دراميتها حول القرآن والوقف والابتداء مثل: بحمزة وابن سعدان وهشام بن عبدة والبلاء أبو عبد الله الرحمن بن الزينى وابن الأنباري وابن المقسم وسيبويه وابن فارس وابن يعيش والسيوطي وابن الجزري الذي قال إن «أول من نبه على الواقعة في الوقف» الفاضل الخرائفي أخذ في منظاره في «الحروف» (السيوطي 1951: 87) رتفا

له أن يجمع هو لاء الفقهاء والعلماء في لوائهم في سبيل الحاج دراسة موضوعية نغمية لأن القرآن الكريم لا يوجد إلا وتضجبه غنة وهي خروج الصلوات فمن حيث المبدأ فيقول الله الصلوة والصلوة (ما أذن الله شيء لها كذا) النبي ريت غنى بالقرآن، وحرفى العلماء معنى الحديث بأنه ريتين كالقراءة، وتوقيع في وفي حله يشك صحيح «زينوا القرآن بأصواتكم»؛ فكل من ألمى بالحق المخلص أو الزجاجة والبدني والعماني السجواندي سوانج الأنباري خلافة صنفك رتفا العظيم في حله بالإمام جلال الدين السيوطي «فن جليل به يعرف كيف أداء القراءة» أما ابن الأنباري فيقول «من مقام معرفة القرآن معرفة الوقف والابتداء» وقد ثبت عن الإمام علي بكريم الله وجهه من حيث وجوب الوقف في عشر خم الآية الكريمة «هو رتل القرآن توتيلاً» (المزمل 4: الآية 4) قاله «التوتيل» تحويل الحروف ومعرفة كالوقف» (السيوطي 83) نسدا كاع له يخذ ناع له مندا كاع له مندا ناع

2 - تعريف الوقف

* لغة : وقف بالمكان وقوفا واقف . وقفت الدابة سكتت ، وقف عن

الكلام سكت .

* اصطلاحا : هو قطع الصوت بمقدار ما يتنفس فيه المقرئ عادة بنية

الاستئناف وليس الاعراض عن القراءة .

3 - أقسام الوقف

اتفق الأئمة أن للوقف أنواع ولكنهم اختلفوا في اصطلاحها

ف رأى ابن الجزري أن الوقف ثلاثة أقسام : تام وحسن وقبيح أما

الحسن فيحسن الوقف عليه ولا يحسن الابتداء بما بعده كقوله

الحمد لله لأن الابتداء برب العالمين لا يحسن لكونه صفة لما قبله

وأما التام فيحسن الوقف عليه والابتداء بما بعده : أولئك هم

المفلحون . وأخيرا القبيح ليس تام ولا حسن وهو بذلك لا يؤدي

المعنى كالوقف على بسم من بسم الله أو لا إله إلا الله : الوقف

على إله نفي للألوهية وهناك أحوال لا يتم فيها الوقف بل يتصف

بالقبيح وهي :

المضاف دون المضاف إليه والمنعوت دون نعتة والرافع دون مرفوعه

وعكسه والناصب دون منصوبه وعكسه والمؤكد دون توكيده والمعطوف

دون المعطوف عليه والابدال دون مبدله ولا أن وكان أو ظن وأخواتها

دون اسمها ولا اسمها دون خبرها ولا المستثنى منه دون الاستثناء إلا

الموصول دون صلته اسمياً أو حرفياً ولا الفعل دون مصدره ولا الحرف دون متعلقه ولا شرط دون جزائه.

أما غير الأنباري فصنفوا الوقف إلى أربعة أقسام: تام مختار وكاف جائز وحسن مفهوم وقبيح متروك؛ فالكاف الجائز هو المتقطع في اللفظ والمتعلق في المعنى (بعد لام كفي - يئس - نعم - شوف)، وهناك من تكلم عن الوقف اللازم كقوله «سبحانه أن يكون له ولد» وقف له ما في السماوات وما في الأرض» (الآية) في هذه الآية الوقف على ولد لازم وعلى له الثانية قبيح.

ولأئمة القراء مذاهب في الوقف والابتداء فراعى نافع تجانسهما بحسب المعنى وابن كثير وجمزة حيث ينقطع النفس وعاصم والكسائي حيث تم الكلام وأبو عمرو يتعمد رؤوس الآي وهو الأحب إليه كما يقول لأنه سنة فلقد روي عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه كان يقف كثيراً على رؤوس الآيات ليعلم السامعين آخر كل آية «روى أبو داود وغيره عن أم سلمة أن النبي ﷺ كان إذا قرأ قطع قراءته آية آية يقول بسم الله الرحمن الرحيم ثم يقف الحمد لله رب العالمين ثم يقف الرحمن الرحيم ثم يقف» (السيوطي: 87) ولهذا سمى بعض العلماء هذا النوع بالوقف التعليمي؛ وعموماً إن الوقف بأنواعه ضرورة من ضرورات إحكام القراءة في تلاوة القرآن تفادياً للموقع في الشرك أو التكفير وإن كان من غير قصد جهلاً بهذه المعايير المضبوطة من الأئمة والصحابة اقتداء بالرسول عليه الصلاة والسلام ولهذا قال ابن مجاهد «لا يقوم بالتمام في الوقف إلا نحوي عالم بالقراءات عالم بالتفسير والقصص وتخليص

العربي نتيجة ما الرمة الوقت فيقول العرب حتى يكثر هذا يكثر وفي أكثره في
 يكثر في العرب يتحرك ما قبله الخرج الحروف الكثر اهليلهم التقاء الساكنين
 والمثلث في القاعدة من وحروف المثلث كقولك لهذا زيدا وهذه غلونا لأن
 كل من الياء والواو حروف المد وكثره العرب الضم والكسر في الياء والواو
 فتصعق هذه الزيادة في غلونا (متحركة) وقرفوعة (ففيفة) فمما فيه فمما فيه
 فيقول الداني في التيسير في القراءات المتعلية أعلم أن من لحاظه القراءات
 أن يقرأ على ما هو الكلام المتحرك كات في الوصل بالسكون لا يخلو لأنه
 الأصل. ووردت الرواية عن الكوفيين وعن أبي غلرولس في العلامة أن الوقت
 على ذلك بالاشارة إلى الحركة... والاشارة تكون روما واشماما.

سفيهدتتأا - -

4-2 الروم متا شاك في نسخة سفيهدتتأا - -
 «ومعروا الضلالت الضلالت بالاطرك» أو (حلولها الحركة...) اختص ليهيا
 معظمها فيسلمح لها اختصا لا يدركه إلا الأعسلي وهو القلق (بعضها الحركة)
 وتجدل هذه الحالة في المرتفع أو المضموم أو المكسور ولا توجد في المفتوح طرفة
 الفتححة الأصل فإذ ذهب بعضها ذهبت بللثريه ولهذا يقول عسفيهدتتأا
 «الذين راموا الحركة بأنهم أرادوا تحريكها عن لجان الأليكان فتحمل نصيبه
 على الحركة الأصيل» (أهمشأ لحقة) مهاله رمة لموتت رمة رمة لسا ولقتا
 في رمة رمة له شاك رمة مهشأ رمة رمة

4-3 الاشمام ان لسنه رة لسنه رة ان تسيشت لسا
 «لما أخذ مصطلحات مختلفة فكانت الاشارة على أبو غلرولس وعند غيره هو

قبل التشديد لا لتقاء الساكنين وشدت باء أخصب للضرورة
(شيبويه: 168) نحو: أرلته به، فسد به، لها شاربية أظنة له، في (ق) محال

أبداً - ابتدأ - في معنى واحد، نعم في معناه، سبقت منه ما هو قريب من (ق) محال

أبداً - ابتدأ - في معنى واحد

4-5 الابدال

سمي ابدالاً لأنه يتم تغيير أو ابدال الحرف الموقوف عليه بحرف آخر
فمثلاً يوقف على الاسم المنصوب المنون بالألف بدلاً من التثوين. أما
الاسم المفرد المؤنث بالتاء فيوقف عليه بإبداله هاءاً مثل قولك حمزه
وفاطمه وكذلك الهمزة المتطرفة بعد حركة فلقد سهلها حمزة وهشام
بإبدالها حرف مد من جنس ما قبلها فإذا كان ما قبلها مضموماً أبدلت
واواً مثل لؤلؤا - كفوأ - نبيء - بدأ - يشاء فتصبح: لؤلؤا - كفوأ - نبيء - بدأ -

يشاء. أما في معنى واحد، نعم في معناه، سبقت منه ما هو قريب من (ق) محال

وتحدث شيبويه على ناس من بني أسعد لأنهم وجدوا الباء خفيفة
فأبدلوها بحرف مد من موضعها أي شبيه بها لكن أبين منها فكان أولى
وهو حرف الجيم فيقولون في قيمي - عرباني - علي ما يوافق قيمي - عرباني -
علي وقال أن من سمعهم حدثه يقولون هذا قال في معنى واحد، نعم في معناه، سبقت منه ما هو قريب من (ق) محال
خالتي عويص وأبو علي المصطفى الشحم بالعشج
بدأ بإبدال الغدة فلق البرنج (التمر). في اللغة العربية في معنى واحد، نعم في معناه، سبقت منه ما هو قريب من (ق) محال

كان في معنى واحد، نعم في معناه، سبقت منه ما هو قريب من (ق) محال

4-6 النقل

هو تحويل حركة الموقوف عليه إلى ما قبله ونجد هذه الحالة في كل اسم

آخره همزة بعين ساكنة، فعند حمزة الوقف عليها ينقل حركتها (حركة
الهمزة) إلى ما قبلها فيحرك بها ثم تحذف هي مثل: ينظر (الهمزة بين ياء
وزجه وذكر سيبويه أنه عندما كانت الهمزة بعد الحروف في الوقف حركوا
ما قبلها فكان أبين لها.

باب الهمزة ج - هـ

هذا باب في الهمزة في هذا الباب ما ينبغي أن يذكر هنا كالذي في باب
4-6 **الادغام** يقال له: نأمننا بـ معناه: أمسكنا أمسكاً رجله سقياً كشمه
من كل السليم آخره همزة بلا علة أو واو أو ياء فإثبات الوقف عليه عند حمزة
بلا علة غامض مثل: يروي عنه فتروا لتصبح يروي تنقروا عتاة تمهاا شالاج عملك
تسابقاً له همزة لهلبة له نال انك لهلبة له رستج نه منه سفي لهالندال
4 **باب الحذف** في هذا الباب: حشيتة - شيت - ألب - مريجة - القفحة - أمهاها - ليشه - أمه
يحدث في الياءات الزوائد وهي حسب حصر السيوطي لها فائقة

والجندى وعشرون (21) ياءاً منها يجمع بين وثلاثون في الياي، والباقي في
رؤسها لا يوجد من العلماء من أثبتها وأصلها ووقفاً كالبس كثير ويعقبها بألف
ابن الجوزي وعاصم في حفظه فوله في الخليلين من يهين في القوافي بتصبح بهلج
الواد ويقول سيبويه في حالة الجرن والضم أن العجب تحذف الياءة والواو
لأنهما محوفاً من ثقل من الألفاظ ويزيد الثقل إذا صلحتهما الكسرة
والضمة فقال في القاضي القاضى واعتزلوا وطلون الضمة بعد الواو أثقل
من الكسرة لأن الياء أخف من الواو فيقولون في فخذ فخذ ورسل ولا
يقولون جمل، وسألت الخليل عن القاضي في النداء فقال: هذا قاضي لأنه
أصل يمتون وألفا ليو من فقل يا قاضى ولهذا الجود لأنه ملا كان من كلامهم

الحذف في غير النداء كان في النداء أجدر لأن النداء موضع حذف
(يحذفون التنوين يا غلام أقبل!) وجميع ما لا يحذف في الكلام
يحذف في الفواصل والقوافي والفواصل كقول عز وجل والليل إذا يسر
(الفجر آية) وما كنا نبغ (الكهف آية) أما في القوافي فيقول زهير :

وأراك تقري ما خلقت وبغضُ القوم تخلق ثم لا يقرُ
وقد قرأ أبو عمرو في الوقف فيقول «ربي أهانن» (الفجر آية: 16)، وقال
الأعشى

فهل يمنعني أسيادي البلا د من حذر الموت أن يأتين
ومن شأنى كاسف وجهه إذا ما انتسبت له أنكرن

4-8 الاثبات

هو باختصار الابقاء على ما اتصل بالكلمة ونجده في الياءات المحذوفة
وصلا والمثبتة وقفًا، فرغم ثقل الواو والياء على العرب إلا أن منهم من
أثبتها فقالوا هذا زيدو وهذا عمرو وعمرى، وذكر السيوطي أن واقٍ وباقي
محذوفة وصلا ومثبة وقفًا واعتبر سيبويه اثبات الياءات والواوات أقيس
الكلامين.

4-9 اللاحق

فيما يلحق آخر الكلم من هاء السكت فهناك من الأئمة من يلحقها
في عم- فيم- يم- لم- مم- والنون المشددة من جمع الاناث هن- والنون

المفتوحة المفلحون والمشدّد المبني ألا تعلوا عليّ وخلقت بيديّ؛ وعندما كان هدف العرب في قواعدها التبيان والوضوح ألحقت الهاء بالأسماء التي انتهت بياء لا محل لها من الاعراب كقولك هذا غلامي - غلاميه من بعده وقالوا في الضميرين الغائبين هو وهيه.

ياء هي وواو هو لا تصرف للاعراب فكرهوا تسكينها وقد يتساءل بعضنا لماذا لم يلحقوا الهاء في أنا ضمير المتكلم، فيجيبنا سيبويه أن الألف استعملت في الوقف كما استعملت الهاء لأنها أقرب المخارج إلى الألف وهي شبيهة بها. وهناك من العرب من يلحق الهاء في حال الجزم عند الوقف فيصبح الفعل محرّكا لا مجزوما كقولك لم يغزه - لم يرّضه - إرْمِهْ. وقد اعتبر سيبويه الأسماء التي تنتهي بنون الاثنين أو الجمع خفية فتلحق بها الهاء فتستبين حركتها كقولك هُنَّ - مسلمونه - ضاربانه.

4-10 حالات أخرى

كما أن للوقف حالات أخرى مثل أن تقف على الهاء في قولك هذه جاريه وهذا طلحه (سلوم: 61) ولو أن قبيلة طيء وقفت بالتاء فتقول جاريت وطلحت وكما نعلم كرهت العرب التقاء الساكنين فلما سبقت الهاء ساكن عندما وقفوا على الهاء حركوا ما قبلها بحركتها كقول الشاعر
زياد الأعجم

عجبت والدهر كثير عجبه من عنزي سبني لم أضربه
وهناك الوقف على الهمزة أو المهموز كوقف الحجازيون بحذف الهمزة

في الخبا من الخبأ والرد من الردء ويقول سيبيويه أن تميم وأسد يلقيون على الساكن الذي سبق الهمزة حركتها فدلهم إيبين لها لأن الهمزة أبعد الحروف واخفاها في الوقف (فحركوا ما قبلها بحركتها) فقالوا هو الوُثُو من الوُثْي- الوُثَأ ولم يهمز في صلاته المقرئ عمرو كل همزة ساكنة إلا في حالات استثنائية مثل :

- إذا كان تركها أثقل من إثباتها مثل تؤيه

- في حالة الجزم تسوهم- إن نشأ

ووقف العرب على مرسوم الخط فذكر السيوطي اجماع الأئمة على لزوم اتباع رسم المصاحف العثمانية في الوقف ابدالاً واثباتاً وحذفاً ووصلاً وقطعاً وذكر مواضع لا ترسم فيها الألف والياء والواو: أيه المؤمنون - أيه الساحر، وهناك فئة من القراء تتبع الرسم في الجميع أما الداني فذكر أن الرواية أثبتت عن نافع وأبي عمرو والكوفيين أنهم كانوا يقفون على المرسوم ولا يوجد شيء يذكر من هذا القبيل عند ابن كثير وابن عامر.

5 خاتمة

إن كتابنا القرآن لهو مفجر العلوم ومنبعها ودائرة شمسها ومطلعها أودع فيه المولى عز وجل كل شيء أبان فيه كل هدي فإذا فتحت له معاهد الغرب أبوابها كانت أبواب معاهدنا من باب أولى وإذا اهتم الأجنبي بدراسته كان الطالب العربي بدراسته أجدر خاصة إذا صقلها بالدقة والعلم الصحيح.

الاحالات والمراجع

فرى الخلق : التقدير لتقدير الأمر ثم إمضاء وتنفيذ العزم عليه خلقت الأديم إذا قدرته لتقطعه، نلاحظ حذف الياء (يفرى وسكن الراء ولم يطلق القافية)

يقصد بعنزة بن أسد بن ربيعة.

1- الاتقان في علوم القرآن، جلال الدين عبد الرحمان السيوطي، وبهامشه إعجاز القرآن، القاضي أبي بكر الباقلاني، ج1، القاهرة 1951.

2- الأصوات العربية، إبراهيم أنيس، ط4، القاهرة 1971.

3- دراسة اللهجات العربية القديمة، د. داوود سلوم، ط1، عالم الكتب، بيروت 1986.

4- الكتاب، سيبويه، تحقيق عبد السلام محمد هارون، القاهرة 1966.

5- كتاب التيسير في القراءات السبع، الداني، اسطنبول 1930.

الخليل بن أحمد الفراهيدي منظرا نحويا وعنايته بالقراءات وتوجيهها النحوي

أ.د. التواتي بن التواتي

أستاذ النحو العربي وأصوله بجامعة الأغواط

محتويات البحث :

1 - الخليل بن أحمد مفكرا عبقريا . ونحويا منظرا

(أ) --مسائل نحوية خالف فيها سيبويه الخليل

(ب) -- مسائل نحوية للخليل بن أحمد

(ج) -- هل صنف كتابا في النحو

2 - الخليل بن أحمد والقراءات القرآنية

(أ) --موقفه من بعض القراءات :

(ب) -- أجوبته عن مسائل في القراءات :

(ج) -- تفسيره لبعض القراءات :

(د) --تفسيره اللغوي لبعض الآيات

ملخص البحث : يتناول هذا البحث الخليل بن أحمد الفراهيدي كعالم من علماء النحو الذين تركوا بصمات في سجل تاريخ النحو العربي ، وكمنظر ترك مفاهيم رائدة في علم اللسان العربي لا تقل أهمية عن اللسانيات الحديثة وما وصلت إليه من نظريات ، وإذا قيس التراث الخليلي بها نجد فإن الخليل كان سباقا لكثير منها ، رغم التقدم العلمي والتكنولوجي ، والوسائل المساعدة المتوفرة لدى الباحثين الآن في ميدان البحث في العلوم اللسانية والصوتية .

وقد جمع هذا البحث بعضا من هذه المفاهيم ، كما أثبت الباحث بعض المسائل النحوية كان له مع تلميذه النابه وفاقا واختلافا . ولم يهمل رأي الخليل في بعض القراءات وتوجيهها النحوي .

أولا : أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي الأزدي البصري نابغة العرب وسيد أهل الأدب ومخترع العروض ومبتكر المعجمات وصاحب الشكل العربي المستعمل الآن .

وهو من علماء الطبقة الثالثة من نحاة البصرة ولد ، ونشأ بها وأخذ النحو والقراءة والحديث عن أبي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، وسمع الفصيح وجمع الغريب حتى نبغ في اللغة نبوغا لا يعرفه التاريخ لغيره . وكان آية في الذكاء . وبقي بالبصرة مقيما طول حياته على فاقة وتقشف

نزوعاً بنفسه عن مواقف الضّراعة ، وتحافياً عن مطارح الهوان قيل : إنّ أحد الأمراء وهو سليمان بن عليّ وجّه إليه رسولا يلتمس منه الشّخص إليه لتعليم أبنائه فأخرج إليه الخليل خبزا ، وقال له : «كُلْ فما عندي غيره وما دمت أجدّه فلا حاجة لي إلى سليمان» . فأنشأ يقول : (1)

أبلغُ سليمان أنّي عنك في سعة * وفي غنى غير أنّي لستُ ذا مال
سَخَى بنفسي أنّي لا أرى أحدا * يموتُ هزلاً ولا يَبْقَى على حال

وهو أستاذ سيبويه وعامة الحكاية في كتابه عنه ؛ وكلما قال سيبويه «وسأله» أو «قال» من غير أن يذكر قائله فهو الخليل (2).

وانكب هذا العالم الجليل يستنبط ويؤلف ويعلم ، حتّى كان شهيد العلم وسبب وفاته مبنوثة في كتب السير والتراجم .

والخليل أول من ضبط اللّغة ، وابتكر فكرة المعاجم اللغوية بوضعه كتاب العين بطريقة فريدة لم يسبق إليها ولا أحد يستطيع أن يقول أنّه تأثر بالمنطق اليوناني ولا بغيره من الأمم الأخرى . فإنّ الطّريقة التي اعتمدها طريقة رياضية بحثة لا عهد لليونان بها .

قال أبو الحسن بن كيسان قال محمد بن يزيد : الشكل الذي في الكتب من عمل الخليل وهو مأخوذ من صور الحروف فالضمة واو صغيرة الصورة في أعلى الحرف لثلاثا تلتبس بالواو المكتوبة والكسرة ياء تحت الحرف والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف (3).

1 - معجم الأدباء ، ياقوت الحموي ، 160/11 . طبقات النحويين واللغويين ، ص : 20

2 - بغية الوعاة ، السيوطي ، 558/1

3 - المحكم في نقط المصاحف ، أبو عمرو عثمان الداني ، ص : 7

وقد اخترع نظرية في الرياضيات واستغلها في وضع منهج قويم لمعجم العين الشهير إذ بناء على تقليب كل الصيغ الأصلية ، بحيث تندرج فيه مع كل كلمة الكلمات الأخرى التي تجمع حروفها وتختلف في ترتيبها بتقديم بعض منها على بعض .

قال العلامة الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح : «فقد لاحظ كل معاصرنا أن الأفكار الأساسية التي بني عليها التحليل عند الخليل بن أحمد هي رياضية محضة . فهذا شيء لا يتفق مع ما يتصوره اللسانيون في وقتنا : فإن كان النحو العربي في زمن الخليل وسيبويه بدائيا بالنسبة للسانيات الحديثة فما هذا الاتجاه الرياضي الذي أجمع معاصرونا على الاعتراف بوجوده عند الخليل ؟ ثم لننظر إلى هذا الذي يقال أنه نزع رياضية ما هو ؟

وقال : لاحظ بعض الباحثين أن كتاب العين قد بني على فكرة استفراغ جميع التراكيب التي تحتلها الحروف الصوامت العربية غير المزيدة فيها: الثنائية والثلاثية منها وهذا كان يسمى عندهم بقسمة التراكيب (في الرياضيات الحديثة combinatoire)(4) .

وقال الخليل بهذا الصدد : «اعلم أن الكلمة الثنائية تتصرف على وجهين نحو : قد ، ودق . . والكلمة الثلاثية تتصرف على ستة أوجه وتسمى مسدوسة وهي نحو : ضرب ، صبر ، برض ، بضر رضب رضى

4 - أشار إليها العلامة عبد الرحمن الحاج صالح وأشاد بها في بحث ألقاه في ندوة نظمها المعهد العالي للحضارة

... والكلمة الرباعية تتصرف على 24 وجها ، وذلك أن حروفها وهي 4 أحرف تضرب في وجوه الثلاثي الصحيح وهي 6 أوجه فتصير 24 وجها يكتب مستعملها ويلغى مهملها. . . والكلمة الخماسية تتصرف على مائة وعشرين وجها وذلك أن حروفها وهي : أحرف تضرب في وجوه الرباعي وهي 24 فتصير 120 وجها يستعمل أقله ويلغى أكثره. (5)

وقال الأستاذ الكبير الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح : إن الخليل بن أحمد من أقام أسس الجبر التركيبي فقد وضع مفهوم ما يسمى الآن العاملي ورسم دائرة تمثل جميع احتمالات التركيب الثلاثي طردا وعكسا وهذا يسمى في الوقت الحاضر بالزمرة الدائرية . (cyclic group) (6)

ورأى أن يكون ترتيب الكلمات في المعجم على مخارج الحروف ومواقعها من الجهاز الصوتي وهو الخلق واللسان والفم والشفتان بادئا بحرف العين وبه سماء . على ضوء هذا العمل الخليل استطاع أن يقدم للدراسات اللغوية مادة صوتية غزيرة أفاد منها سيبويه ناقل علمه ، ورد الباحثون هذا العمل الخليل إلى ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : ذوق أصوات الحروف عن طريق فتح الفم بألف مهموز يليها الحرف المذاق ساكنا فيقال في الباء أب وفي التاء أت. الخ

5 - معجم العين ، الخليل بن أحمد ، 1/ 65-66

6 - بحث ألقاه في ندوة نظمها المعهد العالي للحضارة الإسلامية بوهرا (نوفمبر 98) وقد أختار عنه ذلك أثناء الطلب في جامعة الجائر فكان كثيرا ما يشير إلى الوجه الرياضي للخليل بن أحمد (انظر مستندات طلبة حلقة البحث سنة 1979)

وبذلك يتضح صوت الحرف بالوقوف عليه ساكنا والمكث عنده قليلا بخلاف لو وصل بحرف بعده فإننا حينئذ لا نتمكن من إشباع الصوت إذ نتهياً للنطق بصوت الحرف التالي له .

الجانب الثاني : وصف الأجراس الصوتية للحروف من همس وشدة ورخاوة واستعلاء واستفال على ما هو موجود في كتاب سيبويه ، فقد وقف عند أصوات الحركات وما يداخلها من إمالة ورؤم وإشمام . وقد أفاض النحاة والقراء في شرح هذه المسائل الثلاث بعد أن أنار لهم الخليل بن أحمد الطريق ووضح لهم المعالم وعبد لهم المسالك ليسير على هداية مقتضين وهذا بيانه :

(أ) - **الإمالة :** والإمالة ظاهرة لهجية صوتية قديمة من لهجات العرب المستحسنة ينسبها أهل اللغة والقراءة إلى بني تميم في حين ينسبون الفتح إلى أهل الحجاز ، قال سيبويه في باب ما تمال به الألف : «وجميع هذا لا يميله أهل الحجاز» .(7)

قال الرضي : وليست الإمالة لغة جميع العرب ، وأهل الحجاز لا يميلون ، وأشدّهم حرصاً عليها بنو تميم .(8)

الإمالة أن ينحى بالفتحة نحو الكسرة وسببها قصد المناسبة لكسرة أو ياء أو لكون الألف منقلبة عن مكسور أو ياء أو صائرة ياء مفتوحة أو للفواصل أو لإمالة قبلها على وجه .

7 - الكتاب ، سيبويه ، 1/ 118 ، 2/ 259

8 - شرح الكافية ، الرضي الاسترأبادي ، 2/ 4

فالكسرة قبل الألف نحو عماد وشملال ونحو درهمان سوغة خفاء
الهاء مع شذوذه و بعدها في نحو عالم و نحو من كلام قليل لعروضها
بخلاف من دار للرءاء و ليس مُقَدَّرُها الأصلي كملفوظها على الأفصح
كجاء و جواد بخلاف سكون الوقف .

ولا تؤثر الكسرة في المنقلبة عن واو ونحو من باب و ماله والكيّ شاذ ،
كما شذ العشا والمكأ وباب ومال والحجاج والناس لغير سبب وأما إمالة
الربا ومن دار فلأجل الرءاء⁽⁹⁾.

زعم سيبويه والخليل أن (حتى ، وإما ، وإلا) لا يجوز فيهن الإمالة : لا
يجوز إمالة (حَتَّى جَاءَتْهُمْ) ولا يجيزان إمالة (أَمَّا) ولا إمالة (لا إِلَهَ إِلَّا
الله) فهذا عندهما لحن كله .

وزعما (أي : الخليل وسيبويه) أن ألفات الفتح لأنها أواخر حروف
جاءت لمعنى ، ففصل بينها وبين أواخر الأسماء التي فيها الألف نحو :
حبلى وهدى إلا أن :

- 1- (حتى) كتبت بالياء لأنها على أربعة أحرف فأشبهت سكرى .
- 2- و(إمّا) التي للتخيير شبهت بـ(إن) التي ضمت إليها (ما) مثل
قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَإِنَّمَا أَنتَ تَتَخَذُ فِيهِمْ حُسْنًا﴾
(86)الكهف / كتبت الألف لما وصفنا .

3- و(الآ) أيضا كتبت بالألف لأنها لو كتبت بالياء لأشبهت إلى (10).

(ب)- أما الروم فهو عند النحاة : فهو أن يضم شفثيه في الرفع بعض الضم ويكسر في الجر بعض الكسر فيضعف الصوت بهما وهذا يدركه السمع ، ويسمى روما لأن الروم الإرادة فكأنه أراد الحركة التامة ولم يأت بها وبقي على إرادتها دليل (11) وقال ابن عقيل : والروم عبارة عن الإشارة إلى الحركة بصوت خفي (12).

أما عند القراء فهو عبارة عن النطق ببعض الحركة وقال بعضهم : تضعيف الصوت بالحركة حتى يذهب معظمها أي حركة مختلصة ضعيفة .

قال ابن الجزري : وكلا القولين واحد وهو عند النحاة عبارة عن النطق بالحركة بصوت خفي قال الجوهري في صحاحه : روم الحركة الذي ذكره سيبويه هو حركة مختلصة مخففة بضرب من التخفيف قال : وهي أكثر من الإشمام لأنها تسمع وهي بزنة الحركة وإن كانت مختلصة مثل همزة بين بين (13).

ويختص بالمرفوع والمجزوم والمضموم والمكسور بخلاف المفتوح لأن الفتحة خفيفة إذا خرج بعضها خرج سائرهما فلا تقبل التبعيض .
وأما الإشمام فهو عبارة عن الإشارة إلى الحركة من غير تصويت وقيل

10 - معاني القرآن وإعرابه ، الزجاج ، 335/2

11 - اللباب في علل البناء والإعراب ، 198/2

12 - شرح ابن عقيل ، 174/4

13 - النشر في القراءات العشر ، ابن الجزري ، 121/2

أن تجعل شفتيك على صورتها وكلاهما واحد ويختص بالضممة سواء كانت حركة إعراب أم بناء إذا كانت لازمة (14).

وقيل : الإشمام هو أن تذيق الحرف الضمة أو الكسرة بحيث لا تكاد تسمع ، وإنما ترى في حركة الشفة فهو أقل من الروم همسا .

قال الرضي : والروم في المتحرك وهو أن تأتي بالحركة خفية وهو في المفتوح قليل والإشمام في المضموم وهو أن تضم الشفتين بعد الإسكان والأكثر على أن لا روم ولا إشمام في هاء التانيث وميم الجمع والحركة العارضة وإبدال الألف في المنصوب المنون وفي (إذا) و في نحو (اضربن) بخلاف المرفوع والمجرور في الواو والياء على الأوضح .

وقال أيضا لم أر أحدا : لا من القراء ولا من النحاة ذكر أنه يجوز الروم والإشمام في أحد الثلاثة المذكورة ؛ بل كلهم منعهما فيها مطلقا ، وأرى أن الذي أوهم المصنف أنه يجوز الروم والإشمام فيها قول الشاطبي :

وَفِي هَاءِ تَأْنِيثٍ وَمِيمٍ الْجَمْعِ قُلْ * وَعَارِضُ شَكْلِ لَمْ يَكُونَا لِيَدْخُلَا
وَفِي الْهَاءِ لِلِإِضْمَارِ قَوْمٌ أَبَوُهُمَا * وَمِنْ قَبْلِهِ ضَمٌّ أَوْ الْكَسْرُ مَثَلَا
أَوْ أُمَاهُمَا وَأَوْ وَيَاءٌ وَبَعْضُهُمْ * يُرَى لَهُمَا فِي كُلِّ حَالٍ مُحَلَّلَا

فظن أنه أراد بقوله : (في كل حال) في هاء التانيث وميم الجمع

وعارض الشكل وهاء المذكر كما وهم بعض شراح كلامه أيضا وإنما عني الشاطبي في كل حال من أحوال هاء المذكر فقط. (15)

الجانب الثالث : ما يحدث للصوت في بنية الكلمة من تغير يفضي إلى القلب أو الحذف أو الإعلال أو الإبدال أو الإدغام .

استطاع سيبويه أن يستغل هذه الجوانب الثلاثة وخاصة الجانب الثاني ، وأن يصوغها صياغة دقيقة مما جعله يدخل على النقط أو الإعجام علامات للروم والإشمام والتشديد والهمزة المتصلة والمنقطعة واستنبط منها علامات الضبط التي نستعملها (أو ما يسمى حركات الإعراب) فالضمة واو صغيرة في أعلى الحرف لثلاث تلتبس بالواو المكتوبة والكسرة ياء متصلة تحت الحرف ، والفتحة ألف مبطوحة فوق الحرف. (16)

يقول الدكتور/زكي نجيب محمود عن هذا العبقري العظيم وإنجازه الضخم ففي حديثه عنه متعة تنبئ عن عظمة الخليل وشهادة من رجل له مكانته العلمية في العصر الحديث فيقول : « لأول مرة في التاريخ يجمع الخليل أشتات المفردات اللغوية بقدر ما مكنته الظروف ولأول مرة رتبها في معجم وليس قبله [معجم يحتذي] . ثم نزداد ذهولا لهذه القدرة الفائقة عندما نجد الرجل [يبتكر] طريقة فريدة من نوعها في عصره في ترتيب الألفاظ في معجمه فلقد وجد الخليل بين يديه طريقتين معروفتين في ترتيب أحرف الهجاء فهناك الطريقة التي تسمى بالأبجدية

15 - شرح الشافعية ، الرضي الاسترابادي ، 276/2-277

16 - المحكم في نقط المصاحف ، أبو عمرو الداني ، ص : 7

وهي التي ترتب الحروف على غرار ما ترد في هذه الكلمات : «أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت تخذ ضظغ».

وهناك طريقة أخرى التي ترتب على هذا النحو: «ا ب ت ث ج» وهي التي تسمى الألف بائية. فلم يأخذ لا بالطريقة الأولى ولا بالثانية ولعلّه لم يجد فيهما أساسا علميا ... و«ابتكر» الخليل لنفسه طريقة ثالثة تقام على أساس علمي لا مجال فيها لاختلاف النظر ، وذلك أنه رتب الحروف بحسب مخارجها عند النطق فأقصاها مخرجا يرد أولا في الترتيب وأدناها إلى الشفتين يرد آخر وما بين الأقصى والأدنى ترتب الحروف بحسب المخارج المتعاقبة . فكان أن وجد لها هذا الترتيب : «ع ح ه خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ب م و ا ي» .⁽¹⁷⁾

قال الخليل : في العربية تسعة وعشرون حرفا منها خمسة وعشرون حرفا صحاحا لها أحيانا ومدارج وأربعة أحرف جوف وهي : الواو والياء والألف اللينة .

والهمزة وسميت جوفاً لأنها تخرج من الجوف فلا تقع في مدرجة من مدارج اللسان ولا من مدارج الحلق ولا من مدرج اللهاة إنما هي هاوية في الهواء فلم يكن لها حيز تنسب إليه إلا الجوف . وكان يقول كثيرا : الألف اللينة والواو والياء هوائية أي أنها في الهواء.

وقال : فأقصى الحروف كلها العين ثم الحاء ولولا بحة في الحاء
 لأشبهت العين لقرب مخرجها من العين ثم الهاء ولولا هتة في الهاء .
 وقال مرة : ههة لأشبهت الحاء لقرب مخرج الهاء من الحاء فهذه
 ثلاثة أحرف في حيز واحد بعضها أرفع من بعض ثم الخاء والغين في حيز
 واحد كلهن حلقية ثم القاف والكاف لهويتان والكاف أرفع ثم الجيم
 والشين والضياء في حيز واحد ثم الصاد والسين والزاء في حيز واحد ثم
 الطاء والذال والتاء في حيز واحد ثم الظاء والذال والثاء في حيز واحد ثم
 الراء واللام والنون في حيز واحد ثم الفاء والباء والميم في حيز واحد ثم
 الألف والواو والياء في حيز واحد والهمزة في الهواء لم يكن لها حيز
 تنسب إليه .

وقال الخليل بن أحمد رضي الله عنه : الهاء والحاء لا تأتلفان في كلمة
 واحدة أصلية الحروف لقرب مخرجيهما في الحلق ولكنهما يجتمعان من
 كلمتين لكل واحدة منهما معنى على حدة كقول لبيد
 يتمارى في الذي قلت له * ولقد يسمع قولي حيهل (18)

وقال : فالعين والحاء والحاء والغين حلقية لأن مبدأها من الحلق
 والقاف والكاف لهويتان لأن مبدأهما من اللهاة والجيم والشين والضاد
 شجرية لأن مبدأها من شجر الفم أي مفرج الفم والصاد والسين والزاء
 أسلية لأن مبدأها من أسلة اللسان وهي مستدق طرف اللسان والطاء
 والتاء والذال نطعية لأن مبدأها من نطع الغار الأعلى والظاء والذال

الصَّفر فالعدد النَّاتِج هو حصر كامل لَصُورِ اللفظ العربي من حيث الإمكان النَّظري حتى ولو لم يتحوَّل هذا الإمكان النَّظري في بعض الحالات إلى واقع فعلي ، بمعنى ألاَّ نجد له لفظاً بما قد استعمله العرب بالفعل . . . وهنا قد نسأل :

وما جدوى الأقسام التي لا يقع فيها لفظ تماً ورد في استعمال العرب؟
الجواب: جدواه عند استخدام القياس المنطقي في صلاحية لفظه مستحدثة أو عدم صلاحيتها فيحكم كونها مستحدثة لأسباب حضارية طرأت على حياة العرب ، لا يكون لها سابقة ، وعندئذ نكون في حاجة إلى قاعدة نحتكم إليها ، هل تنساق المستحدثة مع اللسان العربي أو لا تنساق والاحتكام في هذا يكون للأبنية النظرية التي أسلفنا ذكرها وفي هذا وحده هداية كافية لنا ندرك معها المعنى المقصود حين يصف المؤرخون مدينة البصرة في تلك الفترة من التاريخ خصوصاً كلما أرادوا موازنة بينها وبين الكوفة. فيقولون إنها «عقلانية» المنحى تعتمد على «القياس» المنطقي في أحكامها... الخ (20)

والخليل بن أحمد وإن اشتهر وذاع صيته في تصحيح القياس ، وتعليل التحو واستنباط مسائله إلا أنه لم يترك مؤلفاً مشهوراً. (21)
ويظهر أنه وجه جهوده كلها إلى اللغة ، وأثره في التحو يتجلى فيما نقله عنه بكل أمانة تلميذه سيبويه في كتابه . وإن نسب إليه كتاب صغير الحجم «كتاب الجمل» ولنا وقفة عند هذا الكتاب .

20 - المعقول واللامعقول ، د/ زكي نجيب محمود ، ص: 88

21 - مكانة الخليل بن أحمد في النحو العربي ، د/ جعفر نليف عبانة ، ص: 28

يقول عنه السيوطي : «أخذ الخليل عن عيسى بن عمر ، فلم يكن قبله (أي الخليل) ولا بعده مثله ، وكان أعلم الناس وأتقاهم قال محمد بن سلام : سمعت مشايخنا يقولون : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ، ولا أجمع ، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا أجمع .

وقال أبو محمد التّوجي : اجتمعنا بمكة أدباء كل أفق ، فتذاكرنا أمر العلماء حتى جرى ذكر الخليل فلم يبق أحد إلا قال : الخليل أذكى العرب وهو مفتاح العلوم و [مصرفها] .

قال أبو الطيب اللّغوي : وأبدع الخليل بدائع لم يسبق إليها ؛ فمن ذلك [جمع] كلام العرب على الحروف في الكتاب المسمّى كتاب العين واختراعه العروض ، وأحدث أنواعا من الشعر ليست من أوزان العرب» . (22)

ويرى د/شوقي ضيف : أنّ الذي أقام صرح النّحو والتّصريف هو الخليل بن أحمد فيقول : «كان الخليل عقلا فذاً كلما مسّ شيئا نظمه واستنبط قوانينه ودقائقه وقد سلّط هذا العقل على قوانين العربية في النّحو والتّصريف ، فإذا به يكتشفها اكتشافا دقيقا . وحقا لم يترك فيها كتابا جامعا ... فإن تلميذه سيبويه سجّل في كتابه كثيرا من بحوثه النّحوية والصّرفية ...

ورغم أنّه سبق بخطوات مهمّة إلا أنّه هو الذي رفع قواعدها وأركانها

وشاد صرحهما وبناءهما الضخم ، بما رسم من مصطلحاتهما وضبط من قواعدهما ، وبما شغّب من فروعهما... تناول علمي النحو والصرف ساذجين من أسلافه ، ومازال بهما حتى استويا في صورتهم التي ثبتت على الزّمن. (23)

وصلتنا من الخليل أقوال كثيرة أودعها سيبويه كتابه الموسوم بالكتاب وكان أميناً في نقلها حتى قال بعضهم: إن الكتاب من صنع الخليل غير أن الأمر ليس كذلك البتة فإحقاق للحق نقول: فإذا كان للخليل دور في الكتاب فهناك حقوق أخرى لنحاة آخرين لا بد من مراعاتها ، ثمّ هناك المهارة العجيبة التي تتمتع بها سيبويه في استخراج المسائل من مداركها ، والغوص في فهم تراث الخليل ، وشرحه والإضافة عليه بما رزقه من بصيرة ناقبة وكان كثيراً ما يخالفه في كثير المسائل نذكر طرفاً منها للاستئناس والتدليل .

(أ) - مسائل نحوية خالف فيها سيبويه الخليل :

- 1 - مسألة التعريف بـ(أل) أيكون بالألف واللام أم باللام وحدها ، فالمشهور بين النحويين أن المعرف (أل) عند الخليل و(اللام) وحدها عند سيبويه . وأنها لما زيدت للتعريف ساكنة ادخلوا عليها الهمزة لثلاثي بتدئ بالساكن لأن الابتداء بالساكن محال. (24)

23 - المدارس النحوية ، د/ شوقي ضيف ، ص: 56

24 - أسرار العربية ، 301/1

وزعم ابن مالك أنه لا خلاف بين سيبويه والخليل في أن المعرف (أل) وقال : وإنما الخلاف بينهما في الهمزة أزائدة هي أم أصلية واستدل على ذلك بمواضع أوردتها من كلام سيبويه وتلخيص الكلام أن في المسألة ثلاث مذاهب :

أحدها : أن المعرف (أل) والألف أصل

الثاني : أن المعرف (أل) والألف زائدة

الثالث : أن المعرف (اللام) وحدها، والاحتجاج لهذه المذاهب كلها يستدعي تطويلا لا يليق بهذا البحث. (25)

وضعف الزجاجي قول الخليل مرجحا قول مخالفه فقال : والقول ما ذهب إليه العلماء ومذهب الخليل فيما ذكره ضعيف والدليل على صحة قول الجماعة وفساد قول الخليل هو أن اللام قد وجدت في غير هذا الموضع وحدها تدل على المعاني نحو لام الملك ولام القسم ولام الاستحقاق ولام الأمر وسائر اللامات التي عدناها في أول الكتاب ولم توجد ألف الوصل في شيء من كلام العرب تدل على معنى ولا وجدت ألف الوصل في شيء من كلام العرب تكون من أصل الكلمة في اسم ولا فعل ولا حرف فيكون هذا ملحقا به وكيف تكون ألف الوصل من أصل الكلمة وقد سميت وصلا ومع ذلك فإن الخليل نفسه قال : إنما سميت ألف الوصل بهذا الاسم لأنها وصلة للسان إلى النطق بالساکن .

وقال غيره : إنما سميت ألف الوصل لاتصال ما قبلها بما بعدها في وصل الكلام وسقوطها منه فقد بان لك مذهب الخليل واحتجاجه ومذهب العلماء واحتجاجهم. (26)

وقال ابن جنى : ومذهب الخليل إلى أن (ال) حرف التعريف بمنزلة قد في الأفعال وأن الهمزة واللام جميعا للتعريف وحكي عنه أنه كان يسميها (ال) كقولنا : (قد) وأنه لم يكن يقول : الألف واللام كما لا يقول في (قد) القاف والدال. ويقوي هذا المذهب قطع (ال) في أنصاف الأبيات نحو قول عبيد :

يا خليلي اربعا واستخبرا الـ منزل الدارس عن أهل الحلال
مثل سحق البرد عفى بعدك الـ قطر مغناه وتأويسب الشمال
وهذه قطعة لعبيد مشهورة عددها بضعة عشر بيتا يطرد جميعها على هذا القطع الذي تراه إلا بيتا واحدا من جملتها ولو كانت اللام وحدها حرف التعريف لما جاز فصلها من الكلمة التي عرفتها لا سيما واللام ساكنة والساكن لا ينوى به الانفصال ويقوي ذلك أيضا قول الآخر :

عجل لنا هذا وألحقنا بذا الـ الشحم إننا قد مللناه بجل
فإفراده (ال) وإعادته إياها في البيت الثاني يدل من مذهبهم على قوة اعتقادهم لقطعها فصار قطعهم (ال) وهم يريدون الاسم بعدها كقطع النابغة قد وهو يريد الفعل بعدها وذلك قوله :

أفد الترحل غير أن ركابنا لما تزل برحالنا وكأن قد

ألا ترى أن التقدير فيه وكأن قد زالت فقطع (قد) من الفعل كقطع
(ال) من الاسم وإذا كان (ال) عند الخليل حرفا واحدا فقد كان ينبغي
أن تكون همزته مقطوعة ثابتة ككاف (قد) وباء

(بل) إلا أنه لما كثر استعمالهم لهذا الحرف عرف موضعه فحذفت
همزته كما حذفوا لم يك ولا أدر ولم أبل .

ويؤكد هذا القول عندك أيضا أنهم قد أثبتوا هذه الهمزة بحيث تحذف
همزات الوصل البتة وذلك نحو قول الله عز وجل : (أَلله أَدْنُ لَكُمْ) وقوله
تعالى : أَلذكِرِينَ حَرَمَ أُمِّ الْأَنْثِيِّينَ ونحو قولهم في القسم أأَلله ، و : لاها
أَلله ذا⁽²⁷⁾ ولم نر همزة الوصل ثبتت في نحو هذا فهذا كله يؤكد أن همزة
(أل) ليست بهمزة وصل وأنها مع اللام بمنزلة قد وهل ونحوهما .⁽²⁸⁾

واختار ابن مالك مذهب الخليل وعلل اختياره بوجوه كثيرة فقال :
على أن الصحيح عندي قول الخليل لسلامته من وجوه كثيرة مخالفة
للأصل وموجبة لعدم النظائر .

أحدها : تقدير الزيادة فيما لا أهلية فيه للزيادة وهو الحرف .

الثاني : وضع كلمة مستحقة للتصدير على حرف ساكن ، ولا نظير
لذلك .

الثالث : افتتاح حرف بهمزة وصل ، ولا نظير لذلك .

الرابع : لزوم فتح همزة وصل بلا سبب ، ولا نظير لذلك .

27 - قال المحقق : ها عوض من واو القسم المحذوفة ، وذا هو الخلوفاً عليه عند الخليل ، وهو الخلوفاً به عند
الأخفش ، وهو من جملة القسم .

28 - سر صناعة الإعراب ، ابن جني ، 1/333-334

الخامس : أن المعهود الاستغناء عن همزة الوصل بالحركة المنقولة إلى الساكن نحو : (رَزيدا) والأصل : (إِرء) فنقلت حركة الهمزة إلى الراء واستغنى عن همزة الوصل ، ولم يفعل ذلك بلام التعريف المنقول إليه حركة إلا على شذوذ ، بل يبدأ بالهمزة على المشهور من قراءة ورش في مثل (الآخرة) وذلك في مثل (رَزيدا) لا يجوز أصلا ، فلو كانت همزة أداة التعريف وصل زائدة له لم يبدأ بها مع النقل كما يبدأ بها الفعل المذكور .

السادس : أنه لو كانت همزة أداة التعريف همزة وصل لم تقطع في (يا أَلله) ولا في قولهم : (ها أَلله لأفعلن) بالقطع تعويضا من حرف الجر لأن همزة الوصل لا تقطع إلا في الاضطراب ، وهذا الذي ذكرته قطع في الاختيار ، رجع به أصل متروك ، ولو لم يكن مراجعة أصل لكان قولهم (ها الله لأفعلن) أقرب إلى الإجحاف منه إلى التعويض ، إذ في ذلك جمع بين ما أصله أن يثبت ، وإثبات ما أصله أن يحذف فصح أن الهمزة المذكورة كهزمة : أم ، وأن ، وأو ، لكن التزم حذفها تخفيفا إذا لم يبدأ بها ولم تل همزة استفهام ، كما التزم أكثر العرب حذف عين المضارع والأمر من (رأى) ، وحذف فاء الأمر من (أخذ) و(أكل) وهمزة (أم) في ويلمه . (29)

وهو ما ذهب إليه ابن هشام فقال : (أل) أداة تعريف لا اللام وحدها

وفاقا للخليل وسيبويه وليست الهمزة زائدة خلافا لسيبويه . (30)

29 - شرح التسهيل ، ابن مالك ، 1/285-286

30 - أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك ، ابن هشام ، 1/179

وجملة القول في هذا الخلاف بين الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه وما دار بين النحاة من تأييد لهذا المذهب أو ذاك فإننا نجد ابن مالك قد أشار في ألفيته إلى القولين معا فقال :

أل حرف تعريف أو اللام فقط فنمط عرّفت قل فيه النمط

وكأنني به يجيز المذهبين لوجهتهما إذ بهما معا قرئ قال ابن الجزري :
إذا نقلت الهمزة إلى لام التعريف في نحو (الأرض ، الآخرة ، الآن ،
الايان ، الأولى ، الأبرار) وقصد الابتداء على مذهب الناقل فيما أن
يجعل حرف التعريف (أل) أو اللام فقط :

(أ) - فإن جعلت (أل) ابتداءً بهمزة الوصل وبعدها اللام المحركة بحركة
همزة القطع فتقول : (الرض ، الآخرة ، الايمان ، البرار ..).

(ب) - وإن جعلت اللام فقط فأما أن يعتد بالعارض وهو حركة اللام
بعد النقل أو لا يعتد بذلك ويعتبر الأصل ... (31)

2 - قوله تعالى : ﴿وَأُتُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ في موضع نصب عند سيبويه
وجر عند الخليل والتقدير : بأن اتقوا الله وأن على هذا مصدرية ويجوز أن
تكون بمعنى أي : لأن وصينا في معنى القول فيصح أن يفسر بأي :
التفسيرية. (32)

3 - مذهب الخليل في (لن) أن أصلها عنده (لا أن) وكثر استعمالها
فحذفت الهمزة تخفيفا فالتقت ألف (لا) ونون (أن) وهما ساكنتان

31 - النضر في القراءات العشر ، ابن الجزري ، 415/1

32 - التبيان في إعراب القرآن ، المعكري ، 197/1

فحذفت الألف من لا لسكونها وسكون النون بعدها فصارت لن
فخلطت اللام بالنون وصار لهما بالامتزاج والتركيب الذي وقع (33).

تعليق : واحتج الأولون بأن الأصل عدم التركيب وإنما يصار إليه
لدليل ظاهر ولا دليل على ذلك بل الدليل يدل على فساده وبيانه من
وجهين :

أحدهما : جواز تقدم معمول معمولها عليها كقولك زيدا لن
أضرب وأن لا يتقدم عليها ما في حيزها وبذلك احتج سيبويه على
الخليل وقد اعتذر عنه بأن التركيب غير الحكم كما غير المعنى وهذه
دعوى ألا ترى أن لولا لما تغيرت في المعنى للتركيب لم يتغير الحكم في
التقديم والتأخير .

والثاني : أن لا أن يتقدمها ما يتعلق بالمعنى ولن لا يلزم فيها ذلك (34).
وقد علل العلامة عبد الرحمن الحاج صالح كلا الرأيين وصوبهما (35).

شرح وتوضيح : ونوضح ذلك فنقول : لن حرف ناصب للأفعال وهو
نفي لقولك سيفعل وأصلها عند الخليل لا أن فكثير استعمالها فحذفت
الهمزة تخفيفا فالتقت ألف لا ونون أن وهما ساكنان فحذفت الألف من
لا لسكونها وسكون النون بعدها فخلطت اللام بالنون وصار لهما
بالامتزاج والتركيب الذي وقع فيهما حكم آخر يدل على ذلك قول

33 - سر صناعة الإعراب ، ابن جني ، 305/1

34 - اللباب في علل البناء والإعراب ، 33/2

35 - النظرية الخليلية الحديثة ، د/عبد الرحمن الحاج الصالح ، مجلة اللغة والأدب ، جامعة الجزائر ، العدد 10

رجب 1417هـ/ديسمبر 1996

العرب : زيدا لن أضرب فلو كان حكم لن المحذوفة الهمزة مبقى بعد حذفها وتركيب النون مع لام لا قبلها كما كان قبل الحذف والتركيب لما جاز لزيد أن يتقدم على أن لأنه كان يكون في التقدير من صلة أن المحذوفة الهمزة من صلتها لما جاز تقدمه عليها على وجه فهذا يدل أن الشيتين إذا خلطا حدث لهما حكم ومعنى لم يكن لهما قبل أن يمتزجا ألا ترى أن لولا مركبة من لو ولا ومعنى لو امتناع الشيء لامتناع غيره ومعنى لا النفي والنهي فلما ركبا معا حدث معنى آخر وهو امتناع الشيء لوقوع غيره فهذا في أن بمنزلة قولنا كأن ومصحح له ومؤنس به ورد سيبويه ما ألزمه الخليل من أنه لو كان الأصل لا أن لما جاز زيدا لن أضرب لامتناع جواز تقدم الصلة على الموصول وحجاج الخليل في هذا ما قدمنا ذكره لأن الحرفين حدث لهما بالتركيب نحو لم يكن لهما مع الانفراد الجوهري لن حرف لنفي الاستقبال وتنصب به تقول لن يقوم زيد التهذيب.

قال النحويون : لن تنصب المستقبل واختلفوا في علة نصبه إياه فقال أبو إسحق النحوي : روي عن الخليل فيه قولان : أحدهما أنها نصبت كما نصبت أن وليس ما بعدها بصلة لها لأن لن تفعل نفي سيفعل فيقدم ما بعدها عليها نحو قولك زيدا لن أضرب كما تقول زيدا لم أضرب وروى سيبويه عن بعض أصحاب الخليل أنه قال : الأصل في لن لا أن ولكن الحذف وقع استخفافا وزعم سيبويه أن هذا ليس بجيد ولو كان كذلك لم يجز زيدا لن أضرب وهذا جائز على مذهب سيبويه وجميع النحويين البصريين .

وحكى هشام عن الكسائي في لن مثل هذا القول الشاذ عن الخليل ولم يأخذ به سيبويه ولا أصحابه.

وقال الليث : زعم الخليل في لن أنه لا أن فوصلت لكثرتها في الكلام ألا ترى أنها تشبه في المعنى لا ولكنها تؤكد تقول : لن يكرمك زيد معناه كأنه كان يطمع في إكرامه فنفيت ذلك ووكدت النفي بلن فكانت أوجب من لا .

وقال الفراء : الأصل في لن ولم لا فأبدلوا من ألف لا نونا وجحدوا بها المستقبل من الأفعال ونصبوه بها وأبدلوا من ألف لا ميما وجحدوا بها المستقبل الذي تأويله المضى وجزموه بها. (36)

(ب) - مسائل نحوية للخليل بن أحمد :

1- مهما بمنزلة ما في الجزاء قال الله عز وجل ﴿مهما تأتينا به من آية لتسجرنا به﴾ أي ما تأتينا قال الخليل : هي ما على ما لغوا كما دخلت ما مع متى تقول : متى تأتني أنك ، ومتى ما تأتني أنك وكما أدخلت ما مع أي لغوا كقوله تعالى : ﴿أيا ما تدعوا﴾ فمعناه أيا تدعوا قال : ولكنهم استقبحوا أن يكرروا لفظا واحدا فيقولوا : ماما فأبدلوا الهاء من الألف التي في الأول وقال سيبويه : قد يجوز أن يكون مه فضم إليها ما. (37)

36 - ما ذكرته هنا بما حفظته من الأساتذة والمشايخ الذين أخذت عنهم هذا علم النحو.

37 - كتاب حروف المعاني ، 20/1

2- قال تعالى : ﴿ أَأَنْ لَّهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ البقرة /
أي بان لهم جنات وموضع أن وما عملت فيه النصب بـ(بشر) عند
سيبويه خلافا للخليل .

قال القرطبي : أن لهم في موضع نصب بـ(بشر) والمعنى : وبشر
الذين آمنوا بأن لهم أو لأن لهم فلما سقط الخافض عمل الفعل وقال
الكسائي وجماعة من البصريين أن في موضع خفض بإضمار الباء
جنات في موضع نصب أسم أن وأن وما عملت فيه في موضع المفعول
الثاني (38).

3- هلم وهو اسم انت وتعال قال الخليل : هي مركبة وأصلها عندها
للتنبيه ثم قال : لم أي لم بنا ثم كثر استعمالها فحذفت الألف تخفيفا
ولأن اللام بعدها وإن كانت متحركة فإنها في حكم السكون ألا ترى أن
الأصل وأقوى اللغتين وهي الحجازية أن تقول : فيها المم بنا فلما كانت
لام هلم في تقدير السكون حذف لها ألف ها كما تحذف لالتقاء
الساكنين فصارت هلم وقال الفراء : أصلها هل زجر وحث دخلت على
أم كأنها كانت هل أم أي اعجل واقصد .

وأنكر أبو علي الفارسي عليه ذلك وقال : لا مدخل هنا للاستفهام
وهذا عندي لا يلزم الفراء لأنه لم يدع أن هل هنا حرف استفهام وإنما
هي عنده زجر وحث وهي التي في قوله : ولقد يسمع قولي حيهل . قال
الفراء : فألزم الهمزة في أم التخفيف فقليل : هلم .

قال ابن منظور : هلم يا رجل بفتح الميم بمعنى تعال قال الخليل : أصله لَمْ في قولهم : لَمْ الله شعثه أي : جمعه كأنه أراد : لَمْ نفسك إلينا أي : أقرب و(ها) للتنبيه ، وإنما حذف ألفها لكثرة الاستعمال وجعلها اسما واحدا .

قال ابن سيده : زعم الخليل أنها لَمْ لحقتها الهاء للتنبيه في اللغتين جميعا قال : ولا تدخل النون الخفيفة ولا الثقيلة عليها لأنها ليست بفعل وإنما هي اسم للفعل يريد أن النون الثقيلة إنما تدخل الأفعال دون الأسماء وأما في لغة بني تميم فتدخلها الخفيفة والثقيلة لأنهم قد أجروها مجرى الفعل ولها تعليل (39).

وأهل الحجاز يدعونها في كل حال على لفظ واحد فيقولون للواحد والواحدة والاثنتين والاثنتين والجماعتين : «هلم يا رجل وهلم يا امرأة وهلم يا رجلا وهلم يا امرأتان وهلم يا رجال وهلم يا نساء وعليه قوله : يا أيها الناس ألا هلمه .

وأما التميميون فيجرونها مجرى لم فيغيرونها بقدر الخطاب فيقولون : «هلم وهلم وهلم وهلموا وهلممن يا نسوة .

الترجيح : وأعلى اللغتين الحجازية وبها نزل القرآن ألا ترى إلى قوله عز اسمه : ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ . وقال تعالى : ﴿قُلْ هَلُمَّ شَهَادَاتُكُمْ﴾ أي أحضروا شهداؤكم وهي عندهم اسم فعل لا فعل أمر لأنها وإن كانت دالة على الطلب لكنها لا تقبل ياء المخاطبة .

وأما التميميون فإنها عندهم أيضا اسم سمي به الفعل وليست مبقاة على ما كانت عليه قبل التركيب والضم يدل على ذلك أن بني تميم يختلفون في آخر الأمر من المضاعف فمنهم من يتبع فيقول مُدٌّ وفِرٌّ وعَضٌّ ومنهم من يكسر فيقول : مُدٌّ وفر وعَضٌّ ومنهم من يفتح لالتقاء الساكنين فيقول : مُدٌّ وفِرٌّ وعَضٌّ ثم رأيناهم كلهم مع هذا مجتمعين على فتح آخر (هَلُم) وليس أحد يكسر الميم ولا يضمها فدل ذلك على أنها قد خلجت عن طريق الفعلية وأخلصت اسما للفعل بمنزلة دونك وعندك (40).

(ج) - آثار الخليل بن أحمد : بقي لنا أن ننظر في آثاره والثابت أن الخليل له معجم العين أكمله أم لم يكمله فقد أجمع أهل العلم أن هذا المعجم من آثار الخليل بن أحمد (41) وذكر له السيوطي تصانيف أخرى منها : كتاب النعم ، العروض ، الشواهد ، النقط والشكل والجمل (42) .

وهنا نسأل : هل ألف الخليل بن أحمد كتابا في النحو ؟

حقق الأستاذ الدكتور قباوة الكتاب الموسوم بـ «الجمل في النحو» ونسبه للخليل بن أحمد وسبق لي أن قرأت هذا الكتاب عدة مرات ولا زال في النفس شيء من نسبة هذا الكتاب للخليل بن أحمد وذلكم لعدة أسباب منها :

40 - الخصائص ، 3/35-36

41 - البلغة في تاريخ أئمة اللغة ، فيروآبادي ، ص : 79

42 - بغية الوعاة في طبقة اللغويين والنحاة ، السيوطي ، 1/558

(1) - إن الكتاب في غاية الاختصار مع أن الخليل له رأي في المختصرات وميل لها فقال: الكتاب يختصر ليحفظ ويبسط ليفهم (43) ومع ذلك فإن هذا الكتاب لا ينبئ عن علم الخليل بن أحمد .

(2) - وإن ذكر الرواة أن الخليل بن أحمد ألف مصنفات منها كتاب الجمل في النحو إلا أننا نستبعد أن يكون هذا الكتاب هو المصنف الذي أشار إليه الرواة وذلك لأسباب سوف نذكرها إن شاء الله في موضعها من البحث .

(3) - اتفقوا على أن علم الخليل حمله تلميذه سيبويه وأودعه كتابه المشهور بالكتاب . بل بعضهم كما سبق أن أشرنا إليه إلى القول الكتاب هو كتاب خليل لا كتاب سيبويه . . !

ومهما كانت الشكوك في نسبة هذا الكتاب فإن هذا لا يمنعنا من مقارنة مضمونه بما هو موجود في «الكتاب» لنستدل على حقيقة كتاب الجمل أهو حقاً من تأليف الخليل بن أحمد أم لا ؟
ونستعرض هنا بعض مسائله لمعرفة حقيقة الأمر جاء في كتاب الجمل ما يلي :

1 - قال في أول الكتاب : وقد ألفنا هذا الكتاب وجمعنا فيه جمل وجوه الرفع والنصب والجر والجزم وجمل الألفات واللامات والهاءات والتاءات والواوات وما يجري من اللام ألفات وبيننا كل معنى في بابه باحتجاج من القرآن وشواهد من الشعر فمن عرف هذه الوجوه بعد نظره

فيما صنفناه من مختصر النحو قبل هذا استغنى عن كثير من كتب
النحو. (44)

2 - ولنتأمل في قوله : «حكى الخليل بن أحمد يخفضونه أيضا في
قولهم جحيش وحده وعيير وحده بالكسر.
وانظر إلى قوله أيضا : قال الإمام الخليل بن أحمد : وأنا أقرؤها إن
شئتم مخففة على الأصل

إن هذان لساحران أي ما هذان إلا ساحران قال الشاعر:

غدر ابن جلموز بفارس بهمة عند اللقاء ولم يكن بمعرد
نكلتك أمك إن قتلت لمسلما حلت عليك عقوبة المتعمد

أي : ما قتلت إلا مسلما وفي قراءة عائشة رضي الله عنها إن هذين
لساحران. (45) فلو كان الكتاب من تأليفه لا يسند الحكاية لنفسه ولا
يقول : «قال الإمام الخليل بن أحمد» وإنما ينقل الحكاية عن غيره. وثبت
لوحيتين أحدهما من «الكتاب» وقد أورد فيه رأي الخليل في مسألة نصب
المنادى بـ(يا) وحكم الاسم المعرف بالألف واللام المعطوف على المنادى
المنصوب والأخرى من كتاب الجمل :

44 - الجمل في النحو ، الخليل بن أحمد ، ص : 63
45 - الجمل في النحو ، الخليل بن أحمد ، ص : 140-159

اللوحة رقم : 1

ما ورد في كتاب الجمل في النحو المنسوب للخليل	ما ورد في «الكتاب» سيبويه
والنصب الذي يقع في النداء المفرد أن تنادي اسما ليس فيه الألف واللام ثم تعطف عليه باسم فيه ألف ولام تقول يا زيد والفضل ويا محمد والحارث وقال الله جل وعز (يا جبال أوبي معه والطير) نصب الطير لأن حرف النداء لم يقع عليه ولم يجوز أن تقول يا الفضل فنصبت على خلاف النداء . وقال الشاعر ألا يا زيد والضحاك سيرا فقد جاوزتما خمر الطريق . وقال آخر فما كعب بن مامة وابن سعدى بأجود منك يا عمر الجوادا أراد يا الجواد فلما لم يجوز نصبه ويجوز أن ترفع على معنى يا زيد أقبل وليقبل معك الفضل وعلى هذا يقرأ من يقرأ (يا جبال أوبي معه والطير) على الرفع ومجازه وليؤوب الطير معك .⁽⁴⁶⁾	قال الخليل رحمه الله من قال : يا زيد والنضر فنصب ، فإنما نصب لأن هذا كان من المواضع التي ترد فيها الشيء إلى أصله . فأما العرب فأكثر ما رأيناهم يقولون : يا زيد والنضر وقرأ الأعرج : «يا جبال أوبي معه والطير» فرفع ويقولون : يا عمرو والحارث وقال الخليل رحمه الله هو القياس ، كأنه قال : ويا (حارث) . ولو حمل الحارث على (يا) كان غير جائز البتة نصب أو رفع من قبل أنك لا تنادي اسما فيه الألف واللام به (يا) ، ولكنك أشركت بين النضر والأول في (يا) ولم تجعلها خاصة للنضر وقال الخليل رحمه الله : ينبغي لمن قال : النضر فنصب لأنه لا يجوز يا النضر أن يقول : «كل نعمة وسخلتها بدرهم فينصب إذا أراد لغة من يجر لأنه محال أن يقول كل سخلتها ، وإنما جر لأنه أراد وكل سخلة لها . ورفع ذلك لأن قوله : والنضر بمنزلة قوله : ونضر . وينبغي أن يقول : «أي فتى هيجاء أنت وجارها» لأنه محال أن يقول : وأي جارها .⁽⁴⁷⁾

46 - الكتاب ، سيبويه، ص : 186/1-187

47 - الجمل في النحو، الخليل بن أحمد ، ص 109 - 110

من خلال هذان النصان يتضح لنا الفرق الشاسع بين آراء الخليل بن أحمد كما رواها سيبويه وما جاء في كتاب «الجمل» الذي نسبت للخليل قد يلاحظ القارئ العزيز تشابها بين الحكمين لكن هناك فرق كبير بين أسلوب «الكتاب» وكتاب الجمل في النحو وكأنني بهذا الكتاب هو لأحد المتأخرين نسبة للخليل بعد ما استقى بعض موضوعاته من «الكتاب» .
والذي ذكرناه هو حكم يحتاج إلى الدليل فما ذكرنا يدخل في باب الظن : (ما نظن إلا ظنا وما نحن بمستيقنين) ، ولإثبات الحقيقة لا بد من البحث والتقصي ، والاهتداء إلى النتيجة ليس بعزيز لمن رام الجدية في البحث .

وقد أجهد الأستاذ الفاضل الدكتور محمد إبراهيم عبادة نفسه - مشكورا على صنيعة وعمله - ليثبت نسبة هذا كتاب الجمل للخليل إلا أن ما ذكره تنقصه الأدلة الكافية فهو - جازاه الله خيرا - يعتمد على مجرد التشابه بين الآراء الموجودة في «الكتاب» وبين ما يمثلها في كتاب «الجمل» ليقرر صحة نسبة كتاب الجمل وهذا فيه نظر . ولو أمعن الأستاذ الفاضل في الأحكام النحوية الواردة في هذا الكتاب لوجد الفرق بين ما نسب للخليل من آراء نحوية في الكتاب لسيبويه وما ورد في كتاب «الجمل» منسوبة للخليل بن أحمد . ونذكر على سبيل المثال ما يلي :

ومن خلال تفحصنا للنص نجد الخليل يميل للرفع بل هو اختياره على ما قاله السيرافي في شرحه للكتاب . وبينما نجد في كتاب «الجمل» في النحو «يجيز فقط وشتان بين الاختيار والتجوز» .

وذكر أبو العباس أنك إذا قلت : يا زيد والرجل فالنصب هو الاختيار وفرق بينه وبين النضر حيث جعل الاختيار فيه الرفع بأن النضر ونضر علمان ، وليس في الألف واللام معنى سوى ما كان في نضر ، والألف واللام في الرجل قد أفادت معنى وهو معاقبة الإضافة فلما كان الواجب في المضاف النصب كان الاختيار فيما هو بمنزلة الإضافة النصب. (48)

وقد اختار الخليل الرفع في المعطوف على المنادى المفرد إذا كان معرّفا بـ(ال) واستشهد على ذلك بقراءة الأعرج : **(يَا جِبَالَ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ)** سبأ/11 بالرفع. (49)

قال ابن عقيل : يجب بناء المنسوق على الضم إذا كان مفردا معرفة بغير أل فإن كان ب أل جاز فيه وجهان الرفع والنصب والمختار عند الخليل وسيبويه ومن تبعهما الرفع وهو اختيار ابن مالك ولهذا قال : ورفع ينتقى أي يختار فتقول : يا زيد والغلام بالرفع والنصب ومنه قوله تعالى : ﴿يَا جِبَالَ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ﴾ برفع الطير ونصبه. (50)

وقال ابن هشام : خالف الخليل أبا عمرو في قراءة الآية الكريمة : (يَا جِبَالَ أَوْبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ) فكان الخليل يختار الرفع وأبو عمر يختار النصب. (51)

48 - المقتضب ، المبرد ،

49 - الكتاب ، سيبويه ، 1/305

50 - شرح ابن عقيل ، 3/268

51 - الجامع الصغير ، ابن هشام ، ص : 50 تحقيق محمد شريف الزبيبي ط الأولى دمشق

اللوحة رقم : 2

فأما سُبُوحاً قُدُوساً فنصبه على معنى ذكرت سُبُوحاً قُدُوساً. (52)	وأما سُبُوحاً قُدُوساً ربّ الملائكة والروح ، فليس بمنزلة سبحان الله ؛ لأنّ السُّبُوح والقُدُوس اسم ولكنه على قوله : أذكر سُبُوحاً قُدُوساً . وذلك أنّه خطر على باله أو ذكره ذاكر فقال : سُبُوحاً كما تقول : أَهْلَ ذاك إذا سمعت الرجل ذكر الرجل بثناء أو ذمّ كأنه قال : ذكرت أَهْلَ ذاك لأنّه حيث جرى ذكر الرجل منطقه صار عنده بمنزلة قوله : أذكر فلانا أو ذكرت فلانا . كما أنّه حيث أنشد ثم قال : صادقاً صار الإنشاد عنده منزلة قال ، ثم قال : صادقاً وأهْلَ ذاك فحمله على الفعل متابعاً للقاتل والذاكر فكذلك سُبُوحاً قُدُوساً كأنّ نفسه صارت بمنزلة الرجل الذاكر والمنشيد حيث خطر على باله الذكر ثم قال : سُبُوحاً قُدُوساً أي ذكرت سُبُوحاً ، متابعاً لها فيما ذكرت وخطر على بالها . ومن العرب من يرفع فيقول سُبُحَّ قُدُوس ربّ الملائكة والروح ما قال : أَهْلَ ذاك وصادقٌ والله وكلّ هذا على ما سمعناه العرب تتكلم به رفعاً ونصباً. (53)
---	--

52 - الجمل في النحو ، الخليل بن أحمد ، ص : 135

53 - الكتاب ، سيبويه ، 1/ 327

إن هذا النص والذي قبله لا يوحى أن هذا الكتاب من صنع الخليل بل يستحيل أن يكون من نسجه وتصنيفه وذلك لأسباب مستقاة من هذه النصوص نفسها :

أولا : هل ألف الخليل مختصرا للنحو قبل هذا ؟ فإن النص الذي بين أيدينا يقول بصريح العبارة بعد نظره فيما صنفناه من مختصر النحو قبل هذا استغنى عن كثير من كتب النحو. هذه العبارة الأخيرة لها دلالتها أيضا هل وجدت كتباً في النحو ضاقت بها المكتبات قبل كتاب سيبويه إلا ما كان من كتابين ألفهما عيسى بن عمر ومدحهما الخليل نفسه بقوله :

بطل النحو جميعا كله ما أحدث عيسى بن عمر

ذاك إكمال وهذا جامع فهما للناس شمس وقمر

وقد فقد الناس هذين الكتابين منذ المدة الطويلة ولم تقع إلى أحد علمناه ولا خبر أحد أنه رآهما.⁽⁵⁴⁾

ثانيا : على اعتبار أن الكتاب ألفه الخليل بن أحمد فهل ما أودعه فيه يغني عن سائر الكتب النحوية-إن وجدت- في عصره انظر إلى اللوحة رقم : 2 والعرض الذي قدمه سيبويه في كتابه شارحاً لـ (سبوحا قدوسا). والشرح الوارد في الكتاب المنسوب للخليل بن أحمد. هل هذا الشرح مما يغني الباحث أو حتى المبتدئ عن كتب النحو ؟

كما لدينا دلائل أخرى تبين على أن هذا الكتاب ليس من تأليف الخليل بن أحمد نذكر منها :

(1) - **الاختلاف المصطلح المستعمل** : إن المصطلح المستعمل هو غير المصطلح المؤلف عند البصريين عموماً وسيبويه على الخصوص إذ نجد أن المصطلح المستعمل في الكتاب الجمل في النحو هو أقرب إلى مزج بين المصطلح الكوفيين بالمصطلح البصريين . ومن ذلك :

(أ) - **النصب من قطع** : مثل قولك هذا الرجل واقفاً أنا ذا عالماً قال الله تعالى : ﴿ وَهَذَا صِرَاطٌ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ﴾ الأنعام / ومثله ﴿ فَبَلَغَ الْبَيْتَ بَنِيَّاهُمْ جَاوِيَةً ﴾ النمل / على القطع ومثله ﴿ وَهَذَا بَخْلِي شَيْخًا ﴾ هود / على القطع وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ الَّذِينَ وَاصِبًا ﴾ النحل / .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا ﴾ البقرة / معناه وله الدين الواصب وهو الحق المصدق وكذلك قوله تعالى ﴿ تَسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطَبًا جَنِينًا ﴾ (25) مريم / معناه تساقط عليك الرطب الجنيني فلما أسقط الألف واللام نصب على قطع الألف واللام وقال جرير :

هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا

نصب خليفة على القطع من المعرفة من الألف واللام ولو رفع على معنى هذا ابن عمي هذا خليفة لجاز . وعلى هذا المعنى يقرأ من يقرأ ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءِ أُنْتَكُمُ أُمَّةٌ وَاجِدَةٌ ﴾ الأنبياء / فإن جعل هذا اسماً وابن عمي صفته وخليفة خبره جاز الرفع ومثل هذا قول الرفع :

من يك ذا بت فهذا بتي مقيظ مضيف مشتي
أعدده من نجات ست سود جعاد من نجاج الدشت
من غزل أمني ونسيج بنتي
رفع كله على معنى هذا بتي هذا مقيظ هذا مصيف هذا مشتي . وأما
قول الشاعر النابغة :

توهمت آيات لها فعرفتھا لستة أعوام وذا العام سابع
فرفع العام بالابتداء وسابع خبره وقال أيضا :
فبت كآني ساورتنى ضئيلة من الرقش في أنيابها السم نافع
فرفع السم بالابتداء وناقع خبره . (55)

أما قوله تعالى : ﴿ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴾ (23) ق / رفع عتيذا لأنه خبر
نكرة كما تقول هذا شيء عتيدي . والنصب من الحال قولهم : أنت
جالسا أحسن منك قائما أي في حال جلوسه أحسن منه في حال قيامه .
قال الشاعر :

لعمري إني ورادا بعد سبعة لأعشى وإني صادرا البصير
أي : في حال ورودي أعشى وحال صدري بصير وإنما صار الحال نصبا
لأن الفعل يقع فيه تقول : قدمت راكبا وانطلقت ماشيا وتكلمت قائما
وليس بمفعول في مثل قولك لبست الثوب لأن الثوب ليس بحال وقع
فيه الفعل والقيام حال وقع فيه الفعل فانتصب كانتصاب الظرف حين

55 - يخالف ابن الطرواة سبويه في رفع «ناقع» على الخبرية فهو يرى أن «ناقع» نعت وأدى بحجج مقنعة على
صحة ما ذهب إليه لنا معها وقفة في بحث آخر إن شاء الله تعالى .

وقع فيه الفعل ولو كان الحال مفعولا كالثوب لم يجز أن يعدا الانطلاق إليه لأن الانطلاق انفعال والانفعال لا يتعدى أبدا لأنك لا تقول انطلقت الرجل والحال لا يكون إلا نكرة والحال في المعرفة والنكرة بحالة واحدة تقول : قدم علي صاحب لي راجلا ومنه قول الله عز وجل ﴿قَالُوا كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ (29) مريم / نصب على الحال والنصب من الظرف قولهم : غدا آتيك ويوم الجمعة يفطر الناس فيه واليوم أزورك قال ساعدة بن جؤية :

لذن بهز الكف يعسل متنه فيه كما عسل الطريق الثعلب
فنصب الطريق على الظرف لأن عسلان الثعلب وهو مشيته وقع في الطريق . وقال ابن كلثوم :

صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمين
فنصب اليمين على الظرف كأنه قال مجراها على اليمين وقال آخر :
هب جنوبا فذكرى ما ذكرتم عند الصفاة التي شرقي حوران
نصب الشرقي على الظرف أي : هي شرقي حوران تقول : هو شرقي الدار وإذا قلت : هو شرقي الدار وجعلته اسما جاز الرفع ونصب الآخر جنوبا على معنى هبت الريح جنوبا وحوران لا ينصرف .
وسمي الظرف ظرفا لأنه يقع الفعل فيه كالشيء يجعل في الظرف فإذا قلت هو شرقي الدار فجعلته اسما جاز الرفع ومثله قول لبيد بن ربيعة العامري :

فغدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها

رفع خلفها وأمامها لأنه جعلهما اسما وهما حرفا الطريق قال الشاعر :
 أما النهار ففي قيد وسلسلة والليل في جوف منحوت من الساج
 رفع الليل والنهار لأنه جعلهما اسما ولم يجعلهما ظرفا .
 وكذلك يلزمون الشيء الفعل ولا فعل وإنما هذا على المجاز كقول الله
 جل وعز ﴿ قَمَّا رَبَّحْتَ تَجَارَتَهُمْ ﴾ البقرة / والتجارة لا تريح فلما كان
 الريح فيها نسب الفعل إليها ومثله قوله تعالى : ﴿ قَوَّجْنَا فِيهَا جِدَارًا
 يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ ﴾ الكهف / ولا إرادة للجدار وقال الشاعر :

لقد لمتنا يا أم غيلان في السرى ونمت وما ليل المطي بنائم
 والليل لا ينام وإنما ينام فيه وقال آخر : فنام ليلي وتحلى همي .
 وتقول : هو مني فرسخان ويومان لأنك تقول بيني وبينه فرسخان
 ويومان فإذا قلب هو مني مكان الثريا ومزجر الكلب نصبت لأنك لا
 تقول بيني وبينه مكان الثريا ولا مزجر الكلب وقال الشاعر

وأنت مكانك في وائل مكان الثريا من است الحمل (56)

تعليق : ما جاء «الجميل في النحو العربي» يطابق إلى حد كبير ما جاء
 في الكتاب لسيبويه إلا أنه استعمل مصطلح «القطع» أي قطع اللف
 واللام مما يكون نعتا لما قبله فينصب فهذا المفهوم لم يكن شائعا ولا
 معروفا لدى البصريين وإنما هو مصطلح الكوفيين وإن رأى
 الدكتور/إبراهيم عبد الله عبادة أن هذا من المصطلحات القديمة التي
 توارت أمام مصطلحات أخرى حلت محلها في فترة استقرار المصطلح

النحوي.⁽⁵⁷⁾ إلا أن هذا يحتاج إلى دليل إثبات فنحن أمام مصطلحات لمدرستين الأولى كوفية وثانية بصرية ، ولكل منهما مصطلحاتها الخاصة بها خالفت به المدرسة الأخرى .

2 - **مصطلح الصرف** : هذا المصطلح كما هو معروف من المصطلحات الخاصة بالمدرسة الكوفية أطلقه الفراء على الاسم المنصوب بعد واو المعية .

3 - **والنصب من مصدر** : كقولك : خرجت خروجاً وأرسلت رسولا وإرسالا قال الشاعر :

ألا ليت شعري هل إلى أم معمر سبيل فأما الصبر عنها فلا صبرا
ولآخر :

أما القتال فلا أراك مقاتلا ولئن هربت ليعرفن الأبلق
نصب القتال والصبر على المصدر . وقد يجعلون الاسم منه في موضع مصدر فيقولون : أما صديقا مصافيا فليس بصديق . وأما عالما فليس بعالم معناه أما كونه عالما فليس بعالم.⁽⁵⁸⁾

للبحث صلة

57 - كتاب الجمل في النحو : دراسة تحليلية ، د/ محمد إبراهيم عبادة ، ص : 93

58 - كتاب الجمل في النحو ، الخليل بن أحمد ، ص : 66-67

تيسير النحو في ضوء علم تدريس اللغات

د. محمد صاري

جامعة عنابة - الجزائر

لقي موضوع إصلاح النحو وتيسيره على الناشئة والمتعلمين اهتماما واسعا في العقود الأخيرة ، لاسيما بعد النتائج الإيجابية التي حققتها الدراسات اللغوية الحديثة على صعيد البحث اللساني النظري والتطبيقي .

وقد بحث في هذا الموضوع ، وكتب فيه عدد كبير من العلماء واللغويين والتربويين ، وعقدت من أجله العديد من المؤتمرات والندوات واللقاءات في أنحاء مختلفة من العالم العربي⁽¹⁾. ورغم ذلك ، ظل مفهوم التيسير يشغل تفكير الباحثين، ويثير العديد من الإشكاليات النظرية والتطبيقية ، وبخاصة عند ناقد التراث الذين زعموا أن بالنحو العربي

(1) - نذكر على سبيل المثال ندوة تيسير تعليم النحو، نظمها اتحاد الجامعات اللغوية العلمية العربية عام 1976، وندوة تيسير النحو المنعقدة في أبريل 2001 نظمها المجلس الأعلى للغة العربية بالجزائر

* للمزيد من المعلومات حول هذا الموضوع راجع كتاب : تطوير مناهج تعليم القواعد النحوية وأساليب التعبير في مراحل التعليم العام في الوطن العربي، د. محمود أحمد السيد، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1987.

عيوبا ونقائص تجعل إصلاحه وإعادة النظر فيه ضرورة ملحة، ومهمة أساسية في عصر يتلقى فيه التلميذ العربي الفصحى صناعة وتعلما لا طبعيا واكتسابا .

وذهبوا في هذا النقد مذاهب شتى⁽²⁾، وتباينوا في تشخيص العيوب وطرق العلاج تباينا يجعل الباحث في هذا الميدان يتساءل عن قيمة الأسس التي انطلقوا منها، ومدى سلامة الأحكام التي وصلوا إليها .
والمسألة التي تطرح حول الدراسات والبحوث التي أُنجزت لتيسير القواعد النحوية مادة وطريقة، تتلخص في معرفة حصيلة نتائجها العلمية والتربوية، وواقع تطبيقها في مناهج تعليم العربية، وهو الباعث الذي دفعنا إلى إجراء قراءة نقدية لمحاولات تيسير النحو قديما وحديثا في ضوء النتائج التي حققتها علوم اللسان، وما تفرع عنها من اتجاهات حديثة على مستوى المناهج الدراسية، تخطيطا، وبناء، وتنفيذا، وتقويما⁽³⁾ .

ومن خلال تحليل كثير من المحاولات التي طارت شهرتها في الوطن العربي، تبين لنا فشلها لأن أصحابها انطلقوا في قراءاتهم النقدية للتراث من منطلقات قاصرة، تتم عن غياب تصور واضح للعلم وما تقتضيه التطبيقات التربوية من مبادئ أساسية في صناعة التعليم. إذ تحولت

(2) - للإطلاع على ذلك راجع : ابن مضاء القرطبي : الزد على النحاة . وإبراهيم مصطفى، إحياء النحو . وأمين خولي، مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب . ود. تمام حسان، اللغة العربية معناها ومبناها . ود. مهدي الخزومي في كتابه، في النحو العربي، نقد وتوجيه . وفي النحو العربي، قواعد وتطبيق . ود/ محمد عيد، أصول النحو العربي في نظر النحاة ورأي ابن مضاء وضوء علم اللغة الحديث .

(3) - د. محمد صاري، محاولات تيسير تعليم النحو قديما وحديثا دراسة تفويجية في ضوء علم تدريس اللغات، رسالة دكتوراه مخطوطة، نوقشت بجامعة عنابة، الجزائر 2003.

خاصية الوضوح والبساطة والسهولة إلى مقاييس يُعتمد عليها في تقييم التراث النحوي. وأصبح ، في نظر بعضهم ، كل أصل من أصول النحو، أو مسألة من مسائله ، أو باب من أبوابه ، لا يفيد مباشرة في التعليم ترفا لا فائدة منه ، ولغوا ينبغي تجنبه . واقتنع الجميع أن نظام العوامل هو المسؤول عن ذلك. وافترضوا أن ما عاب به اللسانيون الغربيون تراثهم اللغوي (الإغريقي والروماني) ينسحب انسحابا كليا على النحو العربي الأصل . وكانت حاجة اللغة العربية ، في زعمهم، إلى منهج وصفي تماثل حاجة الأنحاء الأوربية القديمة(4) .

إن التفكير في الجوانب التربوية وثقل مشاغل التدريس، أدت بكثير من المصلحين والمجددين إلى الخلط بين مقتضيات البحث اللغوي ومقتضيات التدريس. ولعل هذا الخلط هو الذي دفع ببعضهم إلى نقد مفاهيم النحو الإجرائية ، واعتبار نظام العوامل مجموعة من الأحكام المسبقة ، والمسلمات الماقبلية التي فرضت على الدرس اللغوي. والواقع أن اللغة العربية بحاجة ماسة إلى هذا النظام لترتيب مادتها وانسجامها واطرادها، والسيطرة على شتات المعطيات اللسانية ، واقتصاد وصفها وصياغتها . ثم إن الصعوبة والسهولة ليستا دليلا علميا على عدم كفاية هذا النظام، وعلى عدم مقدرة على وصف اللغة وتفسير ظواهرها(5) .

وبما لا شك فيه أن المرجع الفاعل في تفكير دعاة الإصلاح والتجديد ،

(4) - د. عز الدين مجدوب ، المتوال النحوي العربي ، قراءة لسانية جديدة ، دار محمد علي الحامي ، ط1، تونس، ص11-48.

(5) - المرجع السابق، ص11-48.

الذين كادوا أن يكونوا اتجاها ضاغظا على كل دارس للتراث، هو «ابن مضاء». واللافت للانتباه أن كثيرا من أمهات المسائل التي طُرحت كأفكار بديلة ليست جديدة على النحو والنحاة، بل إنها للقدمات. ففكرة الحركة الخفيفة عند الوصل ودرج الكلام هي «لقطرب»، وفكرة إعراب الأسماء الستة بحركات مَمْطولة فكرة قالها «المازني»، وفكرة المتكلم هو الذي يُحدث الإعراب فكرة «ابن جني»، وفكرة القرائن والتعليق هي «للجرجاني»، وفكرة الرفع علم الفاعلية والجر علم الإضافة فكرة «للزمخشري»، وفكرة العمدة والفضلة فكرة «الرضي الاستيراباذي»، وصاحب فكرة إلغاء نظرية العامل هو «ابن مضاء»، وهو النحوي الوحيد من بين أكثر من ألفي نحوي ذكرهم «السيوطي» في كتابه «البغية»، الذي وقف هذا الموقف السلبي إزاء النحو العلمي⁽⁶⁾.

ثم إن تصور القدمات لموضوع التيسير، يختلف تماما عن تصور المحدثين. فالقدمات لم تكن بينهم خصومة تذكر حول هذا الموضوع، والتبسيط في نظرهم وأعمالهم قائم على الانتقاء من جملة النحو العلمي، وتجنب الإطالة والتعمق في ذكر القواعد، والاستعانة على توضيحها بالأمثلة والتقليل من الشواهد، والوقوف عند حدود العلة الأولى، وتجنب الشاذ والنادر، والتمييز بين المستويات التعليمية...

أضف إلى ذلك، أنهم كانوا على وعي بضرورة وجود مستوى من

(6) - محمد صاري، تيسير النحو ترف أم ضرورة؟، مجلة الدراسات اللغوية، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، المجلد الثالث، العدد الثاني، يوليو-سبتمبر 2001، ص 163.

المؤلفات النحوية المختصرة والميسرة إلى جانب مطولاتهم وموسوعاتهم العلمية ، وهو ما توحى به عشرات العناوين من متونهم ومختصراتهم . فبعضها يسمى الواضح ، وبعضها يدعى الوجيز ، وبعضها الآخر يعرف بالمقدمة أو المدخل... الخ. وغير ذلك من العناوين التي توحى في وضوح لا يقبل الشك أن تلك العصور لم تخل من نحاة ومربين ومعلمين ألفوا ما قَرَّب الطريق إلى حد ما على المتعلمين . ولعل ما يؤخذ على هذا النوع من التأليف ، أن بعضه لم يكن منظماً بشكل يصلح مباشرة للتدريس ، وأن بعضه الآخر موجز ، بل مفرط في الإيجاز حتى كاد يعد من جملة الألفاظ (7) .

إن انطلاق المجددين والمصلحين من مفاهيم وتصورات قاصرة عن فكرة التيسير أدى إلى اقتراح بدائل مشوهة ، أو خاطئة ، أو ناقصة . والذي أوقع هؤلاء في مثل هذه الأخطاء هو :

أ - اعتمادهم على المختصرات النحوية المتأخرة عند حديثهم عن ضوابط المنهج وقواعد التوجيه في النظرية النحوية العربية القديمة ، الشيء الذي أدى بهم إلى تشويه كثير من المفاهيم الأصيلة وتحريفها تحريفاً واضحاً .

ب - عدم الاستفادة من نتائج البحوث التي أُجريت في مجال اللسانيات وعلم تدريس اللغات ، حيث لا يظهر في أعمال هؤلاء أدنى

(7) - د. علي أبو المكارم ، النحو التعليمي في خمسة قرون : بحوث لغوية وأدبية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية 1984 . والنحو التعليمي حتى منتصف القرن التاسع الهجري ، مجلة معهد اللغة العربية ، العدد ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، المملكة العربية السعودية ، 1984 .

أثر لتلك الاختصاصات الحيوية الحديثة، مما جعلهم يحصرون مجال دراستهم في الجانب النحوي المحض ، ويرجعون مسألة التعقيد فيه إلى المادة النحوية ذاتها ، ولم يشيروا إلى الطريقة إلا عرضاً، علماً أن جوهر المشكلة هو الطريقة التي يعرض بها النحو على المتعلمين . فلغتنا العربية غير مخدومة تربوياً ، وطرائق تدريسها متخلفة جداً .

وما ينبغي التنبيه إليه ، أن النحو جهاز كامل ، وأن أي حذف عشوائي (غير مدروس) لأي باب من أبوابه، أو جزء من أجزائه، سيؤدي دون شك إلى إفساده. وإن أزمة النحو التي تشكلت في الميدان التربوي التعليمي ، في منظور النظرية الخليلية الحديثة ، لا تكمن في النحو ذاته من حيث هو علم، وإنما في تجاهل المناهج المدرسية للطرق الحديثة في الانتقاء والتخطيط والعرض والترسيخ ، وإهمال التمرس اللغوي، والجانب الترسيخي المنظم في تعليم العربية ، واقتصار أكثر المربين والمعلمين على الأنواع القليلة جداً من التمارين ، لا سيما التحليلية (التي تخص الإعراب) . وفوق ذلك كله ، اتخاذ النحو والصرف في صورتيهما النظرية البحتة وسيلة مجردة من كل تكييف لإكساب المتعلمين الملكة اللغوية ، وإعطاء هذا الجانب من القواعد النظرية، والتعليق عليها حصة الأسد⁽⁸⁾ .

ويتبين من خلال تحليل واقع المحتوى النحوي في الكتب والمقررات التعليمية، وكيفية تأدية المعلم له داخل القسم ، أن الاتجاه التقليدي هو

(8) - د. عبد الرحمن الحاج صالح : مشاكل اللغة العربية والبحوث الميدانية الحديثة.

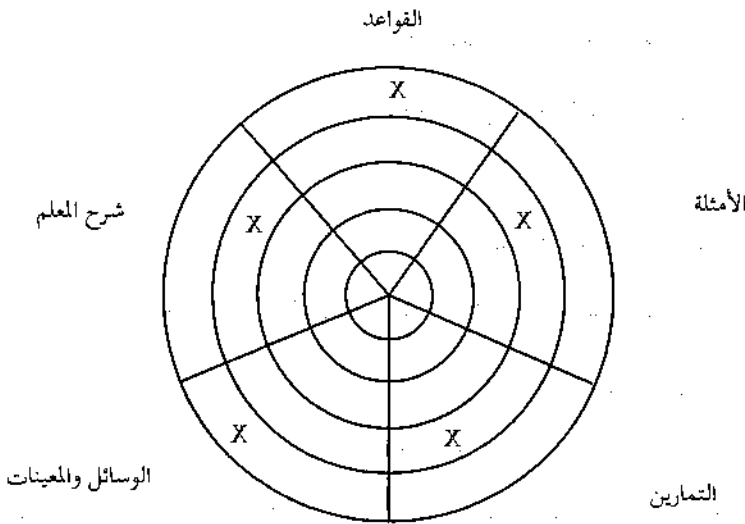
السائد في التأليف والتدريس. فمحاولات تيسير النحو في الكتب المدرسية لم تقدم جديداً ، ولم تفعل شيئاً يعيد للنحو حيويته، ويشيع فيه قوة تحبب إلى التلاميذ درسه، وللمعلمين تدريسه. فهي لم تصحح وضعاً، ولم تجدد منهجاً، ولم تأت بجديد إلا إصلاحاً في المظهر وأناقاة في الإخراج. أما القواعد فهي هي، وأما الموضوعات فكما ورثناها لم يصبها من التجديد إلا نصيب ضئيل⁽⁹⁾؛ كثافة من حيث الموضوعات ، وغزارة في المفاهيم والمصطلحات النحوية ، وغموض في لغة التعريفات التي تبدو ، أحياناً ، ألبازاً ورموزاً لا يتسع عقل التلميذ لفهمها وإدراك معانيها الدسمة . أضف إلى ذلك التذبذب في ترتيب الدروس وتوزيعها على مستوى المقرر الواحد ، أو المقررات المختلفة .

ونشير في هذا المقام أنه لم تُسجل تحسينات جديرة بالإشارة ، أو توظيفاً لنتائج البحث اللساني التربوي في تمييز الوظيفي من الموضوعات من غير الوظيفي، والأساسي من الثانوي ، والأصلي من الفرعي ، والعناصر النحوية ذات الانتشار الواسع من الظواهر النحوية ذات المردود الضعيف . فمضامين التدريس التي اشتملت عليها مناهج النحو ومقرراته غير مؤسسة على بحوث علمية ميدانية تستفيد من نتائج تحليل الإنتاج المنطوق والمكتوب للتلاميذ ولحيطهم اللغوي ورصد أخطائهم الشائعة. فهي مضامين غير مكيفة تربوياً ، يختارها أناس غير متخصصين

(9) - د. مهدي الخزومي ، في النحو العربي ، نقد وتوجيه ، دار الرائد العربي ، ط 2 ، بيروت 1986 ، ص 15.

بناء على الخبرة والتقدير الذاتي، ويلقنها معلمون لا يملكون وصفا دقيقا لنظاميها الإفرادي والتركيبى .

كما يجب التأكيد على أنه لم تُلاحظ تغييرات جذرية على مستوى منهجية العرض والخطاب النحوي للمعلم داخل القسم، واختيار الأمثلة الشارحة، وتوظيف الوسائل المعينة والتغييرات التي حدثت على مستوى تلك العناصر، إن سلمنا بذلك، سطحية جدا مسّت الجانب الشكلي ولم تصل إلى الجوهر والرسم البياني الآتي يوضح ذلك⁽¹⁰⁾:



10 - كلما توجهت العلامة (X) نحو المركز دلت على تغيير جذري، والعكس صحيح. انظر:

Jean-Pierre Cuq; Une introduction à la didactique de la grammaire en français langue étrangère; Didier/ Hatier Paris, 1996, P33.

وقد بدا لنا، من خلال المعاينة والمناقشة ، أن ضعف الطريقة وقلة نجاحاتها، ونقص كفاءة المعلم، وإهمال الجانب التطبيقي في النحو (وهو رأس الأمر)، إضافة إلى قلة الدراسات العلمية التي تتخذ أساسا لبناء المناهج وتنفيذها، تعد من أهم الأسباب التي أدت إلى تدهور تدريس النحو.

وانطلاقا من هذه النتائج التي أفضى إليها البحث حول جهود الإصلاح والتجديد النظرية والتطبيقية، يمكن اقتراح تصور منهجي في إعداد مناهج النحو وتدريسه بمراحل التعليم ما قبل الجامعي. يتأسس على خلفية معرفية لسانية وتربوية ونفسية واجتماعية. ويستفيد من الطرائق الحديثة في الانتقاء والتخطيط والعرض والترسيخ . ولعل أهم الأفكار التي تحتويها هذه الخلفية تتمثل في ما يلي :

1- تحديد وجهة البحث في موضوع التيسير والهدف منه، لأن هناك فرقا بين السعي لتبسيط القوانين الثابتة في العلم ، وبين السعي لتبسيط الصورة التي يعرض بها هذا العلم ويبلغ للمتعلمين. فكثير من اشتغلوا بمسألة القواعد النحوية وتيسير تدريسها يلتبس عليهم الأمر ، فلا يميزون تمييزا حاسما بين معياري السهولة والوضوح؛ هل يريدون بالتيسير نحوا سهلا أم نحوا واضحا ؟

فإذا كنا نريد نحوا سهلا ، فلا توجد سهولة في النحو (من حيث هو علم) فالنحو هو النحو ، وإن أي مجهود يبذل لجعله أكثر سهولة بما هو عليه سوف يقود لا محالة ، كما يقول يلمسلاف Hjelmslev، إلى

تحريف القواعد والقوانين وهتك للمبادئ العلمية السليمة⁽¹¹⁾. ومن يريد أن يعلمه أو يتعلمه فعليه أن ينظر فيه كما هو، ويتكيف مع خصوصياته؛ لأن النحو، في الواقع، صناعة تعين على اكتساب الملكة في غياب البيئة اللغوية العفوية، ونجاحه في هذا الشأن أمر لا يختلف فيه من يطلبون له اليوم مزيدا من النجاح⁽¹²⁾.

إن المدار الرئيسي الذي ينبغي أن تنصرف إليه جهود الإصلاح والتيسير يكمن في البحث عن حلول للمسائل العالقة التي ما زالت بعيدة عن الإثبات النهائي أو النفي الحاسم، وعلى رأسها الأسئلة الآتية:

لماذا نعلم النحو؟ وكيف نجعل تعلم هذه المادة إجرائيا وذا دلالة؟ وكيف نجعل العناصر النحوية تترسخ لفترة أطول وتؤثر إيجابيا في الإنتاج الإرسالي والاستقبالي للتلاميذ؟ وإلى أي حد ينبغي السير بهم داخل هذه المادة؟ وما هو المضمون الذي ينبغي أن تشتمل عليه مقررات النحو؟ وهل الملاحظة الواعية للقوانين ضرورية لاكتساب الملكة؟ ...

إن تحويل وجهة البحث نحو هذا النوع من الأسئلة، والسعي للإجابة عليها في ضوء علم تدريس اللغات، سيساهم من دون شك في تيسير النحو مادة وطريقة.

2- إن النحو عامل مساعد، وليس هو كل شيء في تعليم وتعلم اللغة

11 - Hjelmslev Louis , prolégomènes à une théorie du langage, les éditions de minuit, Paris 1971, P179-180.

12 - عباس محمود العقاد، أشنتات مجتمعات في اللغة والأدب، دار المعارف، ط 2، القاهرة 1970، ص 51.

العربية. وينحصر دوره في مساعدة الاكتساب وتهيئة الأرضية المناسبة لتشكيله⁽¹³⁾، ولذا فمن المبالغة والإسراف أن تسند لمادة واحدة (القواعد)، وهي فرع من فروع اللغة، جملة عريضة من الغايات والمرامي، وعلى رأسها ملكة التبليغ والتواصل، والتي لا تتحقق إلا بتظافر مجموعة كبيرة من الإجراءات والأنشطة الشفاهية والكتابية التي تهدف إلى إكساب المتعلم العناصر والمهارات اللغوية وترسيخها.

وعليه، فمن الخطأ التصريح بأهداف طموحة للغاية، لن تتحقق أو يصعب تحقيقها، ومن المبالغة، أيضاً، تحميل مادة النحو مسؤولية إكساب التلميذ ملكة التبليغ والتواصل. ولذا ينبغي عند إعداد المناهج الدراسية وتخطيطها، مراعاة الملكة المزدوجة التي تخص من جهة السلامة النحوية، ومن جهة أخرى توظيف معاني النحو في دورة الخطاب.

3- إن تحديد الموضوعات التي ينبغي أن تدرج في المناهج والمقررات التعليمية في منظور علم تدريس اللغات، لم يعد يخضع إلى التقدير الشخصي والخبرة الذاتية، بل أصبح يؤسس على أبحاث علمية ميدانية تستهدف إلى جانب خبرة المربين وملاحظاتهم، تحليل إنتاج التلاميذ في شتى مراحل التعليم من أجل معرفة الموضوعات التي يكثر شيوعها في أساليبهم الكلامية والكتابية، وكذلك معرفة الموضوعات التي يكثر الخطأ فيها والصعوبات التي يجدها التلاميذ في التعبير عن أفكارهم ومشاعرهم

(13) - د. عيسى الشريفي، اعتبارات نظرية وتطبيقية في تدريس القواعد لمعلمي العربية من غير الناطقين بها، المجلد 18، العدد الثاني، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

ومشكلاتهم. هذا هو الأساس الذي تقوم عليه مناهج النحو اليوم في الدول المتقدمة (14).

كما يجب التأكيد، هنا، على ضرورة التمييز بين الأنحاء أو المستويات النحوية التي تحتويها اللغة الواحدة؛ فهناك مستوى من النحو يخص اللساني والباحث، هدفه التأسيس والتأصيل والاستنباط وعمق التفسير. وهناك مستوى آخر يخص المربي والمدرس، فمن غير المعقول أن يكون كتاب المعلم هو نفسه كتاب التلميذ، أو هو نفسه موسوعة اللساني. ويمكن أن نطلق على هذا النوع «النحو المرجعي». ثم هناك مستوى ثالث يخص الاكتساب والتعلم، ويبقى هذا المستوى في حدود اهتمامات المتعلم وحاجاته اللغوية، وينبغي أن يتميز بالوضوح والبساطة (15).

والإشكال الذي يطرح بين هذه الأصناف، التي تجمع بينها علاقات وتميز بينها فروق، هو عدم وضوح المقاييس التي تساعد المربين على اختيارها والتمييز فيما بينها وفق ما تقتضيه الأغراض ومقاصد العملية التعليمية.

4- إن الدراسة الواعية للقوانين النحوية ليست شرطاً كافياً أو ضرورياً لتعليم اللغة. وفي المقابل نشير أيضاً إلى أن تعلم اللغة لا يمكن أن يكون كله عملية غير واعية، إذ يعدّ الانتباه شرطاً ضرورياً في مؤازرة الاكتساب وتحقيقه. وبناء على هذا، فإن الطريقة المقترحة تعتمد على كلا

(14) - د. علي أحمد مذكور، تدريس فنون اللغة العربية، دار الفكر العربي، 1997، ص 335.

(15) - لمزيد من المعلومات انظر :

Besse . H / Porquier . R, Grammaires et didactique des langues, L.A.L. , Hatier Didier, 1991. -

النموذجين ، لأنه لا توجد مرحلة كلها ضمنية وأخرى كلها صريحة ، ولكن الاقتصاد في الوقت والجهد يقتضي تقديم التدريس الضمني على التدريس الصريح⁽¹⁶⁾ .

وما تجدر الإشارة إليه أن المدار الرئيسي الذي ينبغي أن يتأسس عليه هذا التدريس الضمني للنحو هو فكرة التمرس اللغوي ، لأن التمرينات اللغوية بصفة عامة ، والتمرين النحوي على الخصوص ، تقنية تربوية تتجاوز حدود الترف والموضة ، لا تستغني عنها أي طريقة أو منهج تعليمي مهما كانت توجهاته اللسانية والمنهجية . وبالتالي يجب أن يركز تعليم النحو على مجموعة كبيرة من التمرينات المتنوعة والمكثفة التي تساعد على خلق المهارات اللغوية وإحكامها ، وهيئات أن ينجح تدريس النحو دون تطبيق وتدريب⁽¹⁷⁾ .

وإن أحسن الطرق التربوية لتحصيل النحو النظري ، وتفادي النص المسهب الذي يصعب حفظه ، هي التي تقدم معلوماته وقوانينه وتلخصها على شكل رسوم بيانية بسيطة يشار فيها إلى العلاقات والعمليات بالرموز والجداول والسهام والأقواس والمشجرات وتستثمر فيها الألوان⁽¹⁸⁾ .

5 - إن الكفاءة في اختيار مضامين التدريس وتنظيمها لا تضمن

16- Vigner G, l'exercice en français langue étrangère, étude de linguistique appliquée, n 48, oct.- déc. 1982, P71.

وانظر مصطلحي (Explicite) و (Implicite) في معجم :

- Galisson R/ Coste D, dictionnaire de didactique des langues, Hachette , Paris 1976.

17) - Besse . H / Galisson . R : Polémique en didactique , CLE international , Paris 1980, P 213.

18) - François Frédéric, l'enseignement et la diversité des grammaires, Hachette, Paris 1974, P209-219.

استثمارها الجيد داخل القسم. فاختيار المحتوى النحوي وترتيبه بناء على مقاييس علمية ولغوية صارمة لا يعني شيئا إذا لم يتجسد ذلك في طريقة التدريس وتأدية المعلم لها داخل القسم .

وعلى الرغم من أن التجارب الميدانية الحديثة في تدريس أنحاء اللغات الحية خلصت إلى نتيجة مثبتة نوعا ما ، مفادها أن التعليمات الحديثة من الوجهة العملية ما زالت بعيدة عن الفصل الخامس في أفضل طريقة لتدريس مادة النحو ، بل الأكثر من ذلك هو أن الشكوك تراود بعض الخبراء حول إمكانية تحقيق ذلك في القريب العاجل⁽¹⁹⁾، إلا أن أفضل طريقة تقترحها الديداكتيك على المعلم، هي تلك التي يستخلصها هو بصياغته الشخصية واختياره ومراجعته لها. ومن المؤكد أنه لا يستطيع أن يعلم تعليما فعالا ، وأن يختار اختيارا ناجحا دون فهم الأوضاع النظرية المتنوعة، فذلك هو الأساس الذي يمكنه من أن يختار من التنوعات النظرية الكثيرة⁽²⁰⁾.

إن القدرة على الاختيار والتحكم فيه يتطلب معلما من طراز خاص أطلق عليه بعضهم مصطلح «المعلم الباحث»⁽²¹⁾ l'enseignant chercheur ، ولذا بات جليا أنه لا يمكن لأي إصلاح أن يحقق غايته ويبلغ مراميها ما لم يلق تأييدا لدى المكونين الذين يسهرون على تطبيقه في الميدان. ومن

19) - Germain Claude / Seguin Hubert, Le Point sur la grammaire, CLE International, Paris 1998, P 160.

20) - هـ . دوقلاس براون ، أسس تعلم اللغة وتعليمها ، ترجمة د/ عبده الراجحي ود/ علي علي أحمد شعبان، دار النهضة العربية ، بيروت 1994، ص 34.

21) - Besse . H / Galisson . R ; Polémique en didactique . CLE international , Paris 1980, P 131-133. -

أجل ذلك وجب أن تعالج مسألة إعداد المدرسين بالجدية اللازمة، في منظور بعيد المدى لا مجال فيه للحلول المرتجلة أو التخطيط التقريبي، وإلا ما الفائدة من تصميم مناهج حديثة جدا في شكلها وفي محتواها إذا كان المعلم الذي سيكلف بتوصيلها وتوجيه التلاميذ نحو اكتشاف مضامينها عاجزا عن التعامل معها، يفتقر إلى التأهيل العلمي والبيداغوجي !! والسؤال الذي يطرح نفسه في الأخير: ما هي الشروط الموضوعية التي تساعد على ظهور هذا المعلم الباحث أو ظهور ما يشبهه؟...

مصطلحات المماثلة ودلالاتها في الفكر الصوتي عند سيبويه

أ. جيلالي بن يشو (جامعة مستغانم)

- الملخص :

إن الدراسات الحديثة في علم الأصوات كثيرا ما تغفل المصطلحات الصوتية عند اللغويين العرب القدامى، و تستعمل مصطلحات مترجمة من اللغات الأخرى، علما أن معالجة أسلافنا للمسائل اللسانية بصفة عامة، لا تبتعد عن تلك الدراسات التي قيد بها اللسانيون المحدثون هذه الظاهرة، كما أن البحث الدلالي لهذه الثروة المصطلحية التراثية أصبح أمرا مهما يجب الرجوع إليه، كون هذه الثروة تحوي الكثير من المصطلحات يمكن استغلالها، وتوظيفها في البحث اللساني الحديث.

انطلاقا من هذا الطرح أثرت أن يكون بحثي في مصطلحات المماثلة، ودلالاتها عند سيبويه (180هـ)، محاولا تبين أسبقية هذا العالم في البحث في هذا المصطلح.

تعريف المماثلة : Assimilation

لغة : يقول ابن منظور (ت 711 هـ) في مادة (م، ث، ل) : «هذا مثله ومثله كما يقول شبهه وشبهه، قال ابن بري: وأما المماثلة فلا تكون إلا في المتفقين ... والمثل الشبه، يقول: مثْلٌ ومثْلٌ، وشِبْهٌ وشِبْهٌ بمعنى واحد». (1)

اصطلاحاً : يعرفها دانيال جونز (Daniel Jones) بأنها: «عملية إحلال صوت محل صوت آخر تحت تأثير صوت ثالث قريب منه في الكلمة أو الجملة، ويمكنها أن تتسع لتشمل تفاعل صوتين متوالين ينتج عنهما صوت واحد مختلف عنهما». (2) وجاء في تعريف بروسنهان Brosnahan بأنها: «التعديلات التكميلية للصوت حين مجاورته للأصوات الأخرى» (3)، ويراها أحمد مختار عمر: «تحول الفونيمات المتخالفة إلى متماثلة إما تماثلاً جزئياً أو كلياً» (4)

تتأثر الأصوات في أي لغة من اللغات بعضها ببعض في البيئة خلال عملية النطق، مما يؤدي إلى تغيير مخارج بعضها أو صفاتها، لكي تتفق في المخرج، أو الصفة مع الأصوات المجاورة، واللغة العربية في تطورها التاريخي

- (1) لسان العرب، ابن منظور مادة (م ث ل) دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر 1388 هـ- 1968 م.

(2) Daniel Jones- W Heffer Sons LTD Cambridge England 9th 1972, P 217. -etics
An outline of English phon

(3) الأصوات اللغوية، د. عبد القادر عبد الجليل دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان الأردن ط 1 1418 هـ- 1998 م ص 283.

(4) دراسة الصوت اللغوي، د. أحمد مختار عمر دار الكتب ط 3، 1405 هـ- 1980 م ص 324.

عرفت هذا اللون من التأثير، شأنها في ذلك شأن اللغات الأخرى، ولعل من أكثر هذه الظواهر استخداما في اللغة ظاهرة المماثلة بأصريها وأشكالها المتنوعة ⁽⁵⁾، إذ كثيرا ما تستنجد بها لغتنا لتفادي كل تنافر أو تباعد يصيب أصواتها في تواصلها، لتحقيق التوازن بين عناصرها ليعم التوافق والانسجام بين أصوات التركيب: «فالمماثلة تطور صوتي يرمي إلى تيسير النطق عن طريق تقريب الفونيمات بعضها من بعض أو إدغامها بعضها في بعض لتحقيق الانسجام الصوتي» ⁽⁶⁾.

مصطلحات المماثلة عند سيبويه :

المماثلة Assimilation من الظواهر الصوتية الضاربة جذورها في أعماق العربية، اهتم بها العلماء العرب النحاة، والصرفيون، وأهل القراءات المختلفة، فرصدوا مظاهرها، وأوجهها المختلفة، ووضعوا لها الكثير من الضوابط والقواعد، إلا أنهم لم يعالجوها معالجة شاملة مستقرة، بل كانت جزئياتها موزعة على أبواب متفرقة منها ما كان مبثوثا ضمن بحوثهم لظواهر الإبدال، والإعلال، والإمالة، وغيرها من المسائل الصوتية، والصرفية، والنحوية.

(5) حول أنواع المماثلة ينظر :

التطور اللغوي : مظاهره وعلله وقوانينه، د. رمضان عبد التواب - مكتبة الخانجي (القاهرة) دار الرفاعي (الرياض)، ط 1404هـ - 1983 م ص 22-23

(6) الأزهرى اللغوي، صاحب معجم تهذيب اللغة، وكتابه الزاهر، تأليف الدكتور سميح أبو مغلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - عمان - الأردن، ط 1: 1998 - 1418هـ - ص 89.

لم يستقر سيبويه (ت 180هـ) - كغيره من اللغويين - على مصطلح مقيد لهذه الظاهرة، بل راح ينعتها بجملة من التسميات منها :

* **المضارعة** (7) : عقد سيبويه عنواناً تحت هذا المصطلح سماه : «هذا باب الحرف الذي يضارع به حرف من موضعه، والحرف الذي يضارع به ذلك الحرف وليس من موضعه» (8) ، وهو يعني بالحرف الذي من موضعه الصاد الساكنة، إذا كانت بعد دال، فإن تحركت الصاد لم تبدل لأنه قد وقع بينهما شيء : «فأما الذي يضارع به الحرف الذي من مخرجه فالصاد الساكنة إذا كانت بعدها الدال ، و ذلك نحو مصدر وأصدر والتصدير» (9) في هذا النص تتضح ظاهرة المضارعة الصوتية التي يعنيها سيبويه، فهو يرى أن إدغام الصاد في الدال، أو إبدال الدال حرفاً يناسب الصاد كالطاء في نحو مصدر، وأصدر، والتصدير غير ممكن، ويفسر ما حدث في هذه الأمثلة، بأنه مضارعة للصاد بالزاي أي تقريبها منها، أي عن طريق إدناء الصاد المهموسة من الدال المجهورة وهذا بإشراكها شيئاً من جهر الزاي الذي يشاركها في المخرج والرخاوة والصفير ويتفق و الدال

7 - يدل المعنى العام للفظ **المضارعة** على المشابهة ورد في لسان العرب هو المضارع المشبه، والمضارعة المشابهة، و المضارعة للشيء أن يضارعه كأنه مثله، أو شبهه... المضارعة المشابهة والمقاربة قال الأزهري : والنحويون يقولون الفعل المستقبل مضارع لما شكلته الأسماء فيما يلحقه من الإعراب، والمضارع من الأفعال ما أشبه الأسماء وهو الفعل الآتي والحاضر. و المضارع في العروض : مفاعيلن فاعلاتن مفاعيل فاعلاتن، سمي بذلك لأنه ضارع المجتث " لسان العرب ابن منظور، مادة (ض ر ع)

8 - الكتاب : سيبويه تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون، دار الجيل بيروت ط 1، 1411هـ - 1991م ج :

4 ص : 477.

9 - نفسه و الصفحة نفسها.

جهرًا: «فلما كانتا من نفس الحرف أجريتا مجر المضاعف، والذي هو من نفس الحرف في باب مددت، فجعلوا الأول تابعا للآخر **فضارعوا** به أشبه الحروف بالبدال من موضعه و هي الزاي لأنها مجهورة غير مطبقة، ولم يبدلوها زايا خالصة كراهية الإجحاف بها للإطباق» (10) وهذا النوع من المماثلة أشار إليه علماء الأصوات المحدثون و صنفوه ضمن المماثلة المدبرة الجزئية في حالة الاتصال (11).

بعد أن شرح سيبويه ما يعنيه بالحرف الذي يضارع به حرف من موضعه انتقل إلى الحديث عن الشق الآخر من هذا الباب وهو الحرف الذي يضارع به ذلك الحرف وليس من موضعه، أي ليس من مخرج الصاد والسين و الزاي، هو الشين لأن مخرج الشين طرف اللسان مع ما فوقه من الحنك الأعلى في حين أن مخرج أصوات الصغير (الصاد-السين- الزاي) من طرف اللسان، وأطراف الثنايا السفلى (12) ولما كانت الدال في كلمة «أشوق» مجهورة تأثرت بها الشين التي هي في - نظر سيبويه- في الهمس والرخاوة، كالصاد والسين، فصارت الشين مجهورة فضارعوها بالزاي: «وأما الحرف الذي ليس من موضعه فالشين لأنها استطالت حتى خالطت أعلى الثنيتين و هي في الهمس والرخاوة كالصاد والسين وإذا أجريت فيها الصوت وجدت ذلك بين طرف

10 - المصدر نفسه ص: 478.

11 - ينظر: التطور اللغوي مظاهره و علله و قوانينه. د. رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي القاهرة- دار الرفاعي الرياض ط 1- 1404هـ- 1983م ص: 34 .

12 - ينظر: الأصوات اللغوية د. عبد القادر عبد الجليل، ص: 130، 131.

لسانك و انفراج أعلى الشيتين، و ذلك قولك أشدق، فتضارع بها الزاي»⁽¹³⁾ في المثال الذي أورده سيبويه (أشدق) تماثلت الشين مع الدال التالية لها في الجهر، فصارت النظير المجهور للشين، وفي الحقيقة أنه يتحدث عن صورة صوتية واحدة، وهي تلك الشين التي كالجيم، و قد وصفها ابن جني بقوله: «و أما الشين التي كالجيم، فهي التي يقل تفشيها، واستطالتها، و تتراجع قليلا متصعدة نحو الجيم»⁽¹⁴⁾ و هذا النوع من المماثلة في الدرس الصوتي الحديث يسمى بالتماثل المدبر الجزئي في حالة الاتصال⁽¹⁵⁾.

* الإبدال أو القلب :

يطلق سيبويه على المماثلة الإبدال وهو عنده لون من التقريب بين الأصوات ليتم التجانس و التماثل من ذلك إبدال الصاد زايا خالصة في نحو التصدير، والفصد، وأصدرت فقالوا فيها التزدير والفزد وازدردت⁽¹⁶⁾ وقد علل ذلك قائلا: «و إنما دعاهم إلى أن يقربوها و يبدلوها أن يكون عملهم من وجه واحد وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد»⁽¹⁷⁾ والذي يقصده سيبويه بأن يكون عملهم من وجه واحد أي إبدال الصاد زايا لأنها أختها في مجموعة الأصوات الصفرية، والفرق بينهما أن

13 - الكتاب - سيبويه ج 4 ص: 474.

14 - الخصائص أبو فتح ابن جني تحقيق محمد عل النجار دار الكتاب العربي بيروت ج 2 ص: 133 .

15 - ينظر : التطور اللغوي : مظاهره و علله و قوانينه د. رمضان عبد التواب ص: 34.

16 - ينظر : الكتاب سيبويه ج 4 ص: 478.

17 - المصدر نفسه و الصفحة نفسها.

الصاد مهموسة والزاي مجهورة أبدلت زايا، لتناسب أو تماثل الدال في الجهر.

ومن السياقات اللغوية التي وظف فيها مصطلح القلب للدلالة على المماثلة قلب السين صادًا، إذا كانت مسبقة بصوت مستعلي في مثل **صبت وصبقت**: «أبدلوا من موضع السين أشبه الحروف بالقاف ليكون العمل من وجه واحد، وهي الصاد، لأن الصاد تصعد إلى الخنك الأعلى للإطباق فشبهوا هذا بإبدالهم الطاء في مصطبر و الدال في مزدجر» (18) فالصاد من حروف الإطباق، وهي حرف مستعل لأن للسان معها يلتصق بالطبق فينتج عن ذلك تفخيما ، و مما توصف به حروف الإطباق أنها فخمة ، أما قوله ليكون العمل من وجه واحد ، أي ليكون قبل القاف حرف مستعل فجيء بحرف مستعل يضارع استعلاء القاف و هو الصاد بهدف تحقيق التجانس والانسجام لأنه من الصعب الانتقال من الإستفال إلى الاستعلاء.

* الإدغام :

من الألقاب التي خص بها سيبويه أيضا ما يعرف في الدرس الصوتي الحديث بالمماثلة الكاملة الإدغام، ولتعدد أوجه هذه الظاهرة نجد سيبويه قد خصص تحت باب الإدغام الرئيسي أبوابا فرعية لدراسة مواضيعه المختلفة، فقد عالج في الباب الأول إدغام الحرفين المثليين اسماء : «هذا

باب الإدغام في الحرفين المثليين اللذين تضع لسانك لهما موضعاً واحداً لا يزول عنه»⁽¹⁹⁾ و في الباب الثاني عالج إدغام الحرفين المتقاربين أطلق عليه اسم: «هذا باب الإدغام في الحروف المتقاربة التي هي من مخرج واحد»⁽²⁰⁾

أما الباب الثالث فقد أسماه «هذا باب الإدغام في حروف طرف اللسان والثنايا»⁽²¹⁾

* الإمالة :

الإمالة⁽²²⁾ ظاهرة صوتية تهدف إلى نوع من المماثلة بين الحركات، وتقري بعضها من بعض، وهي وسيلة من وسائل تيسير النطق، وبذل أقل مجهود عضلي، إذ الغرض منها في الأعم الأغلب تحقيق الانسجام

19 - الكتاب ج 4 ص: 437.

20 - المصدر نفسه ص: 445.

21 - نفسه ص: 460.

22 - الإمالة لغة من الميل وهو العدول إلى الشيء والإقبال عليه وكذلك الميلان، ومال الشيء يميل ميلاً ومالاً وغميلاً (ينظر لسان العرب ابن منظور مادة مال).

اصطلاحاً: جنوح بالفتحة إلى صوت الكسرة، وبالألف إلى صوت الياء وخير ما يمثل هذا التعريف قول ابن الحاجب: «الإمالة أن ينحى بالفتحة نحو الكسرة». شرح الشافعية لابن الحاجب ج 3 ص: 4. أو هي نطق الفتحة نطقاً أمامياً (دروس في علم الأصوات العربية جان كاتينو ص: 156). ونحسب أن المعنى الاصطلاحي للإمالة قاصر على أداء المعنى اللغوي وذلك أن الميل عن الفتحة كما يكون إلى الكسرة يكون إلى الضمة، وقد نبه إلى ذلك ابن جني: «و أما ألف التفتيح فهي التي تجدها بين الألف والواو نحو قولهم: سلام عليك: وقام زيد وعلى هذا كتبوا الصلوة والزكوة والحيوة بالواو لأن الألف مالت نحو الواو. » (سر صناعة الإعراب ج 1 ص: 50). وقد نبه المحدثون من علماء الأصوات إلى هذا النوع من الإمالة، ورأى بعضهم أنه كما يمال الفتح إلى الكسر قد يمال إلى الضم (ينظر في اللهجات العربية إبراهيم أنيس ص: 56). وقد درس النحاة والقراء الإمالة فهي عندهم ذات أسماء متعددة فالشديدة تسمى أحياناً التكنير والبطح، والإضعاف، والمتوسطة بين ين يقال لها التقليل والتلطيف (ينظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج 2 ص: 24).

الصوتي، الذي يعد ضرباً من المماثلة، وقد صرح بذلك ابن يعيش: «هو تقريب الأصوات بعضها من بعض لضرب من التشاكل». (23) كما ذكر ابن الجزري أن الفائدة منها هي: «سهولة اللفظ، وذلك أن اللسان يرتفع بالفتح، وينحدر بالإمالة، والانحدار أخف على اللسان من الارتفاع». (24) وقد نبه إلى هذا النوع الحاصل بين الصوائت العديد من النحاة، والقراء القدامى، ونجد دلالة هذا المصطلح عن سيبويه الذي نسبته إلى الخليل: «فزعم الخليل أن اجنّاح الألف أخف عليهم، يعني الإمالة». (25) وذكر في موضع آخر: «وقال الخليل: لو سميت رجلاً بها امرأة جاز فيها الإمالة». (26)

والإمالة عند سيبويه هي تقريب صوت من صوت: «فالألف تمال إذا كان بعدها حرف مكسور وذلك قولك غابد، وعالم، ومساجد، ومفاتيح، وعذافر، وهابيل، وإنما أملوها للكسرة التي بعدها أرادوا أن يقربوها منها كما قربوا في الإدغام الصاد من الزاي حين قالوا (صدر) فجعلوها بين الصاد والزاي التماس الخفة». (27) وتعليلها عنده هو الاقتصاد في الجهد العضلي، وهو ما عبر عنه بقوله: «فكما يريد في الإدغام أن يرفع لسانه من موضع واحد، كذلك يقرب الحرف إلى الحرف عل قدر ذلك». (28) ولا

23 - شرح المفصل لابن يعيش ج 9 ص: 54.

24 - النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج 2 ص: 28.

25 - الكتاب لسبويه ج 3 ص: 278.

26 - المصدر نفسه ج 4 ص: 135.

27 - المصدر نفسه ص: 117.

28 - المصدر نفسه و الصفحة نفسها.

شك أن تقريب الفتح من الكسر فيه من تيسير عملية النطق ما يجعل المتكلم يبذل أقل مجهود عضلي، ويمثل سيبويه لهذه الظاهرة بجملة من الكلمات من مثل: عماد، سربال، شملال، كلاب،⁽²⁹⁾ فحين نميل ألف عالم نكون قد قربنا الألف من كسرة لاحقة وهي كسرة اللام، وهذا تأثر رجعي إذ تأثرت الألف بالكسرة الموالية لها، أما في سربال فقد تأثرت الألف بكسرة سابقة فأميلت حتى وإن كان بينها وبين الكسرة حرف ساكن، ذلك لأن الحرف الساكن عند سيبويه: «ليس بحاجز قوي»⁽³⁰⁾ وهذا التأثير تأثر تقدمي إذ تأثرت الكسرة وهي الحركة الأولى في الألف فأمالته.

ومن صور التغيرات التماثلية الخاصة بالصوائت نذكر ما ساقه سيبويه عن إمالة الألف للياء يقول: «و مما تمال فيه ألفه قولهم: كيال، وبياع، وسمعنا بعض من يوثق بعربيته يقول كيال كما ترى، فيميل، وإنما فعلوا هذا لأن قبلها ياء فصارت بمنزلة الكسرة التي تكون قبلها نحو سراج وجمال... ويقولون شوك السيال والصياح، كما قلت: كيال وبياع وقالوا شيبان وقيس عيلان وغيلان فأمالوا للياء.»⁽³¹⁾ تمال الألف إذا سبقت ياء سواء جاورتها في مثل كيال وبياع أو فصل بينهما فاصل في مثل شيبان وهي هنا بمنزلة الكسرة التي قبلها في نحو سراج وجمال، والكسرة أخت الياء وهذا تأثر تقدمي إذ تأثر الثاني بالأول.

29 - ينظر المصدر نفسه ص: 117.

30 - المصدر نفسه و الصفحة نفسها.

31 - الكتاب لسيبويه ج 4 ص: 121 و 122.

ومن نماذج التأثير الرجعي ما ذكره عن إمالة ما فيه راء نحو: قارب والكافرون حيث أن الراء تغلب الألف فتؤثر فيه، وتميله، وإنما حدث ذلك لأن الراء مكسورة والكسرة المتأخرة عن الألف تجعله ممال إلى الألف وأبلغ ما تمال فيه الألف نحو الياء إذا سبقها حرف من حروف الاستعلاء، وقد نتصور مدى صعوبة تحقيق كلمة مثل: غارم إذ الغين حرف مستعلي، مفخم و ما يزيده استعلاء، و تفخيما الفتحة الطويلة بعد الألف، ثم ينتقل بنا اللسان إلى حرف مستفل، مرقق و هو الراء يقول سيويوه: «و مما تغلب فيه الراء قولك: قارب و غارم و هذا طارد وكذلك جميع المستعلية إذا كانت الراء مكسورة بعد الألف التي تليها و ذلك لأن الراء لما كانت تقوى على كسر الألف في فعال في الجر وفعال، لما ذكرنا من التضعيف، قويت على هذه الألفات إذا كنت إنما تضع لسانك في موضع استعلاء ثم تنحدر وصارت المستعلية هنا بمنزلتها في قفاف.» (32)

* الاتباع؛

مما سجله اللغويون القدامى ظاهرة أطلقوا عليها: «الاتباع» وهي ضرب من ضروب تأثير الصوائت المتجاورة بعضها ببعض، ويطلق عليها اللغويون المحدثون اسم: «التوافق الحركي» (33) vowel harmony وهذه الظاهرة تدخل أيضا في باب المماثلة، وهي مماثلة لحركة أخرى مماثلة تامة.

32 - المصدر نفسه ص: 136 و 137.

33 - ينظر الأصوات اللغوية إبراهيم أنيس ص: 207.

يعد سيبويه من النحاة الأوائل الذين أدركوا وجود هذا النوع من المماثلة في اللهجات العربية، و دلل عليها مستخدماً لفظ الاتباع حيناً، وواصفاً الظاهرة حيناً آخر، فمن المواطن التي وظف فيها هذا المصطلح قوله: «واعلم أن قوماً من ربيعة يقولون (منهم) اتبعوها الكسرة، و لم يكن المسكن حاجزاً حصيناً عندهم». ⁽³⁴⁾ استعمل هنا لفظ الاتباع قاصداً به المماثلة في مسارها التقديمي بين كسرة الميم، و ضمة الهاء، وقد أطلق اللغويون على هذه الظاهرة اسم «الوهم» يقول جلال الدين السيوطي: «و من ذلك الوهم في لغة كلب يقولون منهم و عنهم و بينهم، وإن لم يكن قبل الهاء ياء ولا كسرة» ⁽³⁵⁾ وعزيت إلى قبيلة كلب وهي من القبائل البدوية التي تميل إلى الانسجام بين أصواتها لأن هذه الظاهرة في هدفها العام تندرج ضمن مماثلة حركة لحركة تسهيلاً لعملية النطق، و إن كان د. إبراهيم أنيس له تفسير آخر حيث يرى أن لهجة كلب من الممكن أن تكون قد تأثرت بمن جاورها من لغات سامية كالآرامية، و العبرية اللتان تؤثران الكسر في مثل هذه الضمائر ⁽³⁶⁾

كما يستعمل سيبويه مصطلح الاتباع في صيغة الفعل في سياق حديثه عن كسر ضمير المخاطبين يقول: «وقال ناس من بكر بن وائل: من أحلامكم، وبكم، شبهها بالهاء لأنها علم إضمار، و قد وقعت بعد

34 - الكتاب لسيبويه ج 4 ص: 196.

35 - المزهر في علوم اللغة و أنواعها جلال الدين السيوطي ج 1 ص: 222.

36 - ينظر في اللهجات العربية لإبراهيم أنيس ص: 95.

الكسرة، فاتبع الكسرة الكسرة، حين كان حرف إضممار و كان أخف عليه أن يضم بعد أن يكسر وهي رديئة جدا»⁽³⁷⁾ رغم أنه يصف هذه اللهجة التي نسبها إلى بكر بن وائل بالردية جدا فانه يعلل هذا الاتباع بأنه أخف على اللسان من الانتقال من كسرة إلى ضمة حين قال «اتبع الكسرة كسرة» فنص صراحة على أن هذه اللهجة لون من ألوان الاتباع أو الانسجام الحركي يهدف إلى التقليل من الجهد العضلي، و ذلك بجعل الحركتين متماثلتين تماثلا تقديما، و تسمى هذه الظاهرة باسم «الوكم»: «و من ذلك الوكم في لغة ربيعة و هم قوم من كلب يقولون عليكم و بكم حيث كان قبل الكاف ياء أو كسرة.»⁽³⁸⁾ ومن معاني الوكم الرد الشديد يقول ابن منظور: «وكم الرجل وكما: رده عن حاجته اشد الرد.»⁽³⁹⁾ ولعل التسمية جاءت من هذا المعنى لأن أصحاب هذه اللهجة يردون الضم إلى الكسر.

ومن صور الاتباع عند سيبويه ما ذكره عن كسر ضمير الغائب المفرد لما قبله من كسرة أو ياء يقول: «اعلم أن أصلها الضم و بعدها الواو، لأنها في الكلام كله هكذا، إلا أن تدركها هذه العلة التي أذكرها لك، و ليس يمنعهم ما أذكر لك أيضا من أن يخرجوها على الأصل فلهاء تكسر إذا كان قبلها ياء لأنها خفية، كما أن الياء خفية، و هي من حروف الزيادة،

37 - الكتاب لسبويه ج 4 ص: 197.

38 - المزهر في علوم اللغة و أنواعها للسيوطي ج 1 ص: 222.

39 - لسان العرب لابن منظور مادة (و ك م)

كما أن الياء من حروف الزيادة، وهي من موضع الألف وهي أشبه الحروف بالياء، فكما أمالوا الألف في مواضع استخفافا كذلك كسروا هذه الهاء، وقلبوا الواو ياء، لأنه لا تثبت واو ساكنة وقبلها كسرة، فالكسرة هنا كالإمالة في الألف لكسرة ما قبلها وما بعدها نحو: كلاب وعابد وذلك قولك: مررت بهي قبل، ولديهي مال، ومررت بدأرهي قبل، وأهل الحجاز يقولون: مررت بهو قبل، ولديهو مال، ويقراءون: "فخسفنا بهو و بدأرهو الأرض." (40) (41)

يعتبر سيبويه أن الأصل في ضمير الغائب أن تعقبه ضمة طويلة وهو يتحدث دائما عن الواو في هذا الصدد كما لو كان الضمير مكونا من هاء تليها واو، وحدد المواضع التي كسرت فيها هذه الهاء وذلك إذا كان قبلها ياء أو كسرة، فهذا تأثير مقبل.

ومن مظاهر الاتباع عنده ما ذكره عن كسر الفاء لكسر العين يقول: «وفي فاعيل لغتان فاعيل و فاعيل إذا كان الثاني من الحروف الستة (42) مطرد ذلك فيهما لا ينكسر في فاعيل ولا فاعل، إذا كان كذلك كسرت الفاء في لغة تميم، وذلك قولك: لثيم وشهيد، وسعيد، ونحيف، ورغيف... وإنما كان هذا في هذه الحروف، لأن هذه الحروف قد فعلت في يفعل ما ذكرت لك حيث كانت لامات من فتح العين، ولم تفتح هي أنفسها هنا لأنه ليس في الكلام فاعيل، وكراهية أن يلتبس فعل بفعل فيخرج من هذه

40 - سورة القصص الآية: 81.

41 - الكتاب لسيبويه ج 4 ص: 195.

42 - يعني حروف الخلق.

الحروف فعل، فلزمها الكسر هنا وكان أقرب الأشياء إلى الفتح وكان من الحروف التي تقع الفتحة قبلها لما ذكرت لك. (43)

يشير سيبويه في هذا النص إلى أن الانسجام الصوتي وسيلة من وسائل تيسير النطق، وذلك عندما ذهب إلى أن بعض العرب (44) تكسر فاء الفعل لكسرة عينه في فعيل، وهو تأثر رجعي، وإنما دعاهم إلى ذلك دفعا لمشقة الانتقال من فتح إلى كسر، أو من علو إلى انحدار لأن أصوات الحلق هي أقصى الحروف مخرجا، وأبعدها في جهاز التصويت، والانتقال بالفتح في حروف من حروف الفم، أو الشفتين إلى الكسر في حرف من حروف الحلق مبعث صعوبة غير يسيرة، فتبعت حركة الفاء حركة العين توخيا للاقتصاد في الجهد العضلي، تحقيقا للانسجام الصوتي، وهو ما عبر عنه: «فكسرت ما قبلها حيث لزمها الكسر وكان ذلك أخف عليهم حيث كانت الكسرة تشبه الألف، فأرادوا أن يكون العمل من وجه واحد». (45)

ينعت بعض الدارسين المحدثين عملية اتباع حركة الفاء لحركة العين ب: «مشاكلة التهيؤ» (46) وكأن الفاء تنهياً لكسر العين، وقد نحس بذلك

43 - المصدر السابق ج 4 ص: 107 و 108.

44 - صرح سيبويه بأن الذين مالوا إلى هذا الاتباع هم تميم، وأضاف غيرهم إلى تميم من جاورهم من سكان نجد وكذا قيس وأسد يقول صاحب اللسان: «لغة تميم شهد بكسر الشين يكسرون فعلا في كل شيء كان ثانياه أحد حروف الحلق، وكذلك سقلى مضر يقولون فعلا أي بالكسر، قال ولغة شعاء يكسرون كل فعيل» لسان العرب ابن منظور مادة (ش هـ د)

45 - الكتاب لسبويه ج 4 ص: 108.

46 - ينظر: الامالة في القراءات واللهجات العربية د. عبد الفتاح شلبي دار نهضة مصر للطبع والنشر القاهرة 1391هـ 1971م ط 2 ص: 255.

و نحن نردد الصيغة أكثر من مرة لأن اللسان تحذوه رغبة في أن يتخلص من فتح الفاء خاصة في صيغة فعيل التي تعقب فيها كسرة الياء العين وهي كسرة طويلة، فليس غريبا أن نجد تمثيما تميل إلى كسر الفاء اتباعا للعين، ولا يتنافى هذا العزو من أن الاتباع أو الانسجام الصوتي ميزة من ميزات اللهجات البدوية، و أثر من آثار السرعة في الكلام.

خاتمة :

من كل ما تقدم من وصف سيبويه لظاهرة المماثلة، نخلص إلى النتائج التالية :

- 1 - إن مصطلح المماثلة ورد عند سيبويه في تحليله لقضايا لغوية : صوتية، و صرفية، و نحوية، و دلالية.
- 2 - تناول سيبويه مصطلح المماثلة في أكثر من موضع من كتابه، وتحدث عما يحدث من تأثير الأصوات المتجاوزة بعضها ببعض.
- 3 - لم يخص سيبويه هذه الظاهرة بمصطلح مقيد لها، مثل المضارعة، بل جاءت مظاهرها موزعة على أبواب متفرقة، و بتسميات متباينة كالإبدال، و القلب، والإدغام، و الامالة، والاتباع ...
- 4 - إن هذا التعدد في المصطلحات للظاهرة الصوتية الواحدة لا يعني غياب فكرة المصطلح، أو عدم نضجها لدى سيبويه، أو لدى غيره من أئمة

اللسان العربي، بل العكس من ذلك فقد اختار أكثر الألفاظ استغراقا لمعانيه المراد التعبير عنها، لتفسير الكثير من المسائل اللغوية.

5. إن تخصيص سيبويه أكثر من مصطلح لظاهرة صوتية واحدة لا يعني أن أحد المصطلحات متطور عن الآخر، أو أدق منه، بل لقد سبقت جميعها لأداء المعنى.

6. تحدث سيبويه عن المماثلة بين الصوامت، كما تحدث عن المماثلة بين الصوائت، كحديثه عن مماثلة فتحة عين المضارع بما لامه، أو عينه حرف حلقي.

7. نقول في الأخير إن معالجة سيبويه للمماثلة لا تبتعد كثيرا عن الدراسات التي قيد بها علماء الأصوات المحدثون هذه الظاهرة، فعلى أن نستثمر هذه الجهود الرائدة، ونحسن توظيفها في ضوء المنهج الصوتي الحديث.

المصادر:

- القرآن الكريم: رواية ورش، دار الشروق: 1402هـ - 1982م.
- الكتاب: سيبويه تحقيق و شرح عبد السلام محمد هارون، دار الجليل - بيروت، ط1 - 1411هـ - 1991.

المراجع:

- الأصوات اللغوية: إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة: ط 4 - 1981م.
- الأصوات اللغوية: د. عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء للنشر والتوزيع عمان، الأردن، ط1، 1998م.
- الأزهري اللغوي: تأليف الدكتور سميح أبو المغلي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: عمان - الأردن: ط 1 - 1418هـ - 1998م.
- الامالة في القراءات واللهجات العربية: د. عبد الفتاح شلبي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة: ط2 - 1391هـ - 1971م.
- التطور اللغوي، مظاهره وعلله وقوانينه: د. رمضان عبد التواب - مكتبة الخانجي (القاهرة)، دار الرفاعي (الرياض)، ط 1404هـ - 1983
- الخصائص: أبو فتح ابن جني تحقيق محمد علي النجار دار الكتاب العربي بيروت
- دراسة الصوت اللغوي: د. أحمد مختار عمر دار الكتب ط3، 1405هـ - 1980م.

- دروس في علم الأصوات العربية: جان كانتينو، ترجمة الأستاذ صالح القرمادي، نشرات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية - تونس 1966م.
- سر صناعة الإعراب: ابن جنبي، تحقيق حسن هنداي، دار القلم دمشق سوريا، ط 1 1405هـ - 1985 م.
- شرح شافية ابن الحاجب: تأليف الشيخ رضي الدين الاسترابادي، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، 1395هـ - 1975م.
- شرح المفصل: ابن يعيش، عالم الكتب، بيروت، ب.ط.
- في اللهجات العربية: إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ط 9- 1995.
- لسان العرب: ابن منظور دار صادر للطباعة والنشر، دار بيروت للطباعة والنشر 1388هـ - 1968 م.
- المزهري في علوم اللغة وأنواعها: جلال الدين السيوطي شرحه وضبطه وعنون موضوعات وعلق حواشيه محمد أحمد جار المولى، علي بجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم: دار الجيل: بيروت - لبنان 1986م.
- النشر في القراءات العشر: ابن الجزري، دار الكتب العلمية بيروت- لبنان ط 1، 1418هـ - 1998م.

- المراجع الأجنبية:

- (1) An outline of English phonetics -Daniel Jones- W Heffer Sons LTD
Cambridge England 9th 1972.

من التراث العربي

شاعرات من الأندلس

د. محمد الشريف قاهر

جامعة الجزائر

لقد ازدهر المجتمع الأندلسي بعدد غير قليل من الأدبيات الشاعرات، اللاتي أسهمن بقسط وافر في إثراء الأدب الأندلسي، بألوان طريفة من موضوعات الشعر، فكان إثراؤهن للشعر أمرا واضحا في مجتمع كاد يكون كله شاعرا.

لقد عرف المشرق العربي عددا من الشواعر، على مرّ الأحقاب والقرون، يكثّر عددهن في فترات متقاربة حيناً، متباعدة أحياناً أخرى، أمثال الشاعرة المخضمة الباكية الراحلة الخنساء (1) وليلى

١ . تناصر بنت عمرو، أعظم شواعر العرب في الرثاء، قتل أخوها معاوية وصخر فرثتهما وحرّضت قومها على الأخذ بالنار، ولما جاء الإسلام أسلمت مع قومها، بني سليم وحسن إسلامها عاشت أكثر عمرها قبل الإسلام، وكان لها أربعة رجال شهدوا وقعة القادسية معها عام ١٦ هـ فحرضتهم على الجهاد فاستشهدوا جميعاً، وقالت: الحمد لله الذي شرفني بتلهم، وأرجو أن يجمعني بهم في مستقر الرحمة. توفيت في أوائل خلافة عثمان عام ٢٤ - ٦٤٦ م.

أنظر : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام لعمر رضا كحالة، ١ : ٣٦٠ - ٣٧١. مؤسسة الرسالة بيروت. ط ٣. ١٣٩٨ هـ / ١٩٧٧ م.

الأخيلية⁽²⁾ وعلمية بنت الخليفة العباسي المهدي⁽³⁾.
 وفضل وعلم⁽⁴⁾ وغيرهن، ولكن عدد هؤلاء قليل إذا قيس بعدد
 الشعراء في الأندلس، كما أن قصائدهن محدودة العدد بالنسبة
 للأندلسيات، فضلاً عن خضوعهن إلى حد ما لتقاليد معينة، لم
 يستطعن الإفلات منها، والخروج عن نطاقها، لأن المجتمع العربي المشرقي
 ظل على مدى قرون يحاسب المرأة على أقوالها وأفعالها أكثر مما يحاسب
 الرجل على ذلك.

أما في الأندلس فقد نالت المرأة حريتها في القول والعمل منذ نعومة
 أظفارها، لأنها نشأت في مجتمع مختلط، يشتمل على عناصر مختلفة،

2 - ليلي بنت عبد الله بن الرحال بن شداد بن كعب بن معاوية المسمى الأخيل، تعد من النساء البارزات في
 الشعر، لا يتقدم عليها إلا الخنساء - وكانت فصيحة، ذكية، جميلة، اشتهرت بأخبارها مع توبة، وكانت بينها وبين
 النابتة المجدي مهاجرة، توفيت في «ساوة» عام 80 هـ 700 م.

انظر ترجمتها في أعلام النساء. 4 : 321 - 334.

3 - عليّة أخت إبراهيم بن المهدي من أبيه، كانت حسنة الصوت، مطبوعة على الغناء، تقول الشعر كأخيها،
 ونضع فيه ألقاباً جيدة تلقى على جواربها. عرفت بالورع والفضيلة، ولدت عام 160 وتوفيت سنة 210 هـ -
 922 م.

أما أبوها محمد بن عبد الله المنصور المعروف بالمهدي، فقد ولد عام 126 وتولى الخلافة بعد أبيه عام 158 هـ -
 775 م وهو ثالث الخلفاء العباسيين، كان شهماً كريماً، شديداً على أهل الزندقة والإلحاد، يقول الشعر ويجيده،
 وتوفي عام 169 هـ - 785 م.

أنظر : أ - أعلام النساء. 3 : 334 - 342.

ب - فوات الوفيات، لمحمد بن شاكر الكتبي، 2 : 197 - 200. ترجمة : 326 مطبعة السعادة بمصر 1951.

4 - فضل وعلم : جاريان كانتا بالمدينة المنورة، ثم انتقلتا إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وفيها نبغتا في
 الشعر، والغناء، ومنها اشترينا للأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط صاحب الأندلس، وخص لهما ولغيرهما من
 الجواري قصراً أسماه «دار المدينيات».

أنظر أخبارهما في أ - أعلام النساء، 3 : 331.

ب - أعلام النساء 4 : 177.

ويحوي أجناسا كثيرة، ويعتق ديانات متعددة. وهذا المجتمع الجديد يُكوّنه العربي المسلم، والمغربي المؤمن، والإسباني المعتقد للإسلام عن اقتناع ودراية وإيمان. والإسباني المظهر للإيمان تقية وهروبا من دفع الجزية، وجريا وراء مصلحة شخصية، والإسباني الذي اختار البقاء على دينه المسيحي، فنال في ظل الحكم الإسلامي من الحرية في التفكير، والتعبير، والتدين، ما لم ينله أثناء الحكم الروماني، والوندالي، والقوطي، منذ أقدم العصور.

كما يضم المجتمع الأندلسي الجديد عددا من اليهود الذين تغنن القوطيون في اضطهادهم، ومصادرة أملاكهم، واستعباد أولادهم، وهدم بيعهم، فلما أطلت شمس الإسلام على هذه البلاد، شملتهم عنايته، وأظلتهم رحمته، فسعدوا، وشعروا بالعزة بعد الهوان، وبالراحة بعد المشقة، وبالحرية في المعتقد بعد الحرمان، وتلك هي أخلاقيات الإسلام، رحمة وشفقة، وحرية واطمئنانا، فلا عدوان إلا على الظالمين.

وفي هذا المجتمع السعيد نشأت المرأة الأندلسية، وشاركت الرجل في كل مجالات الحياة، فتعلمت، واعتلت المناصب العليا، وأصبحت أستاذة، ومعلمة، وناسخة، وراوية للأحاديث، وشاعرة، وناثرة، ومؤلفة. فقالت الشعر في كل موضوعاته، وأطرقت كل أبوابه، فكانت تتغزل بالرجل كما كان الرجل يتغزل بها. وتلح في إغرائه، وتصف له محاسنها، وتذهب إليه زائرة تدق بابه ليلا، وتناجيه بالأشعر الرقيقة الموحية جهارا. كما أنها كانت تمدح الملوك والقادة والولاة، وتنال على ذلك الجوائز والهبات، وتحرز على الصكوك والضيايع، كما كانت تفخر، ولكن في ظل

أنوثتها، وجنسها اللطيف، بل وتقول في الهجاء، ولا تتورع في استعمال أساليب الذين أفحشوا فيه من الشعراء المشاركة المشهورين، كبشار⁽⁵⁾ وابن سكرة⁽⁶⁾ وابن الحجاج⁽⁷⁾، بل ربما استعملت ألفاظا قدرة يتحرج المحتشمون من الرجال من استعمالها.

ولعل من الأنصاف للبحث، والتدقيق للتاريخ، أن نشير إلى أن المرأة الأندلسية الأدبية الشاعرة كلما كانت قريبة العهد بزمان الفتح، كانت أقرب إلى عروبتها وتقاليدها، وبالتالي إلى حشمتها، والتردد في استعمال كلام الفحش، والتعبير البذء، وكلما بُعد بها العهد، وطالت بها السنون، والأعوام، كانت أقرب إلى التحلل والتحرر، والإسفاف في القول والفعل.

وما لا شك فيه أن هذا التحلل والتفتح قد ورثته على المجتمع

5 - بشار بن برد (95 - 167 هـ - 714 - 784 م) كنيته أبو معاذ، ولد ونشأ بالبصرة، وقدم إلى بغداد، أدرك الدولتين الأموية والعباسية، كان صريحا. أشعر المولدين على الإطلاق، واشتهر بالهجاء المقذع الفاحش، والغزل الماجن، وكانت عادته إذا أراد أن ينشد أو يتكلم يلتفت عن يمينه وشماله، ويصفق بإحدى يديه على الأخرى. اتهم بالزندقة فمات ضربا بالسياط، ودفن بالبصرة، له ديوان شعر أنظر: مطبوع الأعلام، لخير الدين الزركلي، 2: 24 - 25، ط 3.

6 - ابن سكرة: محمد بن عبد الله بن محمد الهاشمي، أبو الحسن، من ولد علي بن المهدي العباسي، شاعر معروف من أهل بغداد، توفي ببغداد عام 385 هـ - 995 م. أنظر: أ - الأعلام للزركلي، 7: 99.

ب - يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، للتعاليبي، 3: 3 - 30، مطبعة السعادة - القاهرة - ط 2 1375 هـ / 1956 م.

7 - أبو الحجاج: الحسين بن أحمد بن محمد بن جعفر أبو عبد الله البغدادي الشيعي، اشتهر بالخلاعة والسخف في شعره، مع عدوية ألفاظه وسلامة شعره من التكلف. تولى المحاسبة في بغداد أيام بني بويه، ولم يحسن التصرف فعزل، وصفه الذهبي بشاعر العصر وبقية الأدب وأمير الفحش، وبأنه كان أمة في نظم القبائح وخفة الروح، له ديوان كبير يبلغ عشرة مجلدات، توفي عام 391 هـ - 1001 م. ترجمته في: أ - يتيمة الدهر لأبي منصور الثعالبين 3: 31 - 104. ب - الأعلام للزركلي 2: 349.

الأندلسي المختلط الأجناس والأديان، فكثيرا من الشواعر أبأؤهن عرب،
وأمهاتهن إسبانيات مسلمات، أو مسيحيات، وفيهن من أمهاتهن
يهوديات لحما ودما، عربيات لغة ولسانا.

كما كانت المرأة في الأندلس تتمتع بقسط وافر من النفوذ في المجال
السياسي، فقد كانت (طروب) زوجة الأمير هشام بن عبد الرحمن
الداخل (172 - 180) صاحبة سلطة واسعة، وكلمة نافذة مسموعة، فكان
أصحاب الحاجات يتخذونها وسيلة لقضاء مآربهم لدى زوجها الأمير
الأموي، كما أن جواري عبد الرحمن الأوسط، (206 - 238) طروب، وقلة،
ومدثر، والشفاء، لهن سلطان ودلال على الأمير محمد، (238 - 273)
وخاصة طروب التي كانت تسعى جاهدة لتولية ولدها عبد الله ولاية
العهد، بدلا من أخيه لأبيه الأمير محمد فجمعت من أجل الوصول إلى
غرضها أموالا طائلة، لتستميل بها قلوب القادة والولاة، وأعيان الأمة.
وكان عبد الرحمن أسير هواها، يعمل جاهدا على إرضائها، وإكرامها، رغم
هجرانها له، وتصديها عنه، بل لم تتردد في تدبير مؤامرة لاغتياله، لأنه لم
يستجب لرغبتها في تولية ابنها ولاية العهد، فاستعانت على تنفيذ خطتها
بالفتى الصقلي «نصر» ولكن المؤامرة انكشفت وذلك في عام 236 هـ.

فقد أمر عبد الرحمن الأوسط فتاه بشرب الدواء الذي أحضره له،
وكان فيه السم، فما على الفتى الصقلي الضاحية إلا أن يشرب السم،
الذي أعده لسيده، في صورة دواء، فمات الفتى في الحال. ورغم هذه
المؤامرة الخطيرة فقد ظل عبد الرحمن يهيم بطروب، ولا يكاد يتحمل

غيابها عنه، وابتعادها عليه، إذ كان كثير الميل للنساء، وشهواته. يروي بعض المؤرخين أن الأمير عبد الرحمن أغضب يوما جاريته طروب، فهجرته، ولزمت مقصورتها، فأرسل إليها يسترضيها فامتنعت عليه، وأغلقت على نفسها باب مجلسها، فأمر أن يسد الباب عليها من خارجه ببدر من الدراهم، استرضاء لها، واستعطافا لوصلها، فلما علمت ذلك، فتحت الباب وتساقطت البدر من كل جانب، فأخذتها وكبت على رجله تقبله .

وإذا واصلنا سيرنا إلى العصر الذهبي بالأندلس عصر عبد الرحمن الناصر (300-350) الذي تسمى أيام حكمه بالأندلس بأيام العروس، لازدهار البلاد ازدهارا لم تعرف له مثيلا من قبل . فقد تقدمت الأندلس في هذا العصر تقدما عظيما، في كل المجالات العلمية، منها والأدبية والاقتصادية والسياسية. ولعبت المرأة الأندلسية في هذه الفترة دورا هاما في السياسة والعلم والأدب. وكانت أم عبد الرحمن الناصر نصرانية تدعى «مارية» كما كانت زوجته «رسيس» مقربة إليه، يحبها ويُجلُّها، ولا يكاد يرفض لها طلبا أو رغبة، فقد كانت تخرج معه في موكبه، وهي تلبس قلنسوة، وتتقلد سيفًا، ويشق معها شوارع العاصمة قرطبة، وهي على هذه الحال . حتى يبلغا مدينة الزهراء، هذه المدينة التي بناها بضواحي قرطبة، بناءً على رغبة الزوجة المدللة المفضلة، وجلب لها الصناعات والرخام والزخارف من الشرق، ومن الغرب، حتى غدت مضرب الأمثال، في الكمال والروعة والجمال .

ولا ننسى ما كانت تتمتع به «صبح» زوجة الخليفة الحكم بن عبد الرحمن، الملقب بالمستنصر (350-366) وكانت نصرانية نافارية، من بنات ملوك الإيبان، بالشمال، وقد أخذت أسيرة، في إحدى المعارك الطاحنة، والتي انتصر فيها المسلمون على الإيبان، وهي تتمتع بقسط وافر من الجمال.

وقد أنجبت للحكم هشاماً، الذي تولّى الخلافة بعد وفاة أبيه (366-392)، ويلقب بالمؤيد، وتولى بعده الخلافة أخوه عبد الرحمن المعروف بشنجل.

وفي عهد هشام المؤيد، سطع نجم المنصور بن أبي عامر، حيث تولى الحجابة، ورئاسة الدولة، بمساعدة «صبح» لأن هشاماً كان صغيراً. ومع مرور الأيام أصبح المنصور هو الحاكم الحقيقي، فنظم الجيش، وشجع العلم، وقهر الأعداء. وكان يباشر بنفسه قيادة المعارك، ويصحب معه الشعراء، والكتاب، والعلماء، ويعقد معهم جلسات بحث، ومناظرة، وأنشأ ديواناً رتب فيه أسماء الشعراء، والكتاب، وجعل لكل واحد منهم مرتباً شهرياً يتقاضاه حسب درجته ومكانته العلمية، والأدبية.

وهكذا كان عهد الحاجب المنصور العامري عهد ازدهار، عرفت فيه الأندلس استقراراً ورخاء، وقوة ومهابة، لم تعرفه منذ زمان. ولم تكن المرأة الأندلسية لها وجود في الخفاء فقط، بل كانت تتولّى المناصب العليا في الدولة، فهذه «مزنة» كانت كاتبة للخليفة الناصر لدين

الله، كما كانت «لبنى» كاتبة للخليفة المستنصر بالله، وكانت شاعرة وعالمة بالنحو، والعروض، والحساب، وذات خط جميل .

أما إذا عدنا إلى مشاركة المرأة في الميدان الشعري فإنّ استعراض كل شاعرات الأندلس، ولو باختصار شديد في مقال واحد يكاد يكون مستحيلا، وظلما للأدب وأهله، ولكننا سنحاول جاهدين استعراض أشهرهن، والإشارة إلى ما لهن من إنتاج، وما طرقت من أبواب الشعر، وأجدن فيه، بادئين حسب التسلسل الزمني، فأول شاعرة أندلسية المولد والنشأة والتكوين نعتز عليها في كتب الأدب والتاريخ هي :

- حسانة التميمية : (8) .

حسانة بنت أبي المخشي عاصم بن زيد، أحد قدامى الشعراء بالأندلس، تنتمي إلى قبيلة تميم العربية المعروفة، ولدت في أواخر المائة الثانية، تعلمت الأدب والشعر على والدها الذي كان شاعرا، فقد مدح الأمير الأموي الحكم بن هشام بن عبد الرحمن (180 - 206) فنال إعجابه، وأجازه، حتى إذا توفي والدها وهي لا تزال بكرا، لم تتزوج بعد، نراها تتجه إلى ممدوح أبيها الحكم، وتمدحه بشعر جزل متين، فيقع شعرها من الأمير موقعا حسنا، ورغم ما كان معروفا عنه من القسوة والغلظة،

8 - أنظر - ترجمتها : أ - فطح الطيب للمقري، تحقيق : د / إحسان عباس، ج 4، ص / 167 - 168 ترجمة : 2.

ب - أعلام النساء لعمر رضا كحالة، 1 : 256 - 157.

ج - الأدب الأندلسي للدكتور مصطفى الشكعة : 121 / 126.

ولكنه كان يطرب للشعر، ويخضع لسلطان الهوى والفن، إذ كان هو بدوره شاعرا. والقصيدة التي تأثر بها الحكم وأجازها عليها لم يبق منها إلا بعض أبيات هي :

إنسي إليك أبا العاصي موجعة	أبا الخشي سقته الواكف الدم
قد كنت أرتع في نعيماء عاكفة	فاليوم أوي إلى نعماك يا حكم
أنت الإمام الذي انقاد الأنام له	وملكته مقاليد النهى الأمم
لا شيء أخشى إذا ما كنت لي كنفا	أوي إليه ولا يعرفوني العدم
لا زلت بالعزة القعساء مرتديا	حتى تذلل إليك العرب والعجم

فهذه المقطوعة كما نرى واضحة المعنى، منسقة الألفاظ، قوية الجرس الموسيقي، متسمة بعمق الشكوى التي تمس شغاف القلوب، فقد استطاعت أن تغزو قلب الحكم القاسي، وتلينه لها، وتفتح أذنيه إلى شكواها، وقد ضربت له على الوتر الحساس، فالأمويون بالأندلس كانوا يحنون دائما إلى مجدهم الأفل بالشرق، ويحلمون بالعودة إلى عاصمة خلافتهم - دمشق - فاقراً إن شئت للمرة الثانية البيتين الثالث والأخير:

أنت الإمام الذي انقاد الأنام له	وملكته مقاليد النهى الأمم
لا زلت بالعزة القعساء مرتديا	حتى تذلل إليك العرب والعجم

ونرى أبا العاصي الحكم يستحسن الشعر، ويعجب به، فيأمر لها بإجراء مرتب منظم، ويكتب إلى عامله بإقليم البيرة - غرناطة - حاليا، يأمره بالإحسان إليها، والاهتمام بأمرها، والرعاية بمصالحها. فتعود الشاعرة

حسانة إلى مسقط رأسها البيرة، وقد نالت مرادها، وحملت معها هدايا ثمينة، وعطاء عظيماً، تقديراً وشرفاً.

حتى إذا مات الحكم، وتولى الحكم بعده ابنه عبد الرحمن الأوسط (206-238) نرى حسانة تشد الرحال إلى قرطبة من جديد، وتلتجئ إلى الأمير الجديد، وتستغيث به بما نالها من جور والي «البيرة» جابر بن لبيد، الذي أوقف لها ذلك المرتب، التي كانت تأخذه في عهد الحكم، فقد استطاعت الشاعرة أن تصل إلى قلب عبد الرحمن بن الحكم بسهولة، وتؤثر فيه، فتمدحه بقصيدة فاهتز لشعرها، واستمع لندائها، وشكواها، فغضب على الوالي، وعزله عن الولاية، وأكرم الشاعرة أيما إكرام وأقر لها جميع ما كانت تتمتع به في حياة والده الراحل.

إلى ذي الندى والمجد سارت ركائبي	على شحط ⁽⁹⁾ تصلى بنار الهواجر
ليجبر صدغي إنه خير جابر	ويمنعني من ذي الظلامة جابر
فإني وأيتامسي بقبضة كفه	كذي ريش أضحي في مخالب كاسر
جدير لثلي أن يقال مروعة	لموت أبي العاصي الذي كان ناصري
سقاء الحيا لو كان حياً لما اعتدى	علي زمان باطش بطش قادر
أيمحو الذي خطته يمناه جابر	لقد سام بالأملأك إحدى الكبائر

ولما أكملت الشاعرة إنشاد قصيدتها، رفعت إلى الأمير خط والده، وحكت له جميع ما أصابها، بعد ثكلها وأنها وأيتامها في حالة ضيق وعسر شديدين، فرق لها الأمير، وأخذ منها خط أبيه، فقبل الصك، ووضع

9 - شحط المكان يشحط بفتح الحاء : بعد.

على عينيه، وقال : «تعدى ابن لبيد طوره، حين رام نقض رأي الحكم،
وحسبنا أن نسلك سبيله بعده، ونحفظ بعد موته عهده، انصرفي يا
حسانة، فقد عزلته لك، ووقع لها بمثل توقيع أبيه، فقبلت يده، وأمر
لها بجائزة، فانصرفت تجرّ معها الهدايا، وتغمرها البشري، فلما
وصلت إلى بلدها «البيرة» بعثت إلى الأمير بقصيدة فيها الشكر
 والمدح والثناء جاء فيها :

ابن الهشامين خَيْرُ الناس مَأْتِرَةً وخير منتجع يوم الرواد
إن هز يوم الوغى أثناء صعوده روى أنابها من صرف فرصاد (10)
قل للإمام أيا خير السورى نسباً مقابلاً بين آباء وأجداد
جودت (11) طبعي ولم ترض الظلّامة لي فهالك فضل نساء رائح غاد
فإن أقمتُ ففي نِعْمائك عاطفة وإن رحلتُ فقد زودتني زادي
وإذا خطونا خطوة أخرى نحو القرن الثالث الهجري وجدنا أول من
يعترض طريقنا هي الشاعرة

عائشة القرطبية : (12) (ت 400 هـ)

عائشة بنت أحمد بن محمد بن قادم، ولدت بقرطبة، وبها نشأت

10 - الفرصاد : اسم يطلق على صبغ أحمر، والمراد هنا دم الأعداء.

11 - جود الشيء : أجاده، يقال تجادوا في المحاورة انظروا أيهم أجود حجة.

12 - أنظر ترجمتها - أ - نفع الطيب للمقري، تحقيق : د / إحسان عباس، 4 : 290 ترجمة : 17.

- ب - كتاب الصلة لابن بشكوال، 2 / 692 ترجمة : 1531.

- ج - أعلام النساء، لعمر رضا كحالة، 6 : 3.

- د - الأعلام للزركلي 4 : 4.

وتعلمت، وأخذت عن علماء وأدباء وشعراء عظام، حتى غدت عالمة وأديبة وشاعرة، يشار إليها بالبنان، ويقر لها بالسبق في ميدان الأدب، والشعر، والفصاحة والبيان، فقد وصفها المقرئ نقلاً عن ابن حيان في كتابه المقتبس، وابن سعيد في كتابه «المغرب» بأنها من عجائب زمانها، وغرائب أوانها، لم يكن في زمانها من حرائر الأندلس من يعد لها علماً وفهماً، وأدباً، وشعراً وفصاحة، يضاف إلى حسن خطها، وجمال كتابتها، فقد كانت تكتب المصاحف.

ويبدو أنها ورثت الأدب عن عائلتها، وتثقت بصفة خاصة على يد عمها «الشيخ» أبي عبد الله محمد بن الكتابي، الطبيب، صاحب كتاب «التشبيهات من أشعار أهل الأندلس» (13).

والذي يتابع حياتها، وشعرها، وأخبارها، لا يملك إلا الإعجاب بها، والتقدير لملكها. فهي شاعرة قديرة، متمكنة من اللغة، مطلعة على الأدب، في جميع أطواره، عفيفة، متدينة، طاهرة الذيل، ذات أخلاق فاضلة، تمدح الملوك والحكام، ولكن في غير مسكنة ولا مذلة. فقد دخلت يوماً على الحاجب عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر الملقب بالمظفر (392-399) وبين يديه ابن له، فارتجلت في الحال:

أراك الله فيه ما تريد ولا برحست معاليه تزيد
فقد دلت مخالته على ما تؤلمه وطالعه السعيد

تشوقت الجياد له وهُزَّأك حسام هوى وأشرق البنود
فسوف تراه بدرا في سماء من العليا كواكبه الجنود (14)
وكيف يخيب شبلُ قدَّمته إلى العليا ضراغمة أسود
فأنتم آل عامر خيرُ آل زكا الأبناء (15) منكم والحدود
وليدكم لدى رأيٍ كشيخ وشيخكم لدى حرب وليد
ومما يستدعي الانتباه أن هذه المقطوعة الشعرية العذبة، وما فيها من
معان سامية، ومديح صادق، قد جاءت مرتجلة، ومن وحي الوقت
والساعة، فأَي مديح أفضل من أن يكون آل عامر، وليدهم رأيُه سديد،
وتفكيره مستقيم، وشيخهم ضربه للأعداء شديد، وبأسه في الحرب عنيد،
فالصغار مثل الشيوخ في أصالة الرأي، وإصابة الغرض، والشيوخ
كالشباب في شدة البأس وقوة العزيمة، والثبات في الأهوال والمعارك.
ويبدو أن شاعرتنا عائشة لم تؤثر فيها الحياة القرطبية الناعمة، بما فيها
من مفاتن ومغريات، بل بقيت فيها دماء العروبة نابضة، فيها إباء وكبرياء،
وترفع، وعلو النفس. فقد فضَّلت أن تعيش عذراء، من أن تتزوج غير
كفء لها، خطبها بعض الشعراء ممن دونها حسبا ونسبا، فلم ترض أن
يكون لها قرينا وبعلا، فكتبت إليه تُعنفه وتزجره وتؤدِّبه، لأنه لم يعرف
قدره، ولم يلزم حدوده، وهي تعترف بأنها أنثى، ولكنها لا تقبل أن تكون
مناخا لكل طارق.

14 - في أعلام النساء : هذا البيت ذكر بعد البيت الذي بعده.

15 - في أعلام النساء : الأباء بدل الأبناء.

أنا لبوة لكنني لا أرتضي نفسي مناخا طول دهري من أحد
ولو أنني اختار ذلك لم أجب كلبا وكم غلقت سمعي عن أسد

وهكذا قدر لعائشة القرطبية أن تموت عذراء، وأن تلتحق بربها دون أن يكون لها زوج، لأنها لم تجد من يماثلها، وذلك في حدود الأربعمئة للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم. بعد أن تركت وراءها شعرا كثيرا، وخزانة كبيرة من الكتب إذ كانت لها عناية خاصة بجمع الكتب.

ومن شاعرات القرن الرابع الهجري بالأندلس :

- حفصة بنت حمدون الحجازية : ⁽¹⁶⁾ (من القرن الرابع)

هذه الشاعرة يبدو أنها كانت ذات مال وجاه عريضين، يصفها ابن الأبار بأنها عالمة وأديبة وشاعرة، وهي أول شاعرة أندلسية نعت لها على شعر غزلي رقيق.

وذكر ابن سعيد أنها من أهل المائة الرابعة، وأن بلدها يفخر بها، لجودة شعرها، وغزارة إنتاجها، وأن وادي الحجازة بلدها، وهذه المدينة القريبة من مدريد، وطليلة، كان لها رجال عظام من العلماء، وفحول من الشعراء،

16 - أنظر ترجمتها في نفح الطيب للمقري، تحقيق : د / إحسان عباس، 4 : 285 - 286. ترجمة : 13

أ - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد المغربي، تحقيق : د / شوقي ضيف، ج 2 / ص 37 - 38 ترجمة : 357.

ب - نفح الطيب، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، 6 : 21 - 22.

ج - الأعلام للزركلي. 13 - 2 : 292

فلا عجب أن تخرج منها هذه الشاعرة العالمة، والأديبة، والغزيرة الإنتاج، ولكن هذه الغزارة لم يصلنا منها إلا التثرر القليل، الذي لا يشفي الغليل، مع الأسف الشديد.

ومن شعرها القليل الذي وصل إلينا، قولها في حبيب لها :
 لي حبيب لا ينثني لعتاب (17) وإذا ما تركته زاد تبها
 قال لي : هل رأيت لي من شبيه ؟ قلت أيضا : وهل ترى لي شبيها ؟
 وذكر لها ابن فرج في كتابه «الخدائق» :

يا وحشتي لأحتبي يا وحشة متمادية
 يا ليلة ودعتهم يا ليلة هي ماهية
 ومدحت أحد الوجهاء الأغنياء، الكرماء، يدعى ابن جميل،
 فاتخذت من اسمه وسيلة لإيداء ما كانت تخفيه في نفسها نحوه من
 عاطفة، وحب وهيام، ولكن ذلك في أدب وتهيب واحتشام :
 رأى ابن جميل أن يرى الدهر مجملا فكل الورى قد عمهم سبب نعمته
 له خلق كالخمر بعد امتزاجها وحسن فما أحلاه من حين خلقتها
 بوجه كمثل الشمس يدعو ببشره عيوناً ويعيشها بإفراط هيئته
 والعبيد والخدم فيهم «مكر» وأحيانا، خبث متعمد، وخاصة إذا كان
 المتصرف فيهم امرأة محترمة، ذات حياء وأصالة، وفي عصر حفصة قال
 المتنبي، يصف العبيد الماكرين :

لا تشتتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس منا كيد

ولذا نرى الشاعرة تتبرم من غبيدها، وتضيق ذرعا من بلادة بعضهم،
ومن مكر الآخرين، فهي تستغيث من الجاهلين البلداء منهم ومن
الأذكياء النجباء على حد سواء.

يارب إني من عبيدي على جمر الغضاما فيهم من نجيب (18)
إما جهول أبله متعب أو فطن من كيده لا يجيب
وإذا واصلنا السير وأسرعنا الخطى، وأطلنا على القرن الخامس
الهجري وجدنا فيضا هائلا من الشواعر الأندلسيات، فقد ازدهرت سوق
الشعر، في الأندلس. ونفقت بضاعة الأدب في هذا القرن، بشكل لم ير
له مثل من قبل، فلا تكاد تخلو مدينة أندلسية من شاعرة مرموقة، وأديبة
فذة، يشار إليها بالبنان، وتشيد بذكرها الألسنة والأقلام، فمنهن :

- حمدة بنت زياد المؤدب (ت نحو 600) (19)

ولدت حمدة أو حمدونة على اختلاف بين الرواة بنت زياد المؤدب،
وعاشت على واد جميل أخاذ يقال له وادي آش، يقع قرب غرناطة المدينة

18 - الغصن : شجر من الأثل، خشبه من أصلب الخشب، وجمره يبقى زمانا طويلا، لا ينطفئ. واحدته
غصاة، وأهل الغصن أهل نجد لكثرة هنالك.

19 - أنظر ترجمتها : أ - الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب، تحقيق : محمد عبد الله عنان، ج 1، ص 489-490.
ب - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، ج 2، ص 145 - 146 . ترجمة : 451.

ج - نفح الطيب للمقري، تحقيق : د / إحسان عباس، 4 : 287 - 289 ترجمة : 16 .
د - رايات البرزين وغايات المميزين : 94 - 95 ترجمة : 86. وجعل لها عنوان : «خنساء العرب» لابن سعيد
الأندلسي (ت : 685 هـ). تحقيق : الدكتور النعمان عبد المتعال القاضي مطابع الأهرام التجارية، القاهرة :
1393 هـ - 1973 م.

هـ - أعلام النساء لعمر رضا كحالة، 1 : 292 - 293.

و - الأعلام للزركلي، 2 : 305.

التي تحوطها البساتين والأشجار، وتحف بها الأزهار كما تحف الأهداب بالعيون، فيها جمال وروعة، وفيها سحر وجمال، ومدينة حمدة تابعة لها، ومكملة لعظمتها وأناقتها.

يصف أبو عبد الله محمد لسان الدين بن الخطيب حمدة بأنها نبيلة شاعرة وكاتبة.

ويصفها ابن سعيد مع أختها زينب بأنهما «شاعرتان أدبيتان، من أهل الجمال، والمال، والمعارف، والصون، على أن حب الأدب كان يحملهما على مخالطة أهله، مع صيانة مشهورة، ونزاهة موثوق بها».

ويذكر ابن سعيد بأن والده قال في حمدة: «هي شاعرة الأندلس» على أيامها، كما ينعتها عمه بأنها خنساء المغرب، لقوة شعرها، وصدق عاطفتها، وحرارة أسلوبها، وهي صاحبة المقطوعة التي نالت إعجاب الأدباء، وتقديرهم على مر العصور والأيام، وذلك لما تشتمل عليها من سحر البيان، وروعة التشبيه، وجمال التصوير، وبلاغة المعنى وحسن الخيال، وقوة السبك.

والمقطوعة هي :

وقنا لفحة الرمضاء وادٍ	سقاء مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحه فحننا علينا	حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا	ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا	فيحجبها ويأذن للنسيم
يُرْوَعُ حصاه حالية العذارى	فتلمس جانب العقد النظيم

وقد أخذ بعض النقاد على الشاعرة استعمال كلمة «المرضعات»، وكان الأفضل لها تعويضها بالأمهات، لأن المرضعة قد تكون أمًّا وقد تكون غيرها.

ويبدو أن المؤرخ المشرقي «ابن العديم» صاحب كتاب «بغية الطلب في تاريخ حلب» قد استكثر على الشاعرة الأندلسية أن تقول مثل هذا الشعر الجميل، فقال: إن الأبيات للشاعر المشرقي المنازي، مما جعل أبا جعفر الأندلسي الغرناطي نزيل حلب، يتصدى للرد على ابن العديم فيقول: «إن هذه الأبيات نسبها أهل هذه البلاد - المشرق - للمنازي من شعرائهم، وركبوا التعصب في جادة ادّعائهم، وهي أبيات لم يخلبها غير لسانها، ولا رقم بريدتها غير إحسانها.

ولقد رأيت المؤرخين من أهل بلادنا، بالأندلس أثبتوها لها قبل أن يخرج المنازي من العدم إلى الوجود، ويتصف بلفظة الموجود (20).

فإذا ظن بعض الأدباء على شاعرتنا أن تجود قريحتها بمثل الأبيات السابقة، فماذا يقولون في المقطوعة التالية؟ وهي لا تقل روعة وجمالاً من الأولى. هذه المقطوعة التي تصف فيها الشاعرة الفاتنة المفتونة، خروجها مع صبية المدينة إلى السباحة والاستحمام في وادي شنيل بغرناطة، وفي المغرب: خرجت - حمدة - إلى وادي مدينة أش مع جوار، فسيحت معهن وكان لها منهن هوى (21)، فلما نضت عنها ثيابها وعامت قالت :

20 - نفع الطيب للمقري، 4 : 289 تحقيق د / إحسان عباس.

21 - المغرب في جلى المغرب، 2 : 146.

أباح الدمعُ أسراري بسوادي له للحسن آثارٌ بوادي (22)
 فمن نهر يطوف بكل أرض ومن روض يرفُّ بكل وادي
 ومن بين الأطباء مهابة إنس سبت (23) لُبِّي وقد ملكت فوادي
 لها لحظ ترقده لأمرٍ وذاك الأمر يعنني رقادِي
 إذا سدلت ذوائبها عليها رأيت البدر في أفق السواد
 كأن الصبح مات له شقيق فمن حزن تسربل بالحداد
 أرأيتم هذه المقارنة البارعة؟ بين بياض الوجه وسواد الشعر، الذي يغطي الرأس والوجه، وينزل على الكتفين، وأثناء السباحة والاستحمام يعلو فوق الماء. ألاحظتم هذه الصورة الجميلة التي تعقدها بين هذه الحسناء المكتملة الشباب، وبين البدر في أفقه أثناء الليل؟ وأخيرا انظروا إلى البيت الأخي، وما فيه من روعة التشبيه، وجمال التعبير، فبزوغ الفجر، وما فيه من حسن وبهاء، وظهور بياض ناصع في سواد قائم، فهو شبيه بحسناء فاتنة، علمت بوفاة أخ شقيق لها، فأسرعت إلى لباس السواد، إعلانا للحزن، وإظهارا للنازلة الفاجعة.

ولعل من المناسب أن نذكر بأن بعض المدن الأندلسية كانت تلبس البياض في أيام الحزن، والحداد، على عكس ما هو معروف من لبس السواد أيام الكوارث والمصائب خاصة في الوفيات، والمآتم: قال الحلواني:

إذا كان البياض لباسَ حزن بأنديلس فذاك من الصواب
 ألم ترني لبست بياض شعري لأنني قد حزنت على الشباب ؟

22 - في أعلام النساء : ورد عجز هذا البيت : له في الحسن أسرار بوادي . وكذا في رايات المبرزين لابن سعيد .

23 - في نفع الطيب : لهالبي بدل سبت لبّي .

حقاً إن هذا التعليل الذي اعتمد عليه الشاعر لتعليل منطقي مقبول، ولذلك نرى شاعراً آخر يشيد بهذه العادة في الحزن، ويؤكد بأن ذلك من فطن أهل الأندلس، وذكائهم :

ألا يا أهل أندلس فطنتم بلطفكم إلى أمر عجيب
لبستم في مآتمكم بياضاً فجئتم منه في زي غريب
صدقتم فالبياض لباس حزن ولا حزن أشد من المشيب (24)

وبعد هذا الاستطراد نعود إلى شاعرتنا حمدة، ونتابع حديثنا معها، ونقف وقفة قصيرة حول هذه المقطوعة السحرية الموحية :

ولما أبى الواشون إلّا قتالنا وما لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة وقلّ حماتي عند ذاك وأنصاري
غزوتهم من مقلتيك (25) وأدمعي ومن نفسي بالسيف والسيّل (26) والنار

وقبل أن نغادر الحديث عن حمدونة إلى غيرها، أحب أن أشير إلى أن هذه الأبيات أيضاً قد نسبها بعض المشاركة إلى غيرها وأن أبا جعفر الأندلسي قد تصدّى للرد عليهم، ونقل كلام الرعيني: وقال: إن مؤرخي بلادنا نسبوها لحمدة من قبل أن يوجد المنازي الذي ينسبها له أهل المشرق وقد رأيت أن أذكر كلامه برمته ونصه: كانت من ذوي

24 - أنظر تفح الطيب للمقري، ج 2، ص / 404. محمد محي الدين عبد الحميد - دار الكتاب العربي ببيروت - لبنان.

25 - في رايات المبرزين : من ناظريك

26 - في المغرب في حلى المغرب : والماء بدل : السيّل

الألباب، وفحول أهل الأداب، حتى إن بعض المنتحلين تعلق بهذه الأهداف وادّعى نظم هذه البيتين :

ولما أبى الوشوان إلّا قتالنا وما لهم عندي وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة وقلّ حماتي عند ذاك وأنصاري
لما فيهما من المعاني والألفاظ العذاب، وما غره في ذلك إلّا بُعد دارها،
وخلو هذه البلاد المشرقية من أخبارها (27).

ـ نزهون الغرناطية (ت 550 هـ - 1155 م)

لا تغادر غرناطة الفيحاء قبل أن نقف عند شاعرة مرموقة، وأديبة مشهورة موصوفة بخفة الروح، وحفظ الشعر، والمعرفة بضرب الأمثال، مع ما تتمتع به من جمال فائق، وقوام لائق، وحسن رائق، لها مع الشعراء والوزراء مساجلات فكهة، ومحاورات شيقة، فهي تمثل شاعرة المدنية الأندلسية، في القرن السادس الهجري، حيث نراها قد ألقت بنفسها في الحياة الأدبية بلا تحفظ، وغمست نفسها في المجون، غمسا كاملا حتى لقبت بشاعرة غرناطة المجونية، بحيث لا تتورّع من مخالطة الرجال، ومطارحتهم كل جوانب الحياة الشريفة منها، وغير الشريفة (28).

27 - أنظر نفع الطيب للمقري، تحقيق د / إحسان عباس، 4 : 288 - 289.

28 - ترجمتها في : أ - المغرب في حلى المغرب لابن سعيد، 2 / 121، ترجمة 438.

ب - رايات المبرزين وغايات المميزين لابن سعيد : 91 - 92 ترجمة 82.

ج - بغية الملتمس، للضبي، / 546 ترجمة : 1591.

د - الإحاطة في أخبار غرناطة، لابن الخطيب، 1 / 424 - 427.

هـ - نفع الطيب للمقري، 4 / 295 ترجمة 24، تحقيق د / إحسان عباس.

و - أعلام النساء لرؤسا كحالة، 5 / 167 - 170.

ز - الأعلام للزركلي، 8 : 332.

ولذلك نرى ابن سعيد يصفها بالشاعرة الماجنة، الكثيرة النوادر، ولعل ذلك المجون الذي جمع بينها وبين الشاعر أبي بكر الخزومي الأعمى، يوضح لنا أحسن توضيح مدى ما وصلت إليه الشاعرة، ومجتمعها الغرناطي، من التحلل الأخلاقي، والتفسخ، وقلة الحشمة والحياء.

فقد دعا الوزير أبو بكر بن سعيد الغرناطي جماعة من أهل الأدب والفن، إلى ندوة من ندواته، الكثيرة المألوفة، وحضر المجلس الشاعرة نزهون، والشاعر الأعمى الخزومي، فلما استوى بالشاعر المجلس، ووجد نفسه بين روائع النند، والعود، والأزهار، وبين الموسيقى، والغناء، والأوتار، قال :

دار السَّعِيدِيّ ذِي أُمِّ دَارِ رَضْوَانٍ مَا تَشْتَهِي النَّفْسُ فِيهَا حَاضِرُ دَانِي؟
سَقَتِ أَبَارِقَهَا لِلنَّدِّ سَحْبُ نَدَى تُخَدِّي بِرَعْدٍ لِأَوْتَارٍ وَعِيدَانِ
وَالْبَرْقُ مِنْ كَسَلِ دَنْ سَاكِبٍ مَطْرًا يَحْيَا بِهِ مَيْتُ أَفْكَارٍ وَأَشْجَانِ
هَذَا النِّعِيمُ الَّذِي كُنَّا نُحَدِّثُهُ وَلَا سَبِيلَ لَهُ إِلَّا بِأَذَانِ

فلما سمعت نزهون المقطوعة التفتت إليه قائلة :

وتراك يا أستاذ قديم النعمة بمجمر ندى وغناء وشراب، فتعجب من تأتية وتشبهه بنعيم الجنة، وتقول: ما كان يعلم إلا بالسماع، ولا يبلغ إليه بالعيان ولكن من يجيء من حصن المدور - بلد الخزومي - وينشأ بين تيوس وبقر، من أين له معرفة بمجالس النعيم؟ وإلى هنا، يتحرك الخزومي بعنف، ويتنحنج، ويشتم من صوته رائحة السخط والغضب، ويتساءل

مستهزئاً من هذه الفاضلة؟ فتجيبه نزهون: عجوز في مقام أمك، فقال -
سريعاً - كذبت ما هذا صوت عجوز وإنما هذه نغمة محترفة تشم روائح
منها على فرسخ...

وهنا يحاول الوزير صاحب الدعوة، أن يتدارك الموقف، ويلطف الجو،
ويعيد الشاعرين إلى مقام الأدب واللياقة، ولكن بلا جدوى - فهذه
ماكراً ماجنة، وهذا شاعر أعمى فكيف يستطيع الوزير كبح جماح
الشاعرين، وإرجاع الشاردين إلى الجادة والصواب فقال الوزير: هذه
نزهون بنت القلاعي الشاعرة الأدبية، فقال: سمعت لا أسمعها إلا
خيراً، ولا أراها إلا أيراً، فقالت له: يا شيخ سوء تناقضت وأي خير للمرأة
مثل ما ذكرت.

ففكر ساعة ثم قال الخزومي :

على وجه نزهون من الحسن مسحةً وإن كان قد أمسى من الضوء عارياً (29)
قواصد نزهون توارك غيرها ومن قصد البحر استقل السواقيا
قالت نزهون على الفور :

قل للوضع مقالاً يتلى إلى حين يحشر
من المدور أنشئت والخرامنه أعطر
حيث البداوة أمست في أهلها تبخر

29 - يروي الشطر الثاني من هذا البيت هكذا : وتحت الثياب العار لو كان بادياً وهو مأخوذ من ذي الرمة حيث
تقول :

على وجه مي مسحة من ملامحة وتحت الثياب العار لو كان بادياً

كما أخذ البيت الثاني من قول المتنبي في مدح كافور الأخشيدي :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر انتقل السواقيا

لذاك أمسيت صبا بكل شيء مُدَوَّر
 خلقت أعمى ولكن تهيم في كُلِّ أعور
 جازيتُ هجواً بهجو فقل لعنت⁽³⁰⁾ من أشعر ؟
 إن كنتُ في الخلق أنثى فإن شعري مُذَكَّر
 ويروي المقرئ أنها أجابته بأبيات أخرى هي :

إن كان ما قلت حقاً من بعض عهد كريم
 فصار ذكري ذميما يُعزى إلى كل لوم
 وسرتُ أقبح شيء في صورة الخزومي
 فقال لها اسمعي :

ألا قل لترهنة مالها تجر من التيه أذيالها
 ولو أبصرتُ بشة شمّرت كما عودتني سربالها

وهنا نرى الوزير أبا بكر بن سعيد يتدخل بشدة، ويقسم أن لا يزيد أحدهما على الآخر بكلمة هجاء، ولكن الخزومي يحييه قائلاً: أأكون هجاء الأندلس، وأكف عنها دون شيء؟

فيشتري الوزير منه عرضها، ويسكت الخزومي، ويخبو التراع، وتتحول هذه الخصومة إلى الود والمصاحبة، فقد أصبحت نزّهون إحدى تلميذات الخزومي، تتلقى عليه الأدب، واللغة، وتحضر حلقات دروسه باستمرار (31).

30 - في نفع الطيب : لعمرى بدل لعنت.

31 - أنظر : أ - النفع المقرئ ، ج 6 ، ص / 31 - 34 تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد

ب - نفع الطيب ، تحقيق د / إحسان عباس ، 1 : 190 - 193 .

تروي كتب الأدب أن الشاعر أبا بكر الكُتندي دخل يوما على
المخزومي، فوجد نزهون تدرس عليه، فأراد مداعبته بالشعر، ويقول له: إن
تلميذته فتنة للناظرين، وأن نعمة البصر قد فوتت عليه هذه المتعة، فقال
أبو بكر الكُتندي للمخزومي أجز:

لو كنت تبصر من تكلمه

فأفحم وأطال الفكر، فما وجد شيئا، فقالت نزهون: لغدوت أخرس
من خلاله

البدر يطلع من أزرته والغصن يمرح في غلائله

تلك هي قصتها مع المخزومي التي انتهت بسلام. وتذكر كتب التاريخ
الأدبي أن المخزومي كان حيا بعد الأربعين وخمسمائة من الهجرة النبوية
على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

أما قصتها مع الشاعر ابن قزمان، فهي لا تقل عن قصتها مع المخزومي
فقد جاء ابن قزمان إلى غرناطة، واجتمع به جماعة من الأدباء، بينهم
نزهون. وذلك بدعوة من الوزير أبي بكر بن سعيد، في منزله، فأنشد هم
ابن قزمان بعض شعره الجميل، وكان يتوقع كلمة استحسان وتشجيع من
الحاضرين، فإذا بالشاعرة نزهون تجابهه كعادتها بكل بذاءة ووقاحة،
أحسننت يا بقرة بني إسرائيل، إلا أنك لا تسر الناظرين، فيجيبها ابن
قزمان إن لم أسر الناظرين، فأنا أسر السامعين، وإنما يطلب سرور الناظرين
منك يا فاعلة يا صانعة. ومن شدة غضبه، وفقدان السيطرة على توازنه،
أسرع إلى بنت العنب يشربها بنهم، لعلها تنسيه ما سمع، فلما تمكن

السَّكر منه، قام متمايلًا، فيسقط في بركة ماء كانت بالجلس، فلم يخرج منها إلا وهو قد شرب كثيرا من الماء، وثيابه مبللة، فقال: اسمع يا وزير:

ايه أبا بكر- ولا حول لي بدفع أعيان وأنذال
وذات فرج واسع دافق بالماء يحكي حال أذيالي
غرقتني في الماء يا سيدي كَفَرَه بالتغريق في المال

فأمر الوزير بتجريد ثيابه، وخلع عليه ما يليق به، ومرّ عليهم يوم بعد عهدهم به من متعة، ونعيم، وشراب، وغناء، وترنيم، وهكذا نرى الوزير الغرناطي ابن سعيد يحمي الشاعرة مرتين، ويشترى عرضها بالإحسان إلى من أساءت إليهم.

لأن الوزير على ما يبدو كان على صلة وطيدة بها، وأنه كان يهواها، ومغرما بشعرها، وله معها مراسلات معروفة، ومداعبات مشهورة، كتب إليها مرة:

يا من له ألف خيل من عاشق وصديق
أراك خليست للناس س منزلا في الطريق

فأجابته مطمئنة إياه، ومؤكدة له بأنه الحبيب المفضل، واستعملت التورية، بأن أهل السنة والجماعة يقدمون أبا بكر على غيره من الخلفاء، والصحابة الكرام، فكذلك هي تقدمه على غيره...

حللت أبا بكر محلا منعتُه سواك وهل غير الحبيب له صدري
وإن كان لي كم من حبيب فإنما يقدم أهل الحق حُبَّ أبي بكر

• ولادة : (34) (ت : 484 هـ - 1091 م)

عاشت في القرن الخامس الهجري ونشأت في مجتمع حضاري راق، وتنتسب إلى بيت عريق، وأسرة حاكمة أصيلة، هذه الشاعرة الساحرة الفاتنة ببديع شعرها، وجمال منظرها، وحسن مخبرها، هي ولادة بنت أمير المؤمنين المستكفي، محمد ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر، ولدت بقرطبة، وترعرعت في بيت الخلافة، وتكونت على يد علماء أجلاء، وأدباء كبار، تولّى أبوها الحكم، وبويع بالخلافة لمدة قصيرة عام 416 م ولكنه أبعد عنها، لما كان يتصف به من الخلاعة والنذالة واللؤم، بحيث لم يذكره أحد - ممن قرأت لهم - من المؤرخين بخير، فقد اجتمعت فيه كل صفات الخساسة والوضاعة، كان عبيد شهواته، وضحية نزواته، فقد ثار عليه خصومه وهجموا عليه في بيته، فلبس لباس النساء، وفر إلى الثغر، وهناك مات ميتة مجهولة.

أما ابنته «ولادة» فقد بقيت بقرطبة، عاصمة الدولة، يجتمع عندها في

34 - ترجم لولادة عدد كبير من المؤرخين والأدباء منهم :

أ - المقرئ - نفح الطيب تحقيق : محمد محي الدين عبد الحميد، 6، ص / 536 ونفح الطيب، تحقيق د / إحسان عباس، 4 : 205 - 211 . ترجمة 9.

ب - ابن دحية، «المطرب من أشعار أهل المغرب» ص / 7 : تحقيق : الدكتور مصطفى عوض الكرم، الخرطوم 1954.

ج - ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة 1 / 429 - 432.

د - الفتح بن خافان، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، ص / 82 - 91 . تقديم : محمد العنابي. نشر المكتبة العتيقة تونس 1966.

هـ - ابن سعيد المغرب في حلى المغرب، 1 . 65 . 66 . 143 - 180.

و - ابن بشكوال، كتاب الصلة، 2 / 696 ترجمة : 1540.

ز - الأعلام للزركلي، 9 : 135 - 136

قصرها الشعراء والأدباء، ويتنافس في نيل رضاها الأدباء والشعراء والوزراء.

فقال ابن دحية في كتابه «المطرب» يصف ولادة، ومكانتها الأدبية، وكانت في نساء زمانها، واحدة أقرانها، حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومنبر، وحلاوة مورد ومصدر، وكان مجلسها بقرطبة منتدى لأحرار مصر، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر، يعشو أهل الأدب إلى ضوء غرتها، ويتها لك أفراد الشعراء والكتّاب على حلاوة عشرتها، إلى سهولة حجابها، وكثرة منتابها، فخلط ذلك بعلو نصاب، وسمو أحساب، على أنها سمح الله لنا ولها، وتغمد زلنا وزللها، أطرحت التحصيل، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، بقلّة مبالاتها، ومجاهراتها للذاتها.

وأما ذكاء خاطرها، وحرارة نوادرها فأية من آيات فاطرها⁽³⁵⁾، ويبدو أن ولادة بعد رحيل والدها، وجدت نفسها طليقة، مألها وفير، وجاهها عريض، ونبوغها في فنون الشعر والموسيقى والغناء شهير، ففتحت أبواب قصرها للأدباء والشعراء، ورجال الحكم، والدولة، تهییء لهم كل ما يحتاجونه من نعيم، وما يسمعون من أدب وشعر، ونقد سليم. وكانت تجلب إليها الأنظار، قبل الأذان والأذواق، فقد كتبت بماء الذهب على ثوبها الحريري الذي تضعه على كتفها بيتين من شعرها، يثيران

35- ابن دحية الكلبي : المطرب من أشعار أهل المغرب، ص 7 / 10.

الاهتمام، ويشدان إليها الأبصار، والعواطف، والأذهان، كتبت على
الجانب الأيمن :

أنا والله أصلح للمعالي أوأمشي مشيتي وأتبعه تيهي
وعلى الجانب الأيسر :
وأمكن عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلي من يشتهيها
وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف (36).

ولادة وابن زيدون :

وكان ابن زيدون (ت 463 هـ) الوزير، والشاعر، والناقد، أحد المترددين
إلى منتدى ولادة، يبتغي فيه تصيد الملقات، واغتنام المسرات، وإشباع
النفس. والعقل لما يلقى، ويقال، في كل المجالات، فأخذت منه ولادة قلبه،
وعقله، وسلبت له وتفكيره، فتعشقها أبو الوليد، وجرت له معها أخبار
مشهورة، ومواقف معروفة، وكانت تداعبه أحيانا، بهجائها اللاذع :

إن ابن زيدون على جهله يفتابني ظلما ولا ذنب لي
يلحظني شزرا إذا جئته كأنما جئت لأخصي علي

وتضرب له أحيانا أخرى المواعيد بالشعر، وتخرج بذلك عن المألوف،
إذ جرت العادة أن يذهب الرجل إلى المحبوبة، ويتكبد في سبيل ذلك
المشاق والصعاب، لا أن تدق المرأة باب المحبوب، وتذهب إليه بنفسها
بميعاد تضربها له مسبقا.

فقد تحدث أبو الوليد عن أول لقاء لهما في ليلة طويها في نعيم، ثم في عتاب أشبه بنعيم فقال :

كنت في أيام الشباب، وغمرة التّصاب، هائما بغادة، تُدعى ولادة،
أرى الحياة متعلقة بقربها، ولا يزيدني امتناعها إلا اغتباطا بها، فلما قُدر
اللقاء، وساعد القضاء كتبت إلي :

ترقب إذا جنّ الظلام زيارتي فإنني رأيت الليل أكتم للسر
وبي منك ما لو كان باليدّر ما بدا وبالليل ما أدجى وبالنجم لم يسر (37)
ويواصل ابن زيدون، واصفاً أول لقاء بينهما على انفراد، وأنه ينتظر
ساعة الميعاد قائلا :

فلما طوى النهار كافوره، ونشر الليل عبيره، أقبلت بقدر كالقضيب،
وردف كالكتيب، وقد أطبقت نرجس المقل، على ورد الخجل، فملنا على
روض مديح، وظلّ سجسج، قد قامت رايات أشجاره، وفاضت سلاسل
أنهاره، ودرّ الطل منثور، وجيب الراح مزورور، فلما شبيننا نارها، وأدركت
منا ثأرها، باح كلُّ منا بحبه، وشكا أليم ما بقلبه، وبتنا بليلة نجني أفران
الشغور، ونقطف رمان الصدور، ولما نشر الصبح لواءه، وطوى الليل
ظلماءه، ودعتها، وأنشدتها :

ودّع الصبر محباً ودّعك ذائع من سره ما استودعك
يقرع السنّ على أن لم يكن زاد في تلك الخطأ إذا شيعك

37- في نفح الطيب ورد هذا البيت :

وباليدّر لم يطلع وبالنجم لم يسر

وبي منك ما لو كان بالشمس لم تلح

ينا أخوا البدر سناء وسنا حفظ الله زمانا أطلعك
إن يطلُ بعدك ليلي فلکم بتُ أشكو قصر الليل معك (38)

ذلك أول لقاء على انفراد بين الشاعرين، على ما يصرح به ابن زيدون، وتلك هي ولادة بقدها، وردفها، وعينها الترجسيتين... ولم يكن هذا اللقاء هو الوحيد والفريد، بل تبعته لقاءات وسهرات، وليالي بيضاء هادئة، وها هو ابن زيدون يصف ليلة أخرى من تلك الليالي البيض، التي قضياها بين العود والغناء، وبين اللوم والعتاب، وسفك دماء الراح، إلى أن فصل بينهما الفجر والصباح، وقد أحضرت ولادة هذه المرة جارتها «عتبة» لتقوم بالخدمة، وتنشر البهجة والسرور في المجلس بالغناء والعود، فغنت لهما باختيار وأمر من ولادة :

أحبتنا إنني بلغت مؤملي وساعدني دهري وواصلني حبي
وجاء بهنّيني البشير بقربه فأعطيته نفسي وزدت له قلبي (39)

ويبدو أن الشاعر هو الذي ذهب إليها في هذه المرة، وأنها كانت في انتظاره، وبعثت من يشرف على استقباله، وقد أعجب ابن زيدون بصوت الجارية المغنية، وبحسن أدائها، فطلب منها الإعادة من غير استئذان ولادة، فدبت الغيرة في قلبها، وظهر أثر ذلك على وجهها، فانقلب الضياء ظلاما، والنهار ليلا، والابتسام تجهما. فاتجهت الأميرة الحبيبة إلى جارتها

38 - ديوان ابن زيدون ورسائله : 777 - 779. شرح وتحقيق : علي عبد العظيم، مكتبة نهضة مصر بالقاهرة 1957.

39 - ديوان ابن زيدون ورسائله : 120.

تضربها، وتعنقها، فأعرضت عن الحبيب، وترك ابن زيدون يصف ذلك
بقلمه السيل، فهو الذي عاش واكتوى، وشاهد المنظر والمحتوى.

قال ابن زيدون : فسألتها الإعادة بغير أمر ولادة، فخبا منها برقُ
التبسم، وبدا عارض التجهم، وعاتبت «عتبة» بل ضربتها، فقلت :

وما ضربت عتبي لذنّب أنتُ به ولكنّما ولادةٌ تشتهي ضربي

فقامت تجر الذيل عائرة به وتمسح طل الدمع بالعم الرطب (40)

فبتنا على العتاب، في غير اصطحاب، ودم المدام مسفوك، ومأخذ
اللهو متروك، فلما قامت خطباء الأطيّار، على منابر الأشجار، وأنفت من
الاعتراف، وباكرت إلى الانصراف، وشّت بمسك الأنفاس، على كافور
الأطراس.

أنباء و آراء

من أخبار مشروع الذخيرة العربية (أو الانترنت العربي)

هذه وثيقة رسمية أعدت من طرف مجموعة من الخبراء بطلب من الأمين العام لجامعة الدول العربية لدراسة هذا المشروع وتقديمه للجامعة. وقد ارتأينا نشره تعميماً للفائدة ولإطلاع العموم على أهمية هذا المشروع العظيم.

دراسة جدوى

دراسة لطريقة الانجاز المقترحة

دراسة الصعوبات والحلول المناسبة

أ- دراسة جدوى

المقدمة: إن هذا المشروع يبدو في أول وهلة طموحاً إلا أن فوائده كما سنبينه عظيمة جداً وكان علينا أن نمنع النظر في محتواه كما جاء في الوثيقة التي عُرضت علينا. وهي لا تفي في نظرنا، بكل ما في هذا المشروع من الفوائد ولم تنص على كل الصعوبات التي سيلاقها المنجزون للمشروع وإن كنا أفدنا مما جاء فيها من المعلومات فيما يخص تنظيم العمل ومبادئه، وحتى تكون لنا رؤية موضوعية وأوسع مما جاء في الوثيقة كان لا بد أن نلتقي بأصحاب المشروع الذين كانوا أصحاب التصور الحقيقي له ولكيفية إنجازه. وحصل ذلك بالفعل واستفسرناهم عن الكثير من الجوانب الهامة للمشروع وخاصة فيما يميزه عن المشاريع الأخرى العادية كتأليف الموسوعات الكبيرة مثلاً وكذلك عن الصعوبات وقد لمسنا بالفعل الصعوبة الكبيرة التي تتمثل في تخزين هذه الكمية الهائلة من النصوص فسألناهم عن ذلك فأجابوا بكلام جدّ مقنع ومثير لأنه فيه تنبيه ملح على مفهوم «العمل الجماعي المنظم وأهميته وعلى أنه هو وحده يمكن أن يضمن نجاح المشروع وإنجازه في أحسن الظروف.

وسنحاول أن نجيب في هذه الدراسة عن الكثير من التساؤلات الموضوعية وخاصة الفوائد وفي نفس الوقت عن الصعوبات وسوف نقترح حلولاً إيجابية بعد التشاور مع أصحاب المشروع.

فسنبداً بدراسة الجدوى أولاً:

ثم تتلو ذلك دراسة عن طريقة الإنجاز المقترحة.
وأخيرًا بذكر الصعوبات والعقبات والحلول المناسبة.

I - ما جاء في المشروع خاصًا بتحديد الذخيرة العربية وأهدافها والتعليق على ذلك.

(1) كيف يُحدّدها أصحاب المشروع:

« هي بنك آلي من النصوص العربية القديمة والحديثة مما أنتجه الفكر العربي. فهو «ديوان العرب» في عصرنا فسيكون آليا أي محسوبا وعلى شبكة الانترنت.

فهذا واضح: هو بنك آلي أي قاعدة معطيات حسب تعبير الاختصاصيين في الحاسوبيات.

وهو بنك نصوص لابتك مفردات أي ليس مجرد قاموس بل مجموعة من النصوص مندمجة حاسوبيا ليتمكن الحاسوب من المسح لكل النصوص دفعة واحدة أو جزء منها كبيرًا كان أم صغيرا أو نصا واحدا وغير ذلك. وصحيح أن هذا هو خاص بالذخيرة.

فهذا المسح الآلي للنصوص (العجيب السرعة) هو شبيه بالمسح المؤدى إلى فهرسة الأعلام والمفاهيم وأسماء الأماكن وغير ذلك من جهة أي إلى استخراج كل هذا وحصره وترتيبه مع شيء إضافي جديد وهو استحضار سياقاته وذكر المرجع الكامل الدقيق. ويزيد على ذلك الحاسوب الإحصاء وتحديد تردّد العناصر في النص الواحد أو في أكثر من نص.

وللذخيرة صفة أخرى تمتاز بها عن غيرها وهي أنها ذخيرة مفتوحة على المستقبل غير معلقة مثل أكثر ما هو مكتوب فهي قابلة للزيادة والتجديد للمعلومات العلمية والتقنية وفوق كل شيء قابلة لتصحيح الأخطاء في كل وقت.

2 - ما هو محتوى الذخيرة: ما يحسن أن يكون فيها من النصوص:

قال أصحاب المشروع: للذخيرة جانبان اثنان:

- ثقافي (وعلمي وتربوي) وجانب خاص باللغة العربية وذلك بحسب توظيفها ونوعية الأسئلة الملقاة عليها إلا أن محتواها من النصوص يُهم الجانبين معاً.

فسيكون فيها في المرحلة الأولى والثانية ⁽¹⁾ (وربما تكفي الأولى بالنسبة للتراث):

- النص القرآني بالقراءات السبع وكتب الحديث الستة
- أهم ⁽²⁾ المعاجم اللغوية (الوحيدة اللغة والمزدوجة) ⁽³⁾
- الموسوعات الكبرى الهامة العربية الأصل والمنقولة عن اللغات الأخرى
- عينة من الكتب المدرسية والجامعية القيمة (الرائجة في الوطن العربي أو في بلد واحد).

(1) أنظر فيما يلي مراحل الانجاز .

(2) ما أجمع أهل الاختصاص على ذلك .

(3) وهذا ضروري لأن السائل عن مفهوم يعبر عنه بلغة أجنبية إذ يريد أن يعرف ما هي الألفاظ المقابلة له بالعربية المستعملة بالفعل أو الباقية حبراً على ورق هذا جد مفيد .

- عينة من الكتب الخاصة بإكساب بعض المهارات (منها تعليم اللغة العربية) على الطريقة الحاسوبية.

- عينة من الكتب التقنية القيمة

- عينة كبيرة من البحوث العلمية والثقافية القيمة المنشورة في المجالات المتخصصة.

- عينة كبيرة من المقالات الإعلامية الصحفية والإذاعية والتلفزيونية والحوارات والمداخلات المنطوقة في اللقاءات العلمية وغيرها.

- أهم ما حقق ونُشر من كتب التراث الأدبية (والشعرية خاصة) والعلمية والتقنية من الجاهلية إلى عصر النهضة.

وحجم هذه النصوص هو - حتى في المرحلة الأولى - ضخم جدا وسنرى كيف سيتم إنجاز الحيازة (إدخال النصوص في الحاسوب). ويكون حجم كل عينة نتيجة لدراسة خاصة. وأخبر أصحاب المشروع أنه تم تقسيم حصر المعطيات على العصور والميادين.

ويبرّر أصحاب المشروع هذا الحجم الكبير جدا بضرورة التغطية الواسعة للاستعمال الحقيقي للغة العربية قديما وحديثا لأنه يمثل أولا اللغة الحية النابضة بالحياة في كل الوطن العربي وثانيا أفكار العرب وتصوراتهم وفنونهم وعلومهم وأحوال حياتهم الاجتماعية والدينية والسياسية وبالتالي تاريخهم الاجتماعي وتطور كل ذلك عبر الزمان.

وقد انبهر بالجانب الكمي والضخامة لهذا العمل بعض الإخوان وسنرى كيف كانت الإجابة فيما يلي.

(3) أهداف الذخيرة المحوسبة وفوائدها:

سبق أن ذكرنا بأن للذخيرة جانبين اثنين: ثقافي ولغوي. **فأما من الجانب الثقافي** فهدف الذخيرة هو تمكين أي باحث أو طالب أو تلميذ (وأي مواطن) أن يتحصل في وقت وجيز وفي أي وقت المعلومات التي يحتاج إليها للقيام ببحث أو إنجاز مشروع أو لسد ثغرات في معلوماته أو تحصيل كل ما جدّ في ميدان معيّن أو استفسار عن معلومات في شتى الميادين في الوقت الحاضر أو فيما مضى وغير ذلك ثم من جهة أخرى ولمن يرغب في ذلك: الحصول على مهارات معينة في ميادين معينة توجد فيها طرائق تعليم يتم بالحاسوب.

أما الجانب اللغوي فيمكن للباحث أن يتحصل على معلومات أيضا في وقت وجيز ولولا الحاسوب لتعذر عليه ذلك تماما في أغلب الأحوال أو قضى للعثور على بغيته الأسابيع والشهور. وذلك لحصوله على معرفة وجود كلمة معينة أو عدم وجودها في نص أو عدة نصوص أو في عصر كامل وترددها إن وردت مع حصر جميع سياقاتها وكذلك هو الأمر بالنسبة للجذور والصيغ والتراكيب وأنواع الأساليب والأمثال وكل ما يخص اللغة وعناصرها وبنائها ومجاريها على اختلاف أنواعها وغير ذلك مما لم نذكره.

أما الفوائد فلا بد أن نُقرّ بأنها عظيمة جدا. فمن الجانب الثقافي فقد صار، الانترنت الآن، كما هو معروف، الوسيلة التي لا يستغني عنها أي باحث إطلاقا وهي تسهل عليه أعماله بكيفية عجيبة وتغنيه عن إجراء

عمليات الحصر والمسح الشامل بالأيدي العزلاء وتحرير الجزازات أحيانا كثيرة فهي التي تقوم بكل ذلك وتخبره عما كان يجهله تماما بل وتساعده على اكتشاف ظواهر كان لا يعرفها من ذي قبل وتُعينه بذلك على بناء افتراضات عامة جدّ موضوعية وكل هذا إذا كان بالعربية فسيستفيد منه الملايين من مثقفينا.

أما اللغوي فلأول مرة في تاريخ البحوث اللغوية ستكون تحت تصرفه أعظم مدونة نصية شهدها التاريخ - ماعدا دواوين العرب اللغوية (١) - ولأول مرة حقيقة سيستغلّ هذه المدونة على شكل مندمج أي بصورة قاعدة معطيات ولأول مرة أيضا يمكنه أن يستغل ما فيها أينما كان في العالم بأجمعه بفضل الانترنت. وفي الأخير فلأول مرة منذ نهاية التحريات الميدانية اللغوية التي قام بها علماؤنا القدامى مثل أبي عمرو بن العلاء والأصمعي والخليل وسيبويه وغيرهم يستطيع اللغوي أن يرجع إلى الاستعمال الحقيقي للغة العربية ولا يكتفي بما في القواميس ولا في كتب القواعد وأن يسمح هذا الواقع كما يشاء ويستقره كما ورد ولا يكتفي بما قاله المتأخرون من النحاة. ونتائج بحثه وأقواله وتقاريره ستكون موضوعية بقدر ما هي منبثقة من واقع الاستعمال القديم والحديث من خلال النصوص.

وبذلك سيكون وضع المجامع للمصطلح أكثر موضوعية في اختيار المفردة أو صيغتها الأكثر ملاءمة للمفهوم العلمي الذي يحتاج إلى

(١) إذ لم يصل إلينا القليل.

مصطلح لأن الحاسوب يمكنهم من حصر كل المعاني التي تدل عليها الصيغ (ولا يكتفي في ذلك بما كتبه الفارابي في كتابه ديوان المعاني) إذ تبين للباحثين أن الاستعمال لهذه الصيغ لتنوع دلالاتها واسع جدا. ثم اختيار المصطلح إذا تعدد فيه أكثر من لفظ فسيكون موضوعيا إذا بنى على مقياس الشيع (إن تعادل المصطلحان في استيفاء جميع الشروط). وفوق كل هذا فإنه سيتم توحيد المصطلحات في الوطن العربي حيث إن هذا المقياس سيمكن أن يعتمد عليه أي واحد في اختياره للمصطلح في أي مكان بفضل الحاسوب والانترنت.

ثم لا نتصور أن يتم انجاز أي معجم تاريخي للغة العربية دون أن يكون تحت تصرف اللغوي ذخيرة آلية تجمع الآلاف من النصوص عبر الزمان وإلا فكيف يمكن أن يتتبع اللغوي تطور معاني الكلمة الواحدة لو لم يستطع أن يجمع جميع سياقاتها؟ وهذا يقال أيضا عن القاموس الجامع للغة العربية فلا بد من الرجوع إلى واقع الاستعمال والذخيرة هي الوسيلة الوحيدة لإنجاز مثل هذا القاموس.

وفي الأخير لنا ملاحظات ندلي بها ههنا كخلاصة لما جاء في وصف المشروع:

1 - الذخيرة كمرجع علمي وثقافي له صفات خاصة به

أدخلت في الكثير من المدارس الوسائل التكنولوجية الحديثة كالحاسوب مثلا وفي الكثير أيضا من المؤسسات العمومية بل وعمّ

استعماله في جميع الشركات والمؤسسات التابعة للدولة أو أكثرها في أكثر البلدان العربية. ويمكن بالحاسوب أن تستغل هذه الشبكة الهائلة من المعلومات المسماة بالإنترنت. وأصبح الكثير من الباحثين العرب بل الثقافي لأكثر المواطنين العرب: ولا ننسى أن هذه الشبكة هي أيضا أنجع وسيلة تقنية للاتصال ونشر المعلومات على مستوى العالم. كما نشاهده الآن فلماذا لا نخدم بها الثقافة العربية؟

ثم إن التراث العربي لا يمكن أن يكون في هذه الشبكة إلا بالعربية وقد تفضلت بعض المؤسسات العربية التجارية خاصة بإدخال عدد كبير من التحف الأدبية ومن الكتب الدينية. فهذا ينبغي أن يشمل كل التراث وأن يكثر من يقوم بانجاز هذا نظراً لضخامة هذا العمل (انظر فيما يلي فكرة العمل المشترك). كما لابد من التنسيق لهذا العمل الذي سبق إنجازه المشروع.

هذا ويمكن أن يتحصل المواطن العربي برجوعه إلى الذخيرة العربية على مهارات في ميادين مختلفة من العلوم التطبيقية وشتى الفنون ومن ذلك اكتسابه لمهارة أكبر في استعماله للغة العربية واللغات الأجنبية وخاصة السلامة اللغوية في العربية وغير ذلك.

2- الذخيرة كمرجع للغويين والمجامع العربية وكوسيلة بحث وعمل لهم

من المعروف عن عمل اللغوي في زماننا أنه عمل فردي وقاموسي في الأساس فهو لا يعتمد في بحوثه على الاستعمال الحقيقي للغة - القديم أم الحديث - ونعني بذلك النصوص هي في ذاتها. وإذا ذكر استعمال

كلمة أو تركيب معيّن فإنه لا يعتمد في ذلك إلا على ما يعرفه هو بما يسمعه أو يقرأه إذ لا يستطيع أن يقوم بما هو مطلوب علمياً وهو المسح الكامل لاستعمال ما يبحث فيه في بلد معين أو في جميع البلدان الناطقة بالضاد. ومع ذلك فإن ما يثبّت بالاستقراء الواسع للاستعمال - من خلال النصوص القديمة والحديثة - هو الحجة القاطعة في كل بحث في اللغة ولا بد أن يعرف اللغوي مدى شيوع المفردة أو المصطلح أو صيغة معينة في القديم ويتعرف على معنى مفردة معينة من خلال مقارنته للسياقات الكثيرة. فعجزه عن ذلك يجعله يكتفي بما قالته القواميس وأخطر من ذلك بما يعرفه هو وحده أو أفراد قلائل . ويتم بذلك حالياً أي بتلك الطريقة الذاتية غير الموضوعية وضع أكثر المصطلحات في المجامع العربية.

والطلاب يرجعون إلى هذا المصدر العظيم الفعّالية للإحاطة بكلّ ما جدّ من جديد من المعلومات في موضوع معين وشاهدنا أبناءنا يلقون الأسئلة على الحاسوب ويتحصلون على إجابة... **باللغة الانكليزية وحدها في الغالب** وذلك لأن أكثر من 67٪ من المعلومات في الانترنت هي بتلك اللغة.

فمشروع الذخيرة العربية يريد أن يغيّر هذا الوضع لا لولوع أصحابها بالجديد بل لأن هذه الوسيلة الاتصالية العالمية لها قدرة جبّارة في نشر **المعلومات والحصول عليها في أقل من دقائق**. فمن لا يستغلها فهو أعزل تماماً لأنها ستصبح المصدر الوحيد الذي يمكن الباحث والمثقف بل الأطفال الصغار من توسيع دائرة معارفهم على الدوام وفي أسرع وقت

وأخصر الطرق وسيكون ذلك حتى في المنزل زيادة على محل العمل. فإن حصل تهاون منا بكل هذا الذي يطرأ في العالم وعدم التفات أولي الأمر منا إلى هذه القوة الخيالية التي اكتسبتها هذه الشبكة فسنتقهقر أكثر مما نحن فيه.

والأهم في كل ذلك هو أن تكون المعلومات التي نمدّها هذه الشبكة في متناول أكبر عدد من المواطنين حتى النشء الصغير فهي مساعد هائل للتلاميذ والطلاب وبذلك يضيفون إلى ما يتعلمونه في المدارس أضعاف ما يسمعون من معلمهم. ولا يمكن أن يحصل ذلك إلا إذا كانت للعربية قسط كبير فيها وإذا عمّمت الحكومات استعمال الحاسوب وهذا حاصل في الكثير من البلدان أو هو في الطريق.

وإلى متى نحرم مواطنينا من استغلال مثل هذا المصدر الآلي للمعلومات؟ ولا يمكن أن يتصور أكثر الناس ما لهذه الوسيلة من قدرة في رفع المستوى الثقافي للعدد الكبير من المواطنين فإن الانترنت العربي بوصفه عربيا سيرجع إليه كل من ليس متمكنا من اللغة الانكليزية أولا وسيجعل في متناول أي واحد منا كل ما يحتاج إليه من المعطيات العلمية والتقنية التي قد لا يعثر عليها في الكتب بهذه السرعة وهذه السهولة (وفي أي وقت كان) بل وقد لا يعثر على بعضها بالعربية الباحث في الكتب لوجودها فقط في المجلات العلمية المتخصصة (وسياخذ المنجزون للذخيرة على عاتقهم إدخال ما جدّ من جديد من ذلك على الدوام).

فهذه السهولة وهذه السرعة في الحصول على المعلومات وخاصة على ما جدد منها ثم انتشارها على أوسع نطاق هو الذي سيكون السبب الرئيسي لارتفاع المستوى.

هذا وما يمنعنا أن نلجأ إلى التكنولوجيا الحديثة: لجمع أكبر عدد ممكن من النصوص يجعلها الحاسوب مدونة واحدة يمكن الرجوع إليها بإلقاء أي سؤال عليها مهما كان نوعه؟ فمن تلك الأسئلة يمكن أن نذكر على سبيل المثال لا الحصر:

- هل وردت الكلمة آ في العصر الجاهلي أو الأموي أو العباسي؟ وأين وردت بالضبط؟ وكم مرة وردت في هذه العصور أو في نص معين؟ وماهي سياقاتها كلها في عصر من هذه العصور أو في بعض نصوصه أو كتاب معين أو قصيدة معينة وبالمقارنة العلمية بين هذه السياقات ما كان معناها وإلى ما صار؟

- هل دخل المصطلح ب الذي وضعته جماعة - أو مجمع - في الاستعمال الحديث وما مدى شيوعه في مصر أو سوريا أو كل البلدان العربية. وإذا تحصلنا على مثل هذه المعلومات الموضوعية يمكن حينئذ أن نتوصل إلى أسرار وقوانين الاستعمال وعلى ذلك يجب أن يعتمد في وضع المصطلحات (التي لها حظ من إقبال الناس عليها).

- متى ظهر لأول مرة اللفظ ج وبأي معنى (حسب السياقات) ومتى اختفى بهذا المعنى وتغير معناه؟

ويمكن أن تقام على نص أو مجموعة نصوص تحاليل إحصائية لكل

العناصر اللغوية التي تحتوي عليها على شكل قوائم تنازلية من حيث التردد ويمكن أن يكون حجة تعتمد عليها النظريات العلمية حول اللغة وغير ذلك.

كما يمكن أن يُحصى في جميع النصوص القديمة أو في بعضها تردد لا الكلمات والعبارات المختلفة وأساليب الكلام بل أيضا الجذور - كما فعل بعض الإخوان بالنسبة إلى النص القرآني - بل والصيغ وهذا مفيد جدا لمعرفة ماهي الصيغ الأكثر استعمالا وما هي معانيها خاصة وبذلك يستطيع اللغوي أن يصيغ المصطلحات على صيغ تدل على معان معينة وهذا شيء متروك في زماننا مع الأسف وذلك بسبب عجز الفرد من اللغويين عن استقراء النصوص وهو أعزل.

ونعتقد أنه لا مناص من الاعتماد على مثل هذه المدونة المحوسبة العظيمة الحجم والأبعاد لبناء النظريات العلمية ولوضع المصطلحات. ولكل بحث علمي صحيح في اللغة وغيرها.

الخلاصة:

تبين من دراسة المشروع كما جاء وصفه في الوثيقة الخاصة وما أضاف إلى ذلك أصحابه في لقاءاتنا معهم أنه مشروع قومي ذو أبعاد كبيرة جدا ولا يشبه المشاريع التي يوكل إنجازها إلى مركز أو جامعة أو منظمة لضرورة اشتراك العدد الكثير من المساهمين ثم ماهو إلا تعميم لما هو موجود حاصل ألا وهو الحياة للإنتاج الفكري العربي وأهم ما حقق من

التراث العربي. تضيف إلى ذلك الذخيرة «ديوان العرب» المعاصر مع إمكانية علاج الحاسوب للذخيرة بأي شكل كان وجعلها مرجعا موثقا في كل ميدان وباللغة العربية.

ونعتقد أنه سيكون دافعا قويا للكثير من الحركات والأعمال العلمية وغيرها:

- سيكون حافزا قويا لنشر اللغة العربية السليمة في جميع الميادين العلمية والتكنولوجية

- وحافزا للشباب لاختيار الشعب العلمية والتكنولوجية

- وحافزا قويا لحركة تحقيق المخطوطات وإحياء التراث

- ودافعا لتوحيد المصطلحات العلمية والتقنية العربية

- ودافعا للتعريف الواسع والعميق للتراث العربي

- ومساعدة عظيما لتوسيع معلومات النشء الصغير وطلاب

الجامعات والمثقفين عامة

- ومساعدة عظيما لا مفر منه لأعمال المجامع اللغوية العربية كمرجع

موثوق به

- ومساعدة في إكساب المهارات في شتى الميادين.

- ومصدرا عظيما لشتى الدراسات اللغوية والاجتماعية والتاريخية

والعلمية وغير ذلك

- ومصدرا أليا ومرجعا لا بد منه في صنع المعاجم على اختلاف

أنواعها: المعجم التاريخي للغة العربية، معجم ألفاظ الحياة العامة،

معجم المترادف والمشتراك والمتجانس ومعاجم المعاني وغير ذلك.

ب. دراسة للطريقة المقترحة لإنجاز مشروع الذخيرة العربية وتمويله

(1) **المبادئ:** إن التصوّر لهذه الطريقة بُني على ثلاثة مبادئ:

الأول هو مبدأ عام وهو مبدأ المشاركة الحرة للمؤسسات على مستوى الوطن العربي.

الثاني هو: تكفل كل مؤسسة مشاركة بعمل الحيازة⁽¹⁾ لما تختاره من إنتاجها وتمويلها لعملها هذا من ميزانيتها الخاصة (بدعم من السلطة التي تشرف عليها).

الثالث هو: **تكفل لجنة دولية عربية بالإشراف والتنسيق والمتابعة.** وقد اتفق على ذلك في ندوة 1991 انعقدت بالجزائر لتبادل الآراء في كيفية الإنجاز ثم في الندوة التأسيسية المنعقدة في الجزائر أيضا في ديسمبر 2001 حيث أنشئت فيها هذه اللجنة وانتُخب رئيسها. ثم في الندوة الثانية للمشروع في الخرطوم في ديسمبر 2002 حيث اتخذت قرارات هامة أهمها هي توصية بطلب إلحاق المشروع والهيئة الدولية المشرفة عليه بجامعة الدول العربية (أنظر المسار فيما يلي ص 11).

(2) **ما يلزم من ذلك من تنظيم للعمل والتمويل:**

واتخذ مبدأ المشاركة التطوعية في أوسع نطاق وبالتالي سيتم توزيع العمل على أكبر عدد ممكن من المؤسسات العربية في كل قطر عربي.

(1) حيازة المعطيات: هي عملية إدخالها وتخزينها في ذاكرة الحاسوب (وحوسبتها).

وذلك نظراً لضخامة حجم المعطيات واستحالة تكفل المؤسسة الواحدة وحتى مؤسسات البلد الواحد بانجاز المشروع.

فأمثل المشاركة وأنجعها في نظر المشاركين في الندوة التأسيسية هي أن تتكفل كل مؤسسة بحيازة ما تريد من إنتاجها الخاص بها وهذا يستفيد منه لأنه تعريف وترويج لإنتاجها الخاص بها وهو المقابل لتمويلها من ميزانيتها السنوية لمشاركتها لعملها هذا. وهذا عمل جار في أكثر من مؤسسة الآن فالمشروع ليس إلا تعميماً لهذا الواقع مع تحقيق التنسيق فقط.

أما حيازة التراث فيمكن لأي مؤسسة إن شاءت أن تقوم بحيازة حصة منه ولو صغيرة (كتاب تراثي واحد أو اثنان) زيادة على ما تريد حيازته من إنتاجها.

ويُتوقع أن يطلب عدد كبير من المؤسسات أن تساهم في ذلك وحتى أن تكتفي بعضها بذلك. أما النصوص غير العلمية وغير التراثية كالإعلامية منها فيستحسن أصحاب المشروع أن تتكفل بذلك أكبر الصحف العربية (كالأهرام مثلاً وغيرها) من جهة والمؤسسات الحكومية والخاصة بالإذاعة والتلفزة من جهة أخرى.

أما أعمال التنسيق والمتابعة فلا مفر للقيام بذلك من وجود هيئة دولية يكون لكل بلد يشارك في الإنجاز ممثل فيها تعينه الجهة المشرفة (كوزارة الثقافة مثلاً) ويكون المسؤول والمنسق للعمل بين المؤسسات المشاركة في بلده. وتجتمع هذه الهيئة مرة في كل سنة وتكرمت الجزائر بتخصيص مقرّ مجهزة لها.

وتنشأ في كل بلد لجنة محلية تشرف على العمل ويكون رئيسها هو الممثل لها في الهيئة الدولية وتجتمع مرة في كل ستة أشهر (أنظر الرسمين المرفقين).

أما التمويل الذاتي للعمل على مستوى المؤسسات في كل بلد فمن ميزانيتها الخاصة السنوية وتدعم الحكومة في كل بلد هذه المشاركة باضافة ما تحتاج إليه من الاعتمادات في ميزانيتها. ويمكن أن توكل كل حكومة في كل قطر إلى وزارة الثقافة بالتعاون مع وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، إن شاءت، الإشراف العام على المشروع من الناحية التنظيمية والعلمية والمالية ويستحسن أن تساهم بالدرجة الأولى في ذلك المكتبة الوطنية في كل بلد. وتغطي هذه الوزارة الأعمال التنسيقية ماليا على مستوى القطر وعلى المستوى الدولي بدعم من الحكومة.

وفيما يخص أعمال الهيئة الدولية فاقترح المشاركون في الندوة الأخيرة المنعقدة في الخرطوم أن يكون مصدر تمويلها أولا حكومات الدول المشاركة ويلزم من ذلك إلحاق الهيئة الدولية كمؤسسة بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية وتكفل الأمانة العامة بتمويل العمل التنسيقي كليا أو جزئيا وثانيا: يمكن أن تدعم المؤسسات المالية والثقافية الدولية إن شاءت كالبנק الإسلامي وبنك الإنماء ومؤسسة الفكر العربي وغيرها هذا المشروع ماليا وبأشكال أخرى مختلفة، وكل ذلك على اعتبار أنه مشروع عربي علمي سيفيد الأمة العربية جمعاء وخاصة النخبة المثقفة وعلماءها.

(3) الزمان : ما تحتاج حياة التراث المحقق من الزمان

يقسم العمل على مراحل فيما يخص التراث. أما ما ينتجه الناطقون بالضاد وما يصدر منهم من مقالات وخطب وأحاديث ذات قيمة وغير ذلك فهو عمل متواصل لا يتوقف وكذلك هو الأمر بالنسبة إلى التراث الذي لم يحقق بعد - حتى نأتي على آخر مخطوطة (ذات قيمة).

واقترح في الندوة التأسيسية أن تكون المرحلة الأولى على خمس سنوات. وربما ستكون المرحلة الثانية مثلها وهذا يتوقف تحديده على النتائج التي ستحصل عليها مجموع المؤسسات المشاركة. فامتداد هذه المرحلة لمدة خمس سنوات قد يكفي للإتيان على كل ما اختير من كتب التراث المحققة المطبوعة.

(4) تنظيم العمل في مستوى المشاركة الواحدة أو مجموعة من

المؤسسات :

يوكل العمل في كل مؤسسة إلى فريق واحد أو عدد من الفرق بحسب حجم المؤسسة وعدد أقسامها المتخصصة ويمكن أن تعتبر كل كلية أو معهد في داخل الجامعة الواحدة كمؤسسة على حدة أو أن تشترك عدد من المؤسسات في مجموعة واحدة وهذا متروك اختياره لكل مؤسسة ولكل بلد الحرية التامة في اختيار ما يناسبها من التنظيم الداخلي.

وفيما يخص الفرق وتجهيزها: فسيتكون كل فريق من الممارسين (عمال حياة) واختصاصيين في اللغة وآخرين في الحاسوب يفرغ بعضهم أو كلهم للمشروع. ويمكن أن يتكون من خمسة إلى عشرة

مارسين يكلفون بحايزة المعطيات. ويشرف عليهم وعلى فرق أخرى إن اقتضى الحال مهندس أو تقني في الحاسوبيات من الناحية التقنية ودكتور في اللغة العربية، أو متخصص علمي متمكن من العربية.

2 - ويجهز كل فريق بمجموعة من الأجهزة تتكون من خمسة إلى عشرة حواسيب صغيرة (ميكرو) وعدد كاف من الراكتر الذاكرية المنقولة (الأقراص) وآلة ماسحة للقراءة الآلية للنصوص (سكانر) فهذه الآلة تجعل الفريق يستغنى عن الملامس التي يدخل بواسطتها المعطيات مثل الآلة الكاتبة. وبالماسحة (الناجعة) ستوفر الكثير من الجهود ومن المال لادخال المعطيات في الذاكرة بكيفية آلية وسنتطرق إلى نقائص الماسحات التي توجد في السوق حالياً فيما يلي. وكلما كثرت الوسائل في حدود هذه الأعداد الدنيا - كان المردود طبعاً أكبر والعمل الحيازي أسرع وأفيد وأصح. وكل هذا قليل في حق لغة القرآن.

3 - **توزيع الحصص:** لكل مؤسسة الحق، كما سبق أن ذكرنا، في أن تختار المعطيات التي تريد حيازتها وهي بذلك أولى. ولها أن تختار بعض أمالي أساتذتها ودراسات باحثيها والكتب والمنشورات التي يرتبط محتواها بتخصصها أو اهتماماتها عامة، وذلك لتمكن من استثمارها وعلاجها كمعطيات علمية للاستفادة منها بمجرد ما يتم لها ذلك وهذا سيكون حافزاً لها في العمل الحيازي.

واقترح بهذا الصدد المبدأ التالي:

تتكفل كل مؤسسة، إن شاءت، كما قلنا بحيازة عدد من الكتب

التراثية تقترحها اللجنة الدولية للمشروع من بين المؤلفات التراثية التي تعالج موضوعات لها علاقة باختصاص المؤسسة على قدر الإمكان. وذلك لمدة خمس سنوات، كما قلنا، وعلى هذا الأساس سيُقترح مخطط عام يشتمل على قائمة عامة للكتب التراثية والمعاجم اللغوية وغيرها من الوثائق.

4 - تنشأ داخل كل مؤسسة أو مجموعة من المؤسسات لجنة دائمة للمشروع تتكون من مسؤول عن المشروع كرئيس تعينه مؤسسته وتكون مهمتها مثل مهمة اللجنة المحلية: التنسيق والإشراف العلمي والتقني والمتابعة.

5 - تنظيم العمل في مستوى كل قطر عربي مشارك:

تكون اللجنة المحلية الدائمة للمشروع تابعة لوزارة الثقافة مبدئياً (لا بد من الاتفاق على تعيين الجهة التي تقوم بالإشراف في أعلى مستوى في كل بلد) وتتكون من مسؤول على المشروع كرئيس في مستوى القطر وممثلين عن المؤسسات ويكون عددهم بحسب عدد المؤسسات المشاركة بالفعل. ويكون رئيسها كما سبق ذكره عضواً في الهيئة الدولية للمشروع يمثل بذلك قطره.

(7) برمجة العمل:

تقوم الهيئة الدولية بحصر ما تمت حوسبته من التراث (وقد أشرنا إلى أن بعض الشركات الخاصة قد شرعت منذ زمان في حوسبة بعض الكتب التراثية) ويجب أن تتفاوض الهيئة العليا مع هذه الشركات (أنظر

فيما يلي مسألة حقوق المؤلف) لاقتناء هذا التراث المحوسب وإن لم يتم ذلك فلا مناص من برمجة هذا الجزء من التراث. وهذا ينطبق أيضا على جميع المؤلفات التي حوسبت.

كما ستقوم أيضا بجرد التراث غير المحوسب وسيتم ذلك بالكيفية الآتية:

تُوزع هذه الكتب التراثية أو الآثار الأدبية:

- على عصور قصيرة تدخل فيها (طول كل عصر حوالي خمسين سنة).
- وفي داخل كل عصر : إلى ميادين عامة (فقهي، تاريخي، لغوي، فيزيائي، فلكي وغير ذلك) وذلك من الجاهلية الى عصر النهضة.
- ثم تقرّر الهيئة الدولية في مؤتمرها الدوري الأول حصة كل مؤسسة من تلك التي ستشارك في حيازة التراث بعد عرض القوائم على عصور وتخير كل قطر ثم التنسيق بتفادي التكرار وكل هذه العمليات تتم قبل انعقاد المؤتمر الدوري حيث تنتهي فيه الى قرار نهائي.

كما يتم في المؤتمر إقرار ما اختارته كل مؤسسة من غير التراث سواء كان من الأعمال العلمية (أو الأدبية أو الفنية) أم النصوص الإعلامية وغيرها. ولا يتم ذلك إلا بعد التنسيق وتفاذي التكرار أيضا.

أما مقاييس اختيار كتب التراث فعلى أساس الأهمية أو القيمة العلمية أو الأدبية كأهميات الكتب وإجماع أهل الاختصاص على ذلك فيما يخص غير أهميات الكتب. وتسبّق كتب العصور التي أبدع فيها علماؤنا في العلوم الإنسانية والدينية وغيرها وكل كتاب أجمع العلماء على أصالته العلمية مهما كان عصره.

8 - المتابعة:

تكون المتابعة والتقييم على المستويين المشار إليهما: القطري والدولي حسب ما يقتضيه التنظيم المتفق عليه. فعلى المستوى القطري تتكفل بالمتابعة اللجنة القطرية ولها أن تعتمد على خبراء من خارج اللجنة ويُنظر في تقارير التقييم في اجتماع تعقده في كل ستة أشهر لذلك وللنظر فيما أنجزته كل مؤسسة. وعلى المستوى الدولي فتتولى لجنة الخبراء المتفرعة من الهيئة الدولية بالأعمال التي أشرنا إليها.

أما المقاييس الأساسية التي سوف يعتمد عليها في المتابعة والتقييم فهي كالتالي:

- 1 - لا يدخل في الانترنت إلا النصوص التي تم تصحيحها على يد اللغويين الذين يتواجدون في كل فريق.
- 2 - مراقبة مدى احترام كل فريق المبادئ العلمية للحيازة ومقاييس التعرف على النص أو مصدره (المؤلف وعصره وإقليمه وميدان النص وغير ذلك).
- 3 - مراقبة كمية النصوص التي أخذت كل مؤسسة على عاتقها حيازتها في كل ستة أشهر.

المسار المقترح لتهيئة الظروف لإنجاز الذخيرة والشرع فيه

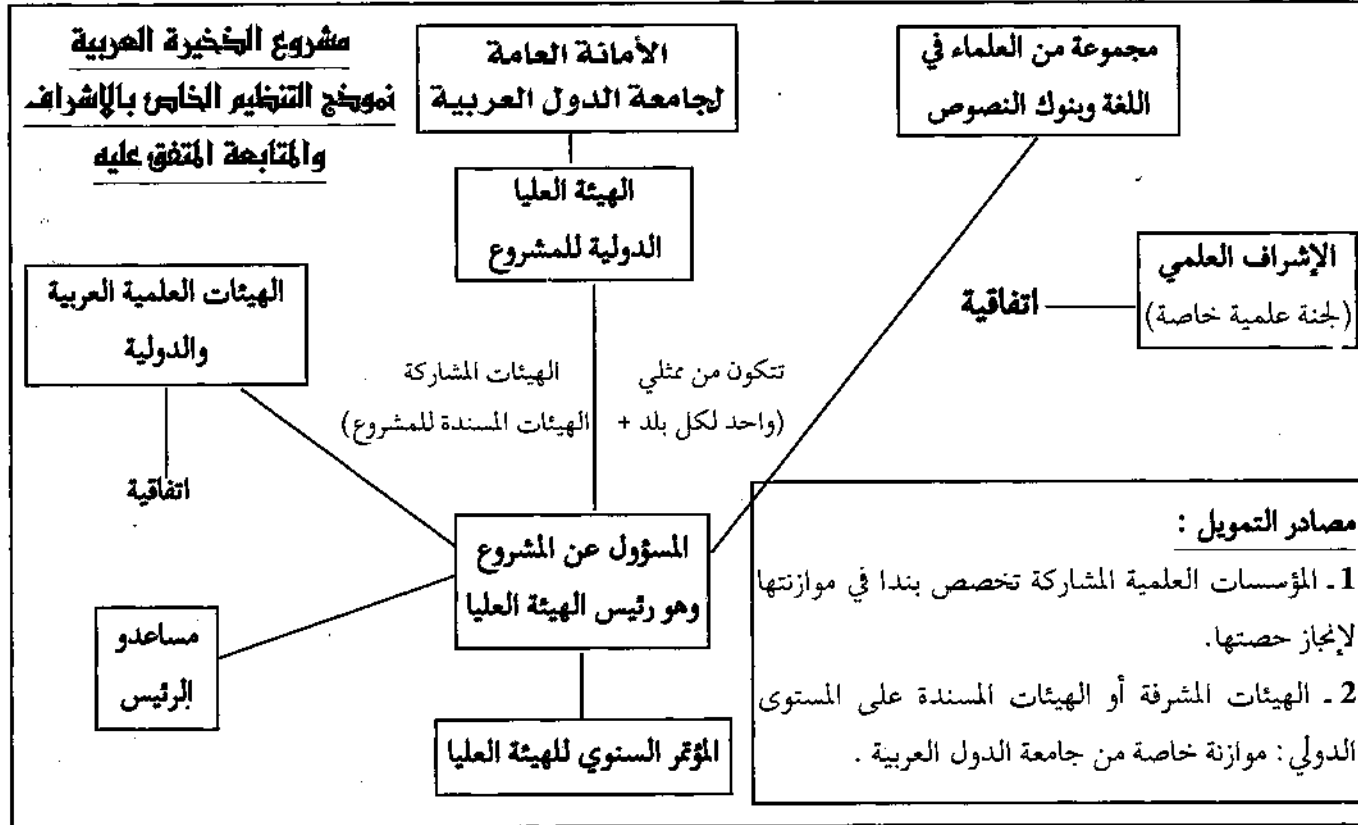
أُدرج هذا المشروع بطلب من الجزائر⁽¹⁾ في جدول أعمال جلسة مارس 2004 العادية لمجلس وزراء الخارجية في مستوى جامعة الدول العربية فأوصت اللجنة الخاصة التي نظرت في هذا المشروع في مستوى المندوبين الدائمين أن تقام دراسة له ويطرح من جديد في الجلسة المقبلة لهذا المجلس أي في سبتمبر 2004.

فيأمل أصحاب المشروع أن تتم بذلك:

(1) الموافقة في مستوى المندوبين ثم الوزراء على إلحاق الهيئة العليا للمشروع (وستكون من ممثلي الدول تعينهم الحكومات) وقبول الدول للمشاركة الفعلية في إنجاز المشروع وتبني ميزانية التسيير لهذه الهيئة للسنة الأولى من المرحلة الأولى واتخاذ القرارات اللازمة فيما يخص تنظيم العمل وتمويله.

(2) فإذا تحقق ذلك: فأن يتم طبقا لقرارات جامعة الدول العربية المشار إليها: تحديد كل حكومة للجهة التي ستوكل إليها الإشراف على المشروع من جميع جوانبه (وزارة الثقافة مثلا) من جهة.

وتعيين المسؤول عن المشروع الذي سيكون رئيسا للجنة المكلفة بالإشراف على إنجاز المشروع من جهة أخرى. (وستكون من ممثلي المؤسسات المشاركة في كل قطر) وعضوا في الهيئة العليا للمشروع. وتمنح له الجهة المعنية، بدعم من الحكومة في كل قطر، ميزانية خاصة بالتنسيق والمتابعة وتضيف كل مؤسسة بنداً في ميزانيتها السنوية خاصا بإنجاز حصتها تمنحه إياها الجهة التي تتبع لها.



تتألف من ممثلي المؤسسات العلمية الكبيرة
في كل بلد عربي (واحد لكل بلد) + ممثلي
المؤسسات المسندة.

الأمانة العامة لجامعة الدول العربية

الهيئة العليا الدولية
لمشروع الذخيرة

لجان الذخيرة العربية القطرية في كل بلد
عربي = 21 لجنة يترأسها الممثل الدائم في
الهيئة العليا الدولية

المؤسسات العلمية المشاركة في كل
قطر ولكل واحدة لجنة خاصة

فرق الإنجاز

تتألف من ممثلي المؤسسات العلمية
المحلية المشاركة في كل بلد عربي

ج. صعوبات الإنجاز الخاصة بهذا المشروع ومحاولة تحليل حقيقتها

(1) الكمية الكبيرة من المعطيات المراد حيازتها

يمكن أن تعدّ النصوص التي يرغب في إدماجها في الذخيرة العربية الآلية بالملايين. وهذا يؤيده ما قامت به شركة في دبي في المشروع المسمى بالوراق بحوسبة ما يعادل حسب ما يقول أصحاب هذا المشروع مليون صفحة. فهذا يشكل أهم صعوبة في إنجاز المشروع في ظاهر الأمر وقد أثار ذلك بعض الإخوة.

وتحدثنا مع أصحاب المشروع (أصحاب التصور له والمبادرة) في هذا الذي أثير من ضخامة العمل فقالوا مايلي:

«يبدو أن الذين تحفظوا في إمكانية إنجاز مثل هذا المشروع بسبب الكمية الكبيرة من المعطيات وأسباب أخرى، أنهم لم يعيروا الاهتمام الكافي للعمل المشترك والأهمية الكبرى التي يكتسيها تعدد المشاركين الكبير في الإنجاز ونعتقد أن مفهوم «العمل الجماعي» ولاسيما في البحوث والإنجازات الكبرى القومية هو مفهوم لم يترسخ بعد في أدمغة المواطنين المنتمين للعالم الثالث ولاسيما العرب ولا يعمل به أي بلد عربي فيما نعلمه وإن حاول بعضهم تطبيقه فمآل ذلك الفشل في الغالب.

«ونحن متيقنون أنه كلما ضخم العمل الى حد بعيد مثل إنجاز هذه

الذخيرة كان الأخرى والأجدر أن نحزّه إلى حصص كثيرة توزّع على عدد كبير من المؤسسات المشاركة وعلى مراحل فكلما كثر عدد المنجزين كان العمل أخف وأخصر. فالعمل المشترك الكثير الأطراف يكفل نجاح المشروع. وقد سمعنا بعض المنتقدين يسألون عن الجهات أو المراكز التي يمكنها أن تنجز مثل هذا المشروع فاقتنعنا أنهم غير مدركين لأهمية العمل الجماعي الواسع وهو شيء معمول به وجدّ طبيعي في البلدان المتقدمة (ومفهوم الشراكة في الميدان الاقتصادي والثقافي لا يعرف الكثير من الناس كيف يمكن أن يحقق ويطبّق على المستوى الدولي ولا سيما فيما بين الدول العربية). انتهى كلام أصحاب المشروع.

والذي نعتقده بالنسبة لهذا التحفظ بدعوى الضخامة للمعطيات أن هذا الذي قالوه حجة إضافية على أن المشروع جدير بأن تشرف عليه لا مركز واحد ولا بلد واحد بل البلدان العربية كلها وفي أعلى مستوى مادام هناك إجماع على أهميته القصوى وذلك برفعه للمستوى الثقافي العربي إلى ما يقارب مستوى الغربيين. فالغلط ههنا هو أن يُظن أنه من المشاريع التي يمكن أن يوكل إنجازها إلى جهة واحدة مثل الموسوعات التي تُكوّن لها اللجان من الخبراء ومن الغلط أن يعتقد من جهة أخرى أن غايته الوحيدة التدوين أو تدوين التراث وحده (وان كان هو نفسه ضخماً) لأن هذا لا بد أن يكون له نهاية ينتهي إنجازها إليها في الزمان. ثم إن الذخيرة إن أردنا أن تكون قومية فلا بد أن تغطّي كل البلدان العربية قديماً وحديثاً ومن يستطيع أن يشرف على ذلك إلا المجموعة الكبيرة من

المؤسسات وقد شرعت أكثرها على حيازة أعمالها: فما المانع أن تقوم بالتنسيق بين هذه الحيازات المبعثرة.

(2) الإدراك الخاطيء لمفهوم الذخيرة ومختلف وظائفها:

إذا قيل بأن «الذخيرة العربية هي بنك آلي من النصوص» فيعتقد بعضهم أنه مجرد مدونة أدخلت في ذاكرة الحاسوب. وهم معذورون لأنهم ليسوا ممن تخصصوا في ميدان العلاج الآلي للنصوص ولأن هذا التعريف لا يشير صراحة إلى إمكانية هذا العلاج. فالذخيرة ليس مجرد - CD ROM كما يقولون بل هو مجموعة من النصوص أدمجت على الطريقة الحاسوبية حتى يتمكن الحاسوب من مسحها كاملة أو جزئيا ولها عدد من البرامج الحاسوبية وضعت خصيصا لإلقاء أنواع خاصة وكثيرة من الأسئلة على الذخيرة.

هذا وقد يعتقد بعضهم أن الغاية من هذا العلاج هو الإحصاء فقط. نعم يمكن أن يقوم الحاسوب بإحصاء شامل لكل أنواع العناصر اللغوية الواردة في نص أو الكثير من النصوص. إلا أن هذا يشكل وظيفة واحدة (وقد يخلط بعض الاخوان بين التعريف والمهمة) من بين الوظائف الكثيرة فالحاسوب يستطيع أن يحلل كل كلمة متصرفة إلى أصلها الجذري ووزنها وكل جملة إلى ما تتألف منه مع بيان صيغتها وكل أنواع الأساليب البلاغية. كما سبقت الإشارة الى ذلك كما يستطيع أن يعثر على أي عنصر لغوي في المئات من الكتب. ويستطيع أن يرتب عناصر

النص أو الجملة على أي ترتيب شئنا ألفبائيا إحصائيا تنازليا وفهرسة كل كتاب وقد ذكر أصحاب المشروع بعض هذه الوظائف والمهام وليست تعريفات للذخيرة. وفي الخلاصة **الذخيرة هي مدونة مندمجة حاسوبيا + عمل الحاسوب فيها للحصول على معلومات جد متنوعة وعلاجات استقرائية ورياضية وإحصائية وغيرها فهي تقوم بما يعجز عنه الأفراد: التصفح والاستقراء للملايين من المعطيات.**

(3) صعوبة اختيار النصوص وصعوبة التنسيق بين العشرات من

المؤسسات

سبق أن جعل أصحاب المشروع لاختيار النصوص - القديمة والحديثة - مقياس القيمة العلمية أو أهمية مضمونه من أي جانب كان والرجوع في التأكد من ذلك إلى أهل الاختصاص في الميدان الواحد من نفس المؤسسة. فهم الذين يختارون النصوص التي ستقوم المؤسسة بحيازتها ويمكن أن يحصل ذلك في المجلس العلمي للمؤسسة. فالشروع في إنجاز المشروع يبتدئ بالضرورة بهذه المرحلة وتقرر الهيئة العليا في النهاية القائمة من النصوص التي ستتكفل بإدماجها في الذخيرة بعد دراستها والتوفيق فيما بين النصوص.

وسيكون لكل مؤسسة فريق أو فريقان على الأقل سيقوم بإنجاز حصة معينة، كما قلنا، من المشروع فإذا ضرب ذلك على مائة مؤسسة وهو أقل ما يتصور من المؤسسات التي ستقرر أن تشارك في العمل سيكون أكثر

من 200 فريق فيجب أن يتم في أحسن الظروف التنسيق بينها لتفادي التكرار خاصة الحياةزة لنفس الكتب التراثية ثم المراقبة لصحة النص المنقول إلى ذاكرة الحاسوب.

نعتقد أن هذه الصعوبة يمكن تجاوزها بتجزئة العمل هنا أيضا أما تفادي التكرار فهذا يتم قبل كل شيء في مستوى كل لجنة محلية مرة واحدة بالنسبة للمرحلة الأولى ثم في مستوى الهيئة العليا كلك مرة واحدة. ولا مشكل فيما يخص الإنتاج الخاص بالمؤسسة ولا النصوص الإعلامية التي سيوكل علاجها للجنة الخبراء في الإعلام أو بتعاقد مع إحدى الجرائد الكبرى التي يكون لها إمكانات كبيرة.

وفيما يخص تصحيح الأخطاء فهذا يتطلب أن يكون في كل فريق مصحح واحد أو أكثر يتدخل بعد أن يراجع كل عامل حياة نصه مرتين.

4- نقائص الماسحات الموجودة في السوق حاليا:

إن الماسحاة هي عبارة عن قارئ إلكتروني أي جهاز يبصر ماهو مكتوب بكيفية آلية ومعنى ذلك أنه قادر على التعرف على الحروف الخطية واحداً واحداً ومركبة وطبعها كما تراها. هذا بنسبة قليلة من الغلط فيما يخص الكتابات الأجنبية (اللاتينية خاصة التي هي أكثر الكتابات انتشارا في العالم). وليس الأمر كذلك بالنسبة للعربية فماهو موجود في السوق كثير الغلط ويبلغ ذلك 20 % في الغالب. فهذا عائق كبير إذ قد يحتاج إلى تصليح باليد تضيع به فائدة الآلة.

وهناك بحوث جارية الآن عبر العالم في الجهاز القارئ الخاص بالكتابة العربية للتقليل من الأغلط إلا أنه لم يتحقق بعد ما حقق في الكتابات الأجنبية. وسنضطر في الوقت الراهن إلى اللجوء إلى الحيازة اليدوية إلى أن يتم القارئ الآلي العربي إن شاء الله.

5 - حقوق المؤلف :

طرح أيضا مشكل حقوق المؤلفين للكتب التي ينشرونها وكذلك حقوق الأعمال التي تخص حوسبة التراث. فالإجابة عن هذا حسب أصحاب المشروع ونحن نوافقهم على ذلك هي كالتالي :
سيحافظ على حقوق المؤلف بالكيفية التالية: أجوبة الذخيرة وتكنولوجيا معين.

- أجوبة عن أسئلة تخص عناصر لغوية كما سبق أن بيناه فهي إلا إذا كان مفتوحا ولا يكون مفتوحا إلا بوجود اتفاقية بين المشرفين على الذخيرة وصاحب النص تأذن لهم بذلك (بشراء الحقوق أو بإذن مكتوب منه).

وكذلك هو الأمر بالنسبة للمعلومات العلمية والثقافية التي لأصحابها حقوق: ولا تكون مفتوحة على الجمهور إلا بإذن مكتوب من أصحابها فإذا لم يتم ذلك فلا بد من الاتفاق معه على إدماج النص لاستغلاله من الناحية اللغوية فقط ولا يمكن أن يرجع الجمهور إلى النص نفسه ولا المعلومات التي يتضمنها (وذلك بوسائل خاصة بالحاسوب).

وهناك حل آخر وهو تقسيم مضمون الذخيرة إلى ما يجعل تصرف الناس باشتراك وقسم آخر بدون اشتراك. ويستفيد بذلك المؤلفون.

6 - توحيد طرائق تقنيات الحيازة والحوسبة:

تحتاج الحيازة إلى أن توحّد طرائقها لأن الذخيرة هي مجموعة من النصوص كما قلنا وهذا سيتم بنشر طريقة موحدة بالنسبة لجميع المساهمين هي الآن بصدد الانحياز في مستوى الهيئة الدولية. وكذلك هو الأمر بالنسبة لما يحتاج إليه الحاسوب من « البرمجيات » (Soft - Ware) ليستطيع الإجابة المناسبة للأسئلة التي يطرحها عليه المستفيد من الذخيرة. وقد جرت في ذلك، حسب ما أخبرنا به أصحاب المشروع بحوث جادة وأخبرونا بأن هذه البرمجيات قد تم إنجازها وقد عرضت على المشاركين في ندوة وطنية في الجزائر من أجل المشاركة في إنجاز الذخيرة وحضرها من أعضاء هذه اللجنة الدكتور بلعيد صالح وهي تقوم بعملها أحسن قيام.

الخلاصة:

لقد حاولنا أن ننظر بإمعان في الصعوبات التي قد تعترض طريق الإنجاز وقد أثار بعضها أفراد قلائل وهم محقون في ذلك إلا أننا بعد النظر فيها اتضح أنها ليست من المشاكل التي لا يمكن أن تحل. فبالنسبة إلى كثرة المعطيات فقد أجاب أصحاب المشروع ونحن موافقون على ما قالوه أن مثل هذه المشاريع لا يمكن أن تنجز إلا على مستوى الوطن العربي بل هو مشروع يرمي في الحقيقة إلى تعميم ما هو حاصل منذ سنوات بكيفية مبعثرة وبدون نظام يجمع هذا العمل وهو حوسبة الانتاج العلمي وغيره وحوسبة التراث. فيراد من المشروع أن ينسق بين كل هذه الاعمال ويضيف إلى ذلك التجمع في مدونة واحدة آلية يمكن إلقاء عليها الأسئلة. وذلك بدون المس بحقوق أي مؤلف وأي شركة تجارية.

ثم بالنسبة إلى هذا التنسيق وتمويله فلا مناص من إلحاقه بأعلى مؤسسة سياسية عربية وهي جامعة الدول العربية وإذا وزعت الحصص بنظام متقن ودراسات ستتكفل بها اللجان في كل المستويات فلا شك أن كل ذلك سيكلل بالنجاح إن شاء الله فأهم صعوبة في اعتقادنا هو في إدراك الناس وأصحاب القرار منهم الأبعاد العظيمة التي يتصف بها مشروع الذخيرة أو الانترنت العربي والسلام.

محضر الندوة الثانية لمشروع الذخيرة اللغوية العربية المنعقدة في جامعة الخرطوم وما تقرر فيها من توصيات

برعاية معالي الأستاذ الدكتور أحمد علي الإمام مستشار فخامة رئيس جمهورية السودان لشؤون التأصيل وإشراف من جامعة الدول العربية، انعقدت الندوة الثانية لمشروع الذخيرة اللغوية العربية (الانترنت العربي) بدعوة كريمة من الأستاذ الدكتور عبد الملك محمد عبد الرحمن مدير جامعة الخرطوم، بقاعة الشارقة يومي 23 - 24 شوال 1423 هـ الموافق لـ 28 - 29 ديسمبر 2002م ، وشارك في هذه الندوة:

1 - أ. د محمد وحيد الدالي ممثل معالي الأمين العام لجامعة الدول العربية.

2 - أ. د عبد الباسط عبد الماجد وزير الثقافة - جمهورية السودان .

3 - أ. د عبد الرحمان الحاج صالح رئيس اللجنة الدولية لمشروع الذخيرة اللغوية العربية ورئيس المجمع الجزائري للغة العربية.

4 - أ. د عبد الملك محمد عبد الرحمان مدير جامعة الخرطوم.

5 - أ. د عوض حاج علي مدير جامعة النيلين ممثل الأمين العام لاتحاد الجامعات العربية.

6 - أ. د أبو بكر علي أبو الجوخ نائب مدير جامعة الخرطوم.

7 - أ. د. بابكر البدوي دشن ممثل رئيس مجمع اللغة العربية في السودان.

8 - أ. د. الطاهر بلال الأمين العام للمجمع الجزائري للغة العربية.

9 - أ. د. عبد الله المعطافي ممثل البنك الاسلامي للتنمية.

10 - أ. د. خالد الحمودي نائب رئيس جامعة الملك سعود للدراسات العليا والبحث العلمي.

11 - أ. د. علي أبو زيد ممثل رئيس جامعة دمشق ورئيس قسم اللغة العربية.

12 - د. محاسن عبد القادر حاج الصافي - عميد كلية الآداب - جامعة الخرطوم.

13 - د. محمد عبد المنعم إسماعيل عميد مدرسة العلوم الرياضية.

14 - أ. د. علي أحمد مذكور - عميد كلية التربية - جامعة السلطان قابوس.

15 - أ. د. موسى بن عبد الله الكندي عميد الخدمات التعليمية في جامعة السلطان قابوس.

16 - أ. د. محمد نور عبد الرحمن مدير فريق الباحثين اللغويين في الشركة العالمية لبرامج الحاسب (صخر).

17 - أ. راتب عباس الخطيب مؤسسة التراث العربي - عمان -

18 - أ. د. محمد الواصل مدير معهد عبد الله الطيب للغة العربية - جامعة الخرطوم -.

19 - اللواء م . عبد الحى ممثل مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري .

20 - السيد / خضير بن بليل - باحث بمركز البحث العلمي والتقني لترقية اللغة العربية - الجزائر .

21 - السيد / سراط عبد المجيد مدير البحوث الوثائقية والنشرات بالمجمع الجزائري للغة العربية .

22 - السيد / أحسن بلورنة نائب مدير الإدارة والوسائل بالمجمع الجزائري للغة العربية .

تداول المشاركون في محاور الندوة، وأكدوا على أهمية المشروع الكبيرة، وضرورة تنفيذه والبحث عن سبل إنجازه والاحتياجات الضرورية لإنجازه (انظر جدول الأعمال المرفق). وشكلت لجنة صياغة التوصيات من السادة:

* أ . د أبو بكر علي أبو الجوخ

* أ . د الطاهر بلال

* د . محاسن عبد القادر

* أ . د علي أبو زيد

* أ . محمد الواثق

خلصت الندوة في ختام أعمالها إلى التوصيات التالية:

1 - رفع برقية شكر إلى فخامة رئيس جمهورية السودان الفريق عمر

حسن أحمد البشير على تبنيه للندوة ودعمه لها .

- 2 - الموافقة على تعديل تسمية اللجنة الدولية لمشروع الذخيرة اللغوية العربية (الإنترنت العربي) لتصبح: «الهيئة العليا لمشروع الذخيرة العربية» وإلحاقها مباشرة بجامعة الدول العربية.
- 3 - الموافقة على مشروع القرار المتضمن إنشاء الهيئة العليا لمشروع الذخيرة العربية، وتقديم ميزانية تفصيلية للهيئة.
- 4 - ضرورة إشراك الجامعات العربية كافة، ومجامع اللغة العربية ومراكز البحث العلمي في هذا المشروع.
- 5 - تؤكد الندوة ما جاء في توصيات الندوة التأسيسية الأولى المنعقدة في الجزائر بتاريخ 26 - 27 ديسمبر 2001 حول ضرورة الإفادة من جميع الأعمال المشابهة التي تقوم بها مؤسسات علمية وثقافية أخرى.
- 6 - التوجه بالطلب إلى جامعة الدول العربية ممثلة بأمينها العام لتخصيص ميزانية للمشروع تلبي حاجاته.
- 7 - التوجه بالطلب إلى حكومات الدول العربية للحصول على موافقتها على المشاركة في المشروع، وتخصيص الموارد الكافية لتمويل نشاط اللجان القطرية.
- 8 - التوجه إلى جهات مالية ذات الاهتمام بالمشروع (مثل البنك الإسلامي للتنمية، الصندوق العربي للإنماء الاقتصادي والاجتماعي، وغيرهما).
- 9 - تقوم الهيئة العليا للمشروع بوضع الموجهات العامة وخطة العمل للجان القطرية التي تقوم بإحجاز نصيبها من المشروع سنويا ومرحليا.
- 10 - توصي الندوة الثانية لمشروع الذخيرة العربية بأن يتكرم معالي

الأمين العام لجامعة الدول العربية بحث الدول الأعضاء على دعم المشروع ماديا ومعنويا، كما توصي أيضا أن يتولى الأستاذ الدكتور عبد الرحمان الحاج صالح رئيس الهيئة العليا للمشروع رفع التوصيات إلى رئاسة الجمهورية الجزائرية لتتكرم بعرضها على جامعة الدول العربية، وأن يتولى من جهة ثانية الأستاذ الدكتور عبد الملك محمد عبد الرحمن مدير جامعة الخرطوم رفع هذه التوصيات إلى رئاسة جمهورية السودان لدعمها لدى جامعة الدول العربية.

11 - يرجو المشاركون في الندوة أن يدعو معالي الأمين العام لجامعة الدول العربية لاجتماع خاص للسادة وزراء التعليم العالي ووزراء الثقافة العرب يخصص للبحث عن سبل الدعم وتحقيق الإنجاز لمشروع الذخيرة اللغوية العربية يدعى إليه رئيس الهيئة العليا لمشروع الذخيرة العربية ويدعم هذا الطلب لدى جامعة الدول العربية الجزائر والسودان كما جاء في التوصية 10 .

12 - توصي الندوة بأن يكون الشروع في إنجاز المشروع بمجرد عودة كل ممثل إلى بلده وذلك بالقيام بحملة إعلامية لمدة أسبوع على الأقل وبإقامة ندوة تأسيسية وطنية للمشروع يدعى إليها جميع المؤسسات العلمية والثقافية.

13 - توصي الندوة معالي الأمين العام لجامعة الدول العربية وكذلك رئيس الهيئة العليا للمشروع بمخاطبة كل الجهات المدعوة إلى الندوة ولم تحضر بالانضمام إلى المشروع والبدء في إنجازه حسب ما جاء في التوصيات السابقة.

مشروع الذخيرة العربية

(الإنترنت العربي)

أعضاء اللجنة المختصة المكلفة بدراسة المشروع

الأستاذة الدكتورة حبيبة درياس

أستاذة علوم الحاسوب في جامعة هواري بومدين
للعلوم والتكنولوجيا بالجزائر
ومديرة المعهد الوطني للإعلام الآلي بالجزائر

الأستاذ الدكتور صالح بلعيد

أستاذ علوم اللغة العربية وعلوم اللسان بجامعة
تيزي وزو بالجزائر ورئيس المجلس العلمي لمركز
البحوث العلمية والتقنية لترقية اللغة العربية

الأستاذ الدكتور بشير إبرير

أستاذ علوم اللغة العربية وعلوم اللسان بجامعة عنابة بالجزائر

الأستاذ الدكتور عبد الجليل مرتاض

أستاذ علوم اللغة العربية وعلوم اللسان بجامعة تلمسان بالجزائر
الذخيرة كان الأحرى والأجدر أن نحجزه إلى حصص كثيرة توزع على

مستقبل اللغة العربية اللغة العربية إلى أين؟

إعداد : التحرير

لا مرأى في أن اللغة العربية تعاني من بعض المشكلات في عصرنا الراهن، وهي مشكلات تُرجعها في مجملها إلى عوامل سابقة، وأخرى حديثة، غير أنها في كل الظروف، مشكلات قابلة للحل، غير مستعصية عليه، بفضل ما يلقي عليها من أضواء من لدن الغيورين من أبناء هذه الأمة على لغة قرآنهم الكريم ووعاء ثقافتهم العظيمة، وعلينا دائماً أن نكون متفائلين بمستقبل هذه اللغة، انطلاقاً من مقارنتها بحالها في القرن التاسع عشر وما قبله، حيث وصلت إلى أدنى مستوياتها في الأساليب والمصطلحات، وكادت أن تخلو من الإبداع في التوليد أو الاشتقاق، وثقلت ببعض المحسنات البلاغية التي اعتقد أصحابها أنهم بها يُعيدون العربية إلى عصرها الزاهر، بيد أنها منذ مطلع القرن العشرين، استطاعت أن تتعافى من الضعف والمرض، وأن تكون أداة للتواصل، بل أصبحت إحدى اللغات العالمية المعتمدة في الهيئات والمؤتمرات الدولية، وتُدرّس في مختلف جامعات العالم.

ملخص كلمة الأمين العام للمنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة أُلقيت في افتتاح ندوة دولية حول: «اللغة العربية... إلى أين»

أما عن أسباب المشكلات التي تعاني منها اللغة العربية اليوم، فيعود أهمها إلى توسع دور اللغات الأجنبية على حساب لغة الضاد من جهة، وإلى التمسك باللهجات المحلية من جهة أخرى، وكلاهما خطرٌ على لغة الضاد لأن أي إقصاء للغة العربية الفصحى لصالح أي لغة أخرى أو أي لهجة عامية، يعدُّ إضعافاً لها وتحجيماً لمكانتها، وبالتالي يشكل خطراً على الثقافة العربية الإسلامية، ويسهم في إضعاف الأمة وفقدان هويتها وضياح تراثها. وإذا كان تعلم اللغات الأجنبية ضرورة لا مناص عنها لمواكبة مستجدات عصر الثقافة الحديثة، فإن إتقان اللغة العربية شرطٌ أساسٌ للإبداع في مختلف المجالات، والإسهام في رقي أمتنا العربية الإسلامية واستعادة مجدها، واستئناف ريادتها الحضارية.

لقد انتشرت اللغة العربية بفضل الإسلام في آسيا، وإفريقيا، وأوروبا، واقتبست لغات عدة نسبة عالية من مفرداتها. ولم يقف انتشارها عند ذلك الحد، بل إنها تزدهر اليوم في معظم بلدان العالم من خلال انتشار الإسلام فيها، وتطلع المسلمين إلى تعلم لغة القرآن الكريم، ليعرفوا دينهم ويتفقهوا فيه.

وتأسيساً على ما سبق ذكره، فإن لغة الضاد تشهد حالياً إقبالا عظيماً على تعلمها، سواء من طرف المسلمين غير الناطقين بها باعتبارها لغة الذكر الحكيم ووعاء الثقافة الإسلامية، أو من قبل الدارسين والباحثين الذين أدركوا قيمة اللغة العربية باعتبارها اللغة التي احتضنت حضارة عظيمة بالغة الثراء، موفورة العطاء لها فضل على الحضارات الإنسانية

عبر القرون، إذ أمدتها بثمرات العلوم والمعارف، وأغنت ذخيرتها، وأثرت رصيدها، فصارت بذلك مفتاحاً لكنوز حضارية مكنتها من أن تكون موضع اهتمام المراكز العلمية عبر العالم كله.

ويندرج في هذا الإطار، تنفيذ برنامج حضاري طموح، يُعنى بإعادة كتابة لغات الشعوب الإسلامية بالحرف القرآني المنمط، وقد تمّ حتى الآن، تنميط كتابة سبع عشرة لغة أفريقية، ورعت المنظمة الإسلامية تصنيع آلة طابعة خاصة باللغات الأفريقية، وهي اللغات التي كانت تكتب أصلاً بالحرف العربي قبل المرحلة الاستعمارية التي عمد الاستعمار الأوروبي فيها على استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي. وهذا إنجاز حضاري بالغ الأهمية، حققته المنظمة الإسلامية التي تنهياً في هذه المرحلة للبدء في تنفيذ الجزء الثاني من هذا البرنامج، بتنميط كتابة لغات الشعوب الإسلامية في آسيا، وذلك في إطار التعاون مع البنك الإسلامي للتنمية، وجمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ومعهد الدراسات والابحاث للتعريب.

لقد أصدرت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، في إطار اهتمامها بتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، مجموعة من الكتب والدراسات الخاصة بتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، سواء باللغة العربية، أو ببعض لغات الشعوب الإسلامية، وبعضها تُرجم إلى اللغات الأوروبية.

إنّ إنجازات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة في مجال نشر

اللغة العربية والثقافة الإسلامية، عديدة ومتنوعة، ولا يتسع المقام لحصرها، بل إنَّ ما ذكرناه غيض من فيض، ولعل أوضح برهان وأسطعه على الاهتمام الذي توليه المنظمة الإسلامية للغة العربية ونشرها، وإشاعة قيم العقيدة الإسلامية، يتجلى في تنظيم هذه الندوة الدولية بالتعاون مع البنك الإسلامي للتنمية، لبحث واقع لغة الضاد وأفاقها، بهدف تشخيص العلل التي تقف أمام تطورها وانتشارها.

وهكذا تواصل جهود المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة الهادفة إلى اتخاذ الوسائل الكفيلة باستمرار اللغة العربية حية ومنتجة في وجدان الأمة، لبناء الذات الإسلامية، وتفعيل دور اللغة العربية في صياغة المستقبل الإسلامي، في ظل عصر العولمة وصراع الحضارات الذي نسعى جاذين، إلى أن يكون حوارًا للحضارات، وتعايشًا فيما بينها.

مشروع لكتابة اللغات الأفريقية بالحرف العربي

في القرن السابع من هجرة الرسول صلى الله عليه و سلم، نعى العلامة ابن منظور في مقدمة كتابه العمدة (لسان العرب المحيط) ما صارت إليه حال اللغة العربية في زمانه من ضعف ووهن وهزال. وبعد انصرام خمسة قرون، بشر العلامة الدكتور شوقي ضيف في كتاب له، بازدهار اللغة العربية وانتشارها.

ويبدو عند النظرة العجلى، أن ثمة مفارقةً من المفارقات التاريخية،

تستوقف الفكر وتثير الانتباه. بيد أن المتأمل المتمعن المتعمق، يستطيع أن يميز بين الحالتين، ويهتدي إلى النتيجة التي ينشرح لها الصدر وتطمئن إليها النفس.

يقول ابن منظور في مقدمة اللسان بعد استهلال، ما يلي :
.. وذلك لما رأيته قد غلب، في هذا الأوان، من اختلاف الألسنة والألوان، حتى لقد أصبح اللحن في الكلام يعدُّ لحناً مردوداً، وصار النطق بالعربية من المعايب معدوداً، وتنافس الناس في تصانيف الترجمات في اللغة الأعجمية، وتفاصحوا في غير اللغة العربية، وجمعت هذا الكتاب في زمن أهله بغير لغته يفخرون، وصنعتة كما صنع نوح الفلك وقومه منه يسخرون (1).

ويقول الدكتور شوقي ضيف في كتاب له صدر في عام 1987 بعنوان (في التراث والشعر واللغة)، ما يلي :

الفصحى تحيا في عصرنا حياة مزدهرة إلى أبعد حدود الازدهار، وهو ازدهار أتاح لها لغة علمية حديثة، وفنوناً أدبية متنوعة، وأسلوباً مبسطاً ميسراً، مع استيلائها على ساحة الصحف ومع محاولاتها الجادة في الاستيلاء على ساحة الإذاعة. وإني أومن بأنها ستظل تزدد ازدهاراً وانتشاراً من يوم إلى يوم حتى تحلّ نهائياً في الألسنة مكان العامية، لا فيما بقي لها من الفنون الأدبية الشعبية فحسب، بل أيضاً في لهجات التخاطب اليومية (2).

إنَّ المقارنة بين قول ابن منظور في القرن السابع، وقول الدكتور شوقي

ضعيف، في القرن الخامس عشر، عن حال اللغة العربية، تفتح أمامنا أفقاً واسعاً للتأمل. ولقد طاب لي أن أستهل حديثي بهذه المقارنة، لأن من شأنها أن تحفز إلى تدبر المستوى الذي وصلت إليه اللغة العربية في هذا العصر، وبصورة خاصة، منذ مطلع القرن العشرين، وبصورة أخص، منذ تأسيس هذا الجمع الذي يحتفل هذه السنة بمرور سبعين عاماً على إنشائه، كانت كلها مواسم للعطاء والنماء والإغناء.

إن واقع اللغة العربية، مهما يكن شأن أهلها معها، ومهما تكن الصعوبات التي تعترض سبيلها أو المشكلات التي تعاني منها، واقع يبعث على الاطمئنان، لا لأنها لغة القرآن الكريم المحفوظ بالمشيئة الإلهية فحسب، وإنما لقيام هذه النهضة اللغوية التي توسعت آثارها وترعرعت أغصانها طيلة القرن العشرين المنصرم، والتي من أركانها الراسخة تأسيس مجامع اللغة العربية في العديد من العواصم العربية، التي تعتبر بحق السلطات التشريعية العليا للغة العربية.

لقد اطردت الجهود التي تبذل في خدمة اللغة العربية طيلة العقود السبعة الأخيرة، وقد أتت هذه الجهود أكلها. ومع ذلك فإننا نقول إن الحفاظ على اللغة العربية وحمايتها والعمل على انتشارها والتمكين لها في أوساط المجتمعات العربية ولدى الشعوب الإسلامية غير الناطقة بها والجاليات العربية الإسلامية في بلاد المهجر، ليس عملاً تعليمياً تزبويّاً، أو نشاطاً ثقافياً أدبياً، أو وظيفة من وظائف وزارات التربية والتعليم والمؤسسات والهيئات والمنظمات المختصة فحسب، ولكنه عمل من

صميم الدفاع عن مقومات الشخصية العربية، والذود عن مكونات الكيان العربي الإسلامي، وعن خصوصيات المجتمعات العربية الإسلامية، وعن الركيزة الأولى للثقافة العربية وللحضارة العربية الإسلامية. وعملٌ في هذا المستوى وبهذا القدر من الأهمية، يدخل ضمن خطة بناء المستقبل ورسم معالمه. فاللغة العربية ركنٌ أساسٌ من أركان الأمن الثقافي والحضاري والفكري للأمة العربية الإسلامية في حاضرها وفي مستقبلها، واللغة العربية هي القاعدة المتينة للسيادة الوطنية والقومية والإسلامية، وهي ليست لساناً فحسب، ولكنها عنوانٌ لهذه السيادة التي تحرص عليها كلُّ دولة من دول المجموعة العربية الإسلامية⁽³⁾.

ومن صميم الحفاظ على اللغة العربية وتجديد رسالتها في الحاضر والمستقبل، العناية بلغات الشعوب الإسلامية التي كانت تكتب منذ نشأتها، بالحرف العربي، وسُجِّلَ بها تراثٌ علميٌ وفقهيٌ وأدبيٌّ كان ولا يزال، من روافد الثقافة العربية الإسلامية، إلى أن جاء عصر الاستعمار الأوروبي، فاستبدل بالحرف العربي الحرف اللاتيني، في محاولة منه للقضاء على الهوية الثقافية والذاتية الحضارية لهذه الشعوب التي هي جزءٌ لا يتجزأ من الأمة العربية الإسلامية.

وباعتبار أن اللغة العربية، قضية استراتيجية في المقام الأول، تمس الأمن الثقافي والحضاري للأمة، للاعتبارات السابقة جميعاً، فإن المسألة، في عمقها وجوهرها، تتطلب يقظة أشمل وأعمق، وحركة أكبر وأنشط،

وعملاً أكثر جديةً وفعالية، واستنفاراً للطاقات الحية وحشداً للجهود المخلصة، في إطار من التنسيق والتكامل والتعاون، والعمل العربي المشترك على مستوى المنظمات والمؤسسات والجامعات والهيئات المختصة.

إن اللغة العربية هي العروة الوثقى التي تجمع بين الشعوب العربية والشعوب الإسلامية التي شاركت في ازدهار الثقافة العربية الإسلامية. وبهذا الاعتبار، فإن الوفاق العربي والتضامن الإسلامي، لا بد أن يقوما على هذا الأساس المتين؛ لغة القرآن الكريم، ولغة الثقافة العربية الإسلامية. ومن هنا تبدو الأهمية الكبرى لتدعيم مكانة اللغة العربية والعمل على نشرها وتعليمها لغير الناطقين بها من الشعوب الإسلامية، لأن في ذلك حماية للأمن الثقافي الحضاري للأمة العربية الإسلامية.

من خلال هذه الرؤية، يتأكد لنا أن اللغة العربية قضية وجود، وقاعدة كيان، ودعامة النظام العربي الإسلامي الذي يستند إلى مرجعية العمل العربي الإسلامي المشترك المتمثلة في جامعة الدول العربية، وفي منظمة المؤتمر الإسلامي. فهي إذن، قضية من القضايا ذات الثقل الكبير والتأثير العميق في حاضر الأمة ومستقبلها.

واللغة العربية هي وعاء الثقافة الإسلامية، وهي الأداة المثلى لمعرفة مبادئ الدين الحنيف وفهم أحكامه، وهي اللغة الوحيدة في العالم التي ترتبط بالدين ارتباطاً لا انفصام له. فاللغة العربية لغة الإسلام، لأنها لغة القرآن الكريم، ولغة حديث رسول الله محمد ﷺ، ولغة صحابته الأبرار

رضوان الله عليهم، الذين صنعوا تاريخ الإسلام وفتحوا أقطار الأرض ونشروا دين الحق بها⁽⁴⁾. وهي إلى ذلك لغة التراث العربي الإسلامي الذي شارك في بناء صرحه الشامخ رجال أفذاذ من علماء الأمة العربية الإسلامية ومفكريها، ومعظمهم لم تكن اللغة العربية لغة آبائهم وأجدادهم، دون أن يمنعهم ذلك من التأليف بلغة الضاد، ومن التفوق والبروز في التفكير، وفي إبداع الحضارة الإسلامية بما صنفوه من أمهات الكتب ونفائسها.

وبسبب هذا الارتباط العضوي بين الإسلام وبين اللغة العربية، كان العمل من أجل نشر اللغة العربية، والتمكين لها، وتدعيم مكانتها، وتوسيع نطاق تعليمها وتدريسها في البلدان الإسلامية وفي البلدان غير الإسلامية التي يوجد بها المسلمون، جزءاً لا يتجزأ من خدمة الإسلام عقيدة وثقافة وحضارة. ولذلك اقترن العمل الإسلامي الدولي في قنواته الرسمية والشعبية على السواء، وخصوصاً في جوانبه الثقافية والتعليمية، بنشر اللغة العربية، وبالأخص بين غير الناطقين بها، لما في ذلك من تدعيم لحضور الثقافة الإسلامية، وتعزيز لمكانة الإسلام، وتقوية للتضامن الإسلامي وللروابط الثقافية والحضارية التي تشد المسلمين بعضهم إلى بعض، نهوضاً بالمسؤولية الجماعية التي يتحملها المسلمون تجاه دينهم ولغة قرآنهم وثقافتهم، وإزاء أمتهم ودورها في الحاضر والمستقبل.

ولقد كان إنشاء منظمة المؤتمر الإسلامي، إعلاناً عن قيام الجهاز الإسلامي الدولي الذي يجسد فكرة التضامن الإسلامي، ويحقق

إحدى الوسائل العملية الفعالة لخدمة الثقافة العربية الإسلامية في إطار عام شامل متعدد المجالات، متنوع القنوات، هو تدعيم تنمية العالم الإسلامي من النواحي كافة، وفق الصيغة المتطورة التي تستند إلى أحكام القانون الدولي، وتتطابق ومقتضياته. وما لبثت منظمة المؤتمر الإسلامي أن طورت أساليب العمل الإسلامي الدولي، وذلك بإحداث قنوات جديدة تعززت بها مسيرتها، تمثلت في إنشاء منظمات ووكالات ومراكز وجامعات إسلامية، منها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، التي وضعت في مقدمة اهتماماتها العمل على نشر اللغة العربية وتعليمها داخل العالم الإسلامي وخارجه، بالأساليب التعليمية الحديثة، وذلك اقتناعاً منها بأن التنمية التربوية والعلمية والثقافية التي اضطلعت بمسؤولياتها لتطوير العالم الإسلامي، لا بد أن يكون من أدواتها تعليم اللغة العربية على أوسع نطاق وبأحدث الطرق، وأن يكون نشر الثقافة الإسلامية، وتعميم التعليم الإسلامي، قائمين على أساس تقوية اللغة العربية وإيصالها إلى القطاعات العريضة من المتعلمين على مختلف مستوياتهم⁽⁵⁾.

ولقد خططت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، في جميع خطط عملها منذ تأسيسها في عام 1982 م، وإلى اليوم، لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها. وقد قطعت المنظمة في هذا المجال أشواطاً مهمة، بحيث تحققت نتائج مرضية، وهي لا تزال تعمل في هذا المضمار بالتعاون والتنسيق مع الدول الأعضاء، ومع المنظمات والهيئات والمؤسسات

العربية والإسلامية ذات الاهتمام المشترك، مستفيدةً من الخبرات المتراكمة التي توفّرت لمن سبقها إلى العمل في هذا المجال الحيوي. وتقوم المنهجية العلمية التي تتبعها المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، في تعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها، وتحديد لغات الشعوب الإسلامية وإحياء رسالتها بإعادة كتابتها بالحرف العربي، على ثلاثة محاور، هي :

- المحور الأول : تخطيط المناهج التربوية وإعداد الكتب التعليمية لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها.
- المحور الثاني : تكوين مدرسي اللغة العربية والتربية الإسلامية، وعقد الدورات التدريبية لهم.
- المحور الثالث : كتابة لغات الشعوب الإسلامية بالحرف العربي⁽⁶⁾. ويهمنا في هذا السياق أن نبسط القول حول المحور الثالث، لأنه أساس هذا البحث.

إن أحد المرتكزات الرئيسة التي تنطلق منها الإيسيسكو في عملها الهادف إلى نشر تعليم اللغة العربية في مختلف الأفاق لتعمّ لغة القرآن الكريم أقطار العالم الإسلامي كافة، هو أن اللغة العربية كانت متداولة ومنشرة في عديد من المناطق الإفريقية والآسيوية قبل المرحلة الاستعمارية التي عصفت بمعظم المقومات الثقافية للعالم الإسلامي، وذلك لدرجة أن بعض اللغات الوطنية الإفريقية والآسيوية كانت تكتب بالحروف العربية⁽⁷⁾، وهو الأمر الذي يؤكد التغلغل الذي كان قائماً

للوجود الثقافي العربي الإسلامي في تلك المناطق، إلى أن جاء الاستعمار الأوروبي، فسعى منذ البداية نحو القضاء على الهوية الثقافية والحضارية للشعوب الإسلامية الناطقة بتلك اللغات الوطنية، وذلك من خلال استبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية في كتابة هذه اللغات، وكان من نتيجة هذا الاكتساح الاستعماري الجارف، أن صار الحرف العربي غريباً في تلك المناطق الإسلامية. وهي إحدى المؤامرات الاستعمارية التي دبّرت بلبيل، كما لا أحتاج أن أقول.

ووعياً بهذه الخلفيات، وضعت الإيسيسكو برنامجاً طموحاً لإعادة الهوية العربية إلى العديد من لغات الشعوب الأفريقية الإسلامية التي كانت ضحية المستعمر الأوروبي، وذلك من خلال إعادة كتابة اللغات الوطنية لهذه الشعوب بالحرف العربي، في عملية تقنية وفنية وتعليمية طويلة النفس استطاعت الإيسيسكو أن تنجح نجاحاً كبيراً في تحقيق الجزء الأول منها، ويتمثل ذلك في تَنَمِيط (أي وضع نَمَطٍ عربيٍّ للحروف) كتابة إحدى وعشرين لغةً من اللغات الإسلامية التي تتحدث بها الشعوب الإفريقية المسلمة.

إن الحديث عن اللغات الأفريقية أمرٌ مرهقٌ غاية الإرهاق للدارسين، إذ يبلغ عدد اللغات في أفريقيا نحو خمسمائة لغة، يتكلم بها نحو مائتي مليون من المواطنين الأفارقة الذين يعيشون جنوبي الصحراء في المناطق الاستوائية⁽⁸⁾.

وتشترك اللغات الإفريقية فيما سجلته من آداب بلغاتها في أنها، وفي

حالات كثيرة، تكتب المقدمة والخاتمة والتعليقات باللغة العربية، وتستخدم الكثير من الألفاظ العربية التي شاعت في اللغات الأفريقية، وتحتذي بحور الشعر العربية، وبناء الجملة، وتقع حتى في بعض الضرورات اللغوية العربية⁽⁹⁾.

واللغات الإفريقية التي تمّ تنميط كتابتها بالحرف العربي وفقاً لنظام صوتي يطابق خصائصها، والتي كانت تكتب أصلاً بالحرف العربي قبل أن يطالها الغزو الأوروبي، هي :

- 1 . التماشق (tamasheq)
- 2 . البولار / فلفلدي (pular / fulfulde)
- 3 . الهوسا (haoussa)
- 4 . السونتكي (soninke / sarakolé)
- 5 . الماندنكة (mandingue)
- 6 . السوسو (sosso)
- 7 . الكانوري (kanouri)
- 8 . الصنغي / زرما (songhoy / zarma)
- 9 . الولوف (wolof)
- 10 . اليوروبا (yoruba)
- 11 . السواحلية (swahili)
- 12 . الدينكا (dinke)
- 13 . القمرية (comorien)

14. الأرومو (oromo)

15. اللوغندا (louganda)

16. اللكبارة (lougbara)

17. التجرينية (tajrini)

18. النوبية (nobia)

19. الصومالية (somalien)

20. الزغاوية (zagawiya)

21. الميا / ودأي (alamba / woday)

ولقد حددت المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة الأهداف الخمسة التالية لهذا المشروع الحضاري :

أولاً : صقل الحرف العربي وتطويره صوتياً وتقنياً وتطويره لكتابة لغات الشعوب الإسلامية المتعددة بطريقة علمية متقنة.

ثانياً : المحافظة على التراث الحضاري للشعوب الإسلامية وتنمية لغاتها وثقافتها حتى تتمكن من مسايرة حضارة الثورة العلمية والتكنولوجية وتطور الاتصالات والمواصلات.

ثالثاً : ربط لغات الشعوب الإسلامية، بعضها ببعض من خلال اتخاذها لحرف واحد هو الحرف العربي، وربطها من ثم بلغة القرآن الكريم، وتهيئة وسائل الثقافة والتواصل والتبادل بينها كلها.

رابعاً : تقليص نفوذ اللغات الأجنبية الدخيلة على الشعوب الإسلامية الأفريقية وتخليصها تدريجياً من الهيمنة السياسية والثقافية والفكرية والاقتصادية الأجنبية.

خامساً : محاربة الأمية التي تضرب بأطنابها في الشعوب الإسلامية من خلال تطوير لغاتها وكتابتها وفق المنظور الثقافي المتسق مع دواعي الهوية والذاتية، ووفق المنهج التربوي القائم على أساس استخدام اللغة الوطنية في عملية التعلم بحسبانها أنجح الوسائل وأقصر السبل للوصول إلى هذا الغرض وأقلها تكلفة.

واعتمدت المنظمة الإسلامية المنهجية التالية في تنفيذ هذا المشروع :

- تحديد تردد الرموز المميزة للأصوات غير العربية لهذه اللغات الأفريقية المعنية قصد التوصل إلى تصميم آلات لطباعة هذه اللغات غير العربية بالحرف العربي.

- ضبط الحروف المعتمدة على أساس تحليل علمي دقيق للرموز، وتحليل الأصوات اللغوية في صورها الأولية، ثم إخضاعها للتحليل على مستويات مختلفة من أجل التوصل إلى الوحدات الصوتية المميزة في اللغات المعنية.

- وضع رموز كتابية، على ضوء عوامل عملية وتاريخية وبيداغوجية وجمالية مختلفة.

- تحديد الوحدات الصوتية المميزة، والرموز الكتابية (الحروف) لبعض الأصوات الخاصة التي تتمثل في الصوامت الحنجرية.

وهذا عمل حضاري بالغ الأهمية، شديد التأثير، عظيم الفائدة، يخدم في الأساس قضية انتشار اللغة العربية على أوسع مدى، ويحقق هدفاً استراتيجياً من أهداف التنمية الثقافية والبناء الحضاري في بلدان العالم

الإسلامي. وهو إلى ذلك مشروعٌ طويلٌ النفس مستمر ومطرّد، ولن ينتهي إلاّ بعد الانتهاء من إعادة الحروف العربية إلى اللغات الإسلامية التي كانت تكتب بها أصلاً، قبل أن تتعرض للتأمر الاستعماري الثقافي. وهو عملٌ يتطلب تضافر الجهود، ولا يمكن بحالٍ أن تنهض به جهة واحدة. ولذلك قام تعاون وتنسيق قويان في إنجاز هذا المشروع بين الإيسيسكو وعدة منظمات ومؤسسات إسلامية وعربية، منها، على الخصوص، البنك الإسلامي للتنمية الذي له هو الآخر اهتمامات ثقافية وتعليمية، إضافة إلى اختصاصاته المالية والاقتصادية الرئيسة.

وعزّز هذا العملَ الثقافيَّ الحضاريَّ الهام، ما قامت به الإيسيسكو بالتعاون مع معهد الأبحاث والدراسات للتعريب بالرباط، من صنع آلة كاتبة جديدة تطبع بالحروف العربية اللغات الإسلامية، التي تمّ تَمْطيط كتابتها. وهو ابتكار مهم أضاف جديداً إلى الطباعة العربية، إضافةً إلى الاختراع الجديد الذي ابتكرته المنظمة الإسلامية، وهو إنتاج حروف مطبعية عربية للطباعة اليدوية لطبع الكتب والصحف والمجلات والوثائق بهذه اللغات الإسلامية الأفريقية.

ومن شأن هذه الجهود التي تتم في دأب وصمت، ويجري القيام بها في إطار برنامج مدروس وبمنهجية علمية سليمة، أن يوسّع من دائرة انتشار الحرف العربي، الذي هو المدخل إلى تعليم اللغة العربية، والإقبال عليها، لدى الأوساط غير الناطقة بها.

وإذا توسّع تنفيذ هذا البرنامج في مرحلته الثانية في آسيا الوسطى، كما

هو مخطط له، يكون قد تحقق هدفاً أساساً من الأهداف الثقافية والخضارية التي تعمل الإيسيسكو من أجلها.

وبموازاة هذا العمل الذي تنهض به المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، قامت المنظمة بوضع ثلاثة معاجم عربية - أفريقية، وفق المنهجية التي حدّتها لهذا المشروع، وهي :

1. معجم عربي - فولاني،

2. معجم عربي - هوسا،

3. معجم عربي - قمري.

وفي مقابل ذلك، أصدرت المنظمة الإسلامية ثلاثة كتب متخصصة في التعريف باللغات الأفريقية الإسلامية التي شملها مشروع الإيسيسكو، من الناحيتين التاريخية والصوتية، وهي :

1. كتاب تعريف عن تاريخ لغة الهوسا،

2. كتاب تعريف عن تاريخ اللغة السواحلية،

3. صوتيات لغات الشعوب الإسلامية في أفريقيا (الهوسا، الفولاني، السواحلية).

وتعزّز هذا المجهود بصدور سلسلة من الكتب لتعليم لغات الشعوب الإسلامية الأفريقية ومحو الأمية بها، وهي :

1. تعليم لغة الفلقلدي بالحرف القرآني،

2. منهج نحو الأمية بلغة الهوسا المكتوبة بالحرف القرآني،

3. منهج نحو الأمية باللغة الفولانية المكتوبة بالحرف القرآني،

4 . منهج نحو الأمية باللغة القمريّة المكتوبة بالحرف القرآني .

واتساقاً مع هذا التوجّه، أصدرت المنظمة الإسلامية كتابين عن اللغات الإسلامية في منطقة آسيا الوسطى، هما :

1 . كتابة اللغات الأترابية بالحرف العربي،

2 . كتابة اللغات الأذربيجانية بالحرف العربي .

وسبق للمنظمة الإسلامية أن أصدرت كتابين توثيقيين عن اللغة والأدب والثقافة العربية الإسلامية في الصومال، هما :

1 . اللغة العربية في الصومال،

2 . الأدب الصومالي المعاصر .

ويتواصل العمل في وضع معاجم عربية - أفريقية أخرى، ستصدر تبعاً إن شاء الله، حتى تغطي اللغات الأفريقية الإحدى والعشرين التي شملها مشروع الإيسيسكو .

ولقد استندت هذه المعاجم إلى المنهج العلمي المعتمد في (صناعة المعجم لغير الناطقين بالعربية)، مع الاستفادة من تجربة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في مجال التخطيط المنهجي لصناعة المعجم، من حيث المضامين المعجمية، والمصادر، والمتن اللغوي، وفئة المتعلمين، وذلك من منطلق الحرص على تحقيق الأهداف التعليمية للمعجم .

إن من الحقائق الساطعة التي تأكّدت وتوثّقت عبر الزمن، أن الإسلام قد أثر في الشعوب الإسلامية غير الناطقة بالعربية، تأثيراً شديداً، فضلاً عن اتخاذها الخطّ العربيّ لكتابة لغاتها به، فإن هذه اللغات قد صبغت

أيضاً بصبغة عربية. فلغات الشعوب الإسلامية على العموم، قد تأثرت تأثراً محسوساً باللسان العربي فيما استعارته من الألفاظ والكلمات العربية الكثيرة.

لقد كان الخط العربي هو الواسطة الوحيدة للديانة والتجارة والمعاملات الاجتماعية للمسلمين من أول الأقاليم الوسطى الأفريقية إلى آخرها، كما أنه في أقصى الجنوب الأفريقي يستعمله مهاجرو الملايو. فمن كل ما تقدم نستنتج أن الحرف العربي انتشر بانتشار الحضارة الإسلامية⁽¹⁰⁾.

لقد كان الحرف العربي من أقوى العوامل التي صمدت بها الشعوب الإسلامية الأفريقية في وجه المستعمر لعهود طويلة، قبل أن يدب في أوصالها الوهن وتسقط فريسة للاستعمار ابتداءً من القرن التاسع عشر. ولذلك كان من متطلبات استكمال عناصر القوة لهذه الشعوب، السعي إلى إعادتها إلى دائرة هويتها الثقافية وأصولها الحضارية، من خلال إعادة كتابة لغاتها الوطنية بالحرف العربي.

ولقد رأيت أنه من المناسب جداً، في هذا المقام، أن أورد هنا عبارة للمستشرق الفرنسي جاك بيرك عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، والذي عاش لفترات طويلة في بلدان المغرب العربي، خاصة في المملكة المغربية. يقول جاك بيرك : فإن اللغة العربية هي أقوى القوى التي قاومت الاستعمار الفرنسي في المغرب، بل هي اللغة العربية الكلاسيكية الفصحى بالذات، فهي التي حالت دون ذوبان المغرب في فرنسا. إن

الكلاسيكية العربية هي التي بلورت الأصالة الجزائرية، وقد كانت هذه الكلاسيكية العربية عاملاً في بقاء الشعوب العربية (11).

إن إعادة الحروف العربية إلى اللغات الإسلامية الأفريقية، مسؤولية تضطلع بها باسم العالم الإسلامي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، وهي إذ تشرف بهذه المهمة الجليلة، تمدّ يدها إلى كل الغيورين على مستقبل الأمة وثقافتها، للتعاون المثمر والتكامل البناء.

الهوامش

- (1) ابن منظور، (لسان العرب المحيط)، المقدمة ص : ذ. طبعة يوسف خياط، قدم لها عبد الله العلايلي، دار الجيل - دار لسان العرب، بيروت 1988 م.
- (2) د. شوقي ضيف، (في التراث والشعر واللغة)، فصل عن (الفصحى المعاصرة)، ص : 244 - 242. سلسلة مكتبة الدراسات الأدبية (100)، دار المعارف، القاهرة، 1987 م.
- (3) د. عبد العزيز بن عثمان التويجري، في البناء الحضاري للعالم الإسلامي، الجزء الرابع، ص : 81. منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، الرباط، 2001 م.
- (4) إن التفضيل الديني لمنشأ اللغة العربية، مما لا ينازع فيه مسلم، وذلك بخلاف ما ذهب إليه الشيخ أمين الخولي في محاضراته بالجامعة التي جمعت بعد وفاته في كتاب بعنوان «مشكلات حياتنا اللغوية»، ص : 66 - 65، الصادر ضمن أعماله الكاملة عن الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1987 م. وما استشهد به أمين الخولي من كلام ابن حزم من كتابه "الإحكام في أصول الأحكام"، لا يَظَلُّ المسألة من الأساس، وليس حجة على الرأي الذي ذهب إليه.
- (5) د. عبد العزيز بن عثمان التويجري، في البناء الحضاري للعالم الإسلامي، الجزء الثاني، ص : 45. الرباط، 1997 م.
- (6) نستعمل في الإيسيسكو عبارة (الحرف القرآني)، تفادياً للحساسيات التي تحدثها عبارة (الحرف العربي) لدى بعض الدول الأفريقية، للأسباب التي تخصّها، وللدواعي التي نراعيتها.

(7) يذكر الدكتور إبراهيم أنيس في كتابه "اللغة والقومية والعالمية"، ص: 169، دار المعارف، القاهرة 1970 م، أن اللغة السواحلية التي تحتل مركزاً مرموقاً بوصفها لغة العلم والتعليم في المدارس في كل من كينيا والدول المجاورة لها، تكتب بحروف عربية، وقد تمت ألفاظها وكلماتها نمواً كبيراً بفضل ما اقتبسته من ألفاظ عربية كثيرة. وكان ذلك قبل استبدال الحرف اللاتيني بالحرف العربي، في مطلع السبعينيات من القرن الماضي.

(8) د. إبراهيم أنيس، اللغة بين القومية والعالمية، ص: 165 - 164، دار المعارف، القاهرة، 1970 م.

(9) د. الطاهر أحمد مكي، مقدمة في الأدب الإسلامي المقارن، ص: 265، الطبعة الأولى، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، القاهرة، 1994 م.

(10) عبد الفتاح عبادة، انتشار الخط العربي في العالم الشرقي والعالم الغربي، ص: 98، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، الطبعة الثانية، دار الغد العربي، القاهرة، بدون تاريخ.

(11) معلّمة الإسلام، أنور الجندي، المجلد الأول، ص: 590، المكتب الإسلامي، الطبعة الثانية، بيروت، 1980 م.

الكشف في المعاجم المصدر: مقدمة الصّاح

تعددت المعاجم العربية وتنوعت خلال العصور السالفة ولكن القصد منها في كل الأحوال كان واحداً وهو حراسة القرآن من أن يقتحمه خطأ في النطق أو الفهم، وحراسة العربية من أن يقتحم حرماً دخیلاً لا ترضى عنه العربية، وصيانة هذه الثروة من الضياع. مرت المعاجم العربية بأطوار مختلفة وتعددت مدارسها المعجمية واللغوية، وهذه المدارس على سبيل الإيجاز هي:

مدرسة الخليل

مدرسة الخليل أول مدرسة عرفت العربية في تاريخ المعجم العربي، والخليل إمام هذه المدرسة وإمام المعجميين عامة، فهو أول من شق أمامهم طريق التأليف المعجمي ودلهم عليه.

وقوام مدرسته ترتيب المواد على الحروف حسب مخارجها وتقسيم المعجم إلى كتب، وتفریع الكتب إلى أبواب بحسب الأبنية، وحشد الكلمات في الأبواب، وقلب الكلمة إلى مختلف الصيغ التي تأتي منها، مثل قوله في باب السين والميم مع الواو والألف والياء: سوم، وسوم، سمو، مسو، موس.

وقد سار بعض رواد التأليف المعجمي على نهج الخليل، فالتزمه الأزهرى في «التهذيب» وابن عباد في «المحيط»، والقالى في «البارع».

ولم يكن هؤلاء الرواد مقلّدين، ولم يتبعوا الخليل في كل دقيقة من دقائق منهجه، بل خالفوه في بعض منهجه، وأضافوا إلى طريقة الخليل أشياء جديدة، وهذا الجديد الذي اضافوه أو المقصد الذي أرادوه، نتيجة تطور التأليف المعجمي الملحوظ.

ومن أوجه الخلاف بين رائد هذه المدرسة وأتباعها أن الخليل جعل كل كتاب في معجمه قائماً على حرف من حروف الهجاء، ومقسوماً إلى أربعة أبواب: الثنائي المضاعف، والثلاثي الصحيح، واللفيف، وجعل الباب الرابع للرابعي والخماسي.

وكذلك صنع القالي، إلا أنه أفرد لكل من الرابعي والخماسي باباً، وعزل ما كان ثلاثياً معطلاً بحرف عن اللفيف، وسماه الثلاثي المعتل. والأزهري خالف الخليل في المهموز وأحرف العلة، حيث أراد الأزهري إفرد المهموز دون تفرقة، وعزله عن المعتل، ولكنه لم يوفق كل التوفيق.

مدرسة أبي عبيد

وهي التي تنتسب إلى أحد أئمة اللغة والأدب أبي عبيد القاسم بن سلام، وقواعدها بناء المعجم على المعاني والموضوعات، وذلك بعقد أبواب وفصول للمسميات التي تتشابه في المعنى أو تتقارب، وكانت طريقة أبي عبيد من أولى المراحل التي بدأ فيها التأليف اللغوي، ولكن بدأ كتباً صغيرة، كل كتاب يؤلف في موضوع، مثل كتاب الخيل، وكتاب اللبن، وكتاب العسل، وكتاب الحشرات،...

وفضلُ أبي عبيد أنه جمع أشتات هذه الموضوعات والمعاني في كتاب كبير، يضم أكثر من ثلاثين كتاباً مثل: خلق الإنسان، والنساء، واللباس، والطعام والشراب،.. ومجموع ما تضم هذه الكتب الثلاثون سبعة عشر ألف حرف وأكثر.

وقد جمع أبو عبيدة أشتات الكتب الصغيرة المؤلفة بحسب المعاني والموضوعات، وجمعها في غريبه، وقسمها أبواباً سماها كتباً، ثم أفرد كتاب بموضوع حشد فيه من الكلمات ما يتفق مع العنوان، فمثلاً حشد في كتاب النساء كل الكلمات الخاصة بهذا الجنس.

واتبع أبا عبيدة في تأليفه من القدماء أبو الحسن الهنائي الأزدي - المعروف بكراع النمل - في كتابه «المنجد فيما اتفق لفظه واختلف معناه». وابتعه ابن سيده في «المخصص» وتوسع فيه كثيراً، ومن المعاصرين مؤلفا كتاب «الإفصاح».

مدرسة الجوهري

هذه المدرسة تنتسب إلى الإمام المجدد الجوهري الذي ابتكر في التأليف المعجمي منهجاً قرب اللغة إلى الباحثين. ومئات المعاجم والكتب اللغوية مرتبة ترتيب الجوهري مما يدل على عظم مدرسته. ونظام هذه المدرسة ترتيب المواد على حروف المعجم باعتبار آخر الكلمة بدلاً من أولها، ثم النظر إلى ترتيب حروف الهجاء عند ترتيب الفصول، والأول سماه باباً، والثاني فصلاً، فكلمة «بسط» يُبحث عنها في باب

الطاء لأنها آخر حرف فيها، وتقع في فصل الباء لأنها مبدوءة بها. ولم يقف إمام هذه المدرسة عند الحرف الأخير بل نظر إلى الحرف الأول، ثم تجاوز ذلك إلى الحرف الثاني في الثلاثي، والحرف الثالث في الرباعي، والحرف الرابع في الخماسي، حتى يكون الترتيب دقيقاً. ومن أشهر أتباع هذه المدرسة الإمام الصغاني في معجماته المعلمات المشهورات: «التكملة والذيل والصلة» و «مجمع البحرين» و «العباب» ، والفيروز أبادي في «القاموس» وابن منظور في «اللسان» .

ومع أن الفيروز أبادي أراد من تأليف القاموس منافسة الجوهري في النظام والترتيب والمنهج.

ومن معاجم المعاصرة التي سارت على نهج الترتيب الألفبائي «المعجم الوسيط» الذي أصدره مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ويتلخص المنهج الذي نهجه مجمع اللغة العربية في ترتيب مواد المعجم فيما يلي:

- تقديم الأفعال على الأسماء.
- تقديم المجرد على المزيد من الأفعال.
- تقديم المعنى الحسي على المعنى العقلي، والحقيق على المجازي.
- تقديم الفعل اللازم على الفعل المتعدي (*).

(*) عن شركة صخر برامج الحاسوب يتصرف

رسالة دكتوراه حول: «اللغة الفنية عند ناصر الدين الأسد»

نوقشت في قسم اللغة العربية في جامعة اليرموك رسالة دكتوراه بعنوان «اللغة الفنية عند ناصر الدين الأسد» مقدمة من الطالب محمد الفزاع. وأوضح الباحث أن الرسالة هدفت إلى دراسة اللغة الفنية في أعمال الأديب العلامة ناصر الدين الأسد، من خلال دراسة نشأته وحياته التعليمية والثقافية والعلمية، والعوامل المؤثرة فيها، ومؤلفاته ونتائجته الأدبية، وآرائه في اللغة العربية، واللغة العربية الفنية الأدبية بخاصة، ومعايير وخصائص اللغة العربية الفنية الأدبية في النقد الأدبي، وخصائص اللغة الفنية الأدبية والأسلوب الأدبي البلاغي في نتاجاته الأدبية، كما هدفت إلى دراسة مستويات هذه اللغة الفنية (المستوى الصوتي، المستوى الصرفي والنحوي، المستوى التركيبي، المستوى الدلالي)، ودراسة المصطلحات والتعابير الاصطلاحية والسياقية، تعريفها ومهيتها وخصائصها الفنية الأدبية وأثارها في لغته وأسلوبه الفنية الأدبية الابداعية. وجاءت الرسالة في خمس فصول، الأول تناول نشأة ناصر الدين الأسد والعوامل المؤثرة فيها وحياته التعليمية والثقافية والعلمية وأثاره ومؤلفاته، والثاني آرائه في اللغة العربية، والثالث في اللغة الفنية والأسلوب الأدبي: المعايير والخصائص والسمات والمميزات الفنية والأدبية، والرابع: دراسة محتويات هذه اللغة الفنية والأدبية، والخامس دراسة المصطلحات والتعابير الاصطلاحية والسياقية في نتاجاته وأعماله

الأدبية. ويشير الباحث إلى أن حياة الدكتور ناصر السد الأدبية كانت حافلة بالمؤثرات الذاتية والبيئية، حيث انعكس ذلك على معارفه وخبراته وتصورات، مما أدى إلى تميزه في أعماله الأدبية الابداعية التي تنوعت وتعددت، فكانت ابحاثا ودراسات ومؤلفات وأعمالا في الترجمة والتحقيق، ومحاضرات ومقالات أدبية، ونصوص اللقاءات التي أجرتها معه وسائل الإعلام المختلفة، وتعددت المجالات والموضوعات والأغراض الأدبية التي تحدث وكتب فيها ناصر الدين الأسد، فكانت في الشعر، والنثر الأدبي، وتجاوزت المائة عمل أدبي، تمثل الاسد البيان الرفيع في كتاباته الأدبية، وأعماله الأكاديمية، فقد كانت لغته الأدبية لغة عالية فصيحة سليمة صحيحة معبرة ودالة، فيها انسياب لغوي فني أدبي إبداعي يلزمه انسياب فكري وانسياب وجداني، وتميز أسلوبه الأدبي بالبلاغة والبلاغية، والسهولة والسلاسة، والرقّة والمتعة، والذائقة الأدبية والإثارة، كما كان يتناسب وينسجم مع بنائية النص الأدبي ومع قواعد اللغة العربية ومعاييرها وحدودها وعلاماتها اللغوية. أما المصطلحات والتعابير الاصطلاحية والسياقية فقد كانت متنوعة ومتعددة وذات خصائص لغوية وفنية وأدبية أسهمت في جماليات وبنائية وإبداعية اللغة الفنية الأدبية والنص الأدبي الإبداعي بنائيا وإبداعيا، وظف ناصر الدين الأسد اللغة العربية توظيفاً سليماً في خدمة الفكر، وخلق إبداعه الفني اللغوي والأدبي التلاحم والانسجام بين اللغة ومضامينها فكانت هناك علاقة بين لغته الفنية وأسلوبه البلاغي والأجواء النفسية والقدرات

العقلية والاجتماعية والثقافية، وتميزت أعماله الأدبية بفضاءاتها وإضاءاتها وذائقها الفنية الأدبية ومضامينها الفكرية والنفسية والعلمية والثقافية. واتسمت لغته الفنية وأسلوبه الأدبي بالقوة التأثيرية على الملتقى بجميع مستوياته، وانبأت عن مستوى الطلاقة اللغوية والسليقة اللغوية والمهارات اللغوية والداء اللغوي والكفاءة اللغوية التي تجلت في جميع نتاجاته وأعماله الأدبية والابداعية، وأوصت الدراسة بإعادة قراءة أعماله ونتاجاته الأدبية جميعها، وإجراء المزيد من الأبحاث والدراسات اللغوية والنقدية والأدبية في بحرها الزاخر العميق في مجال الفكر والأدب والعلوم الإنسانية. وتألقت لجنة المناقشة من الدكتور سمير استيتيتيه رئيسا، والدكتور نهاد الموسى، والدكتور عبد القادر الرباعي، والدكتور سلمان القضاة، والدكتور يوسف أبو العدوس أعضاء.

الفرق بين كتابه (إن شاء الله) و (إنشاء الله)

من خلال قراءاتي للعديد من الموضوعات في المنتديات، وجدت أن أكثر الأخوة والأخوات يقعون في خطأ فادح، وهذا الخطأ يدخل في شيء من خصائص الله، فكان لزاماً علي أن أبين هذا الخطأ، ألا وهو كتابة (إن شاء الله) و (إنشاء الله)

فأيهما أصح؟ وأيهما أوجب للكتابة؟ وما معنى كل جملة منهما؟
فقد جاء في كتاب (شذور الذهب) - لابن هشام أن معنى الفعل إنشاء الله - من أنشأ ينشئ - أي أيجاد ومنه قول تعالى: ﴿إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ﴾ (إنشاء) (الآية 35 من سورة الواقعة) أي أوجدناها إيجاداً.

فمن هذا لو كتبنا (إنشاء الله) يعني كأننا نقول أننا أوجدنا الله تعالى الله علواً كبيراً - وهذا غير صحيح.

أما الصحيح هو أن نكتب (إن شاء الله) فإننا بهذا اللفظ نحقق هنا إرادة الله عز وجل، فقد جاء في معجم (لسان العرب) معنى الفعل شاء - أراد، فالمشيئة هنا هي الإرادة فعندما نكتب (إن شاء الله) كأننا نقول بإرادة الله نفعل كذا، ومنه قول الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الآية 30 من سورة الإنسان).

فهناك فرق بين الفعلين (أنشئ أي أوجد) والفعل (شاء أي أراد) فيجب علينا كتابة (إن شاء الله) وتجنب كتابته (إنشاء الله) للأسباب السابقة.

طبع المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية

وحدة الرغاية، الجزائر

2005

Printed in Algeria



الايداع القانوني ، 1513-2005

ISBN : 1112-65-23